المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

دفع إيهام التعارض عن الآيات الواردة في الإيمان بالرسل والقدر

- ع ودراسة -

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعـداد الطالب
خالد بن عبد الله بن عمر الدميجي
الرقم ا امعي (٤٢٢٨٠٠٨٩)

إشراف
سعادة الدكتور/ أحمد بن ناصر الحمد
الأستاذ المشارك بقسم العقيدة

١٤٢٧هـ

Search Abstract

Study title : removing the objection from the Ayate that come in believe in prophet and fate .
Name of scholar : Khalid bin Abdullah bin Omar al-Domegy
Study Subject : Islamic Faith .
Degree : master degree .
Study aim: removing the objection from the Ayate that come in believe in prophet and fate.
Study plane : introduction : includes the importance of the subject , reason to choose it , study methodology and study plane .
Preface : defining the objection and the most important writing .
Study Chapters: the first chapter: includes the Ayate in believe in prophets and includes two section:
First section : Ayate in prophecy and prophet and include nine researches :
First one : Ayate in prophet prevention.
Second one : Ayate in the prophets evidence on their nation.
Third one : includes Ayate in supporting the prophet.
Fourth one : Ayate in deleting the ability of the prophets to know the future.
Fifth one : Ayate that assure that the prophet from the village population.
Sixth one : Ayate that every nation has a warner.
Seventh one: Ayate ensure that the prophet are the cause of their nation's safety from torture.
Eighth one : Ayate ensure that the Devil has no authority on the prophet.
Ninth one: Ayate ensure that the prophet ara several .
Second section: Ayate concern with the prophet and includes ensure fife researches:
First research: Ayate concern with nohe and Ibrahim (P.U.H).
Second research :Ayate concern with Yonos (P.U.H).
third research: Ayate concern with Mosa (P.U.H)
Fourth research: Ayate concern with Eisa (P.U.H).
Fifth research: Ayate concern with Mohammad (P.U.H).
Second Chapter: Ayate the come in believing in fate and include three section .
First section: Ayate in believe and disbelieve and include two research :
First research : Ayate in general and private believe .
second research : Ayate.
That delete the Faith of miscreant .
Second section: Ayate in ability , desire and order and includes two research:
first research: Ayate in the universal and legal desire and the deference between them.
second research: Ayate in the universal and legal order obligation and the deference between them .
third research: Ayate in people action and include six researches :

1- **Ayate in previous fate .**
2- **Ayate in people obligation .**
3- **Ayate in people action .**
4- **Ayate in miscreant objection to fate .**
5- **Ayate in making the evidence .**
6- **Ayate in getting things although there are no reasons to get it .**

Conclusion: include the result and recommended as :

1- **The are no difference in Quran .**
2- **The Objection in Quran is not real .**
3- **Removing the Objection about Ayate that come in believing in Prophets and fate .**
4- **It is important to depend on the writings of ancestors .**
5- **I recommended all students and researchers to interest in the subject that care with Quran .**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة: دفع إيهام التعارض عن الآيات الواردة الإ ان بالرسل والقدر.
اسم الباحث: خالد بن عبد ا بن عمر الدميجي.
موضوع الرسالة: العقيدة الإسلامية.
الدرجة: ا اجست .
هدف الدراسة: إزالة التعارض ا توهم الآيات الواردة الإ ان بالرسل والإ ان بالقدر.
خطة الرسالة: ١ - **ا قدمة:** وفيها أ ية ا وضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطة الرسالة.
٢- **هيد:** وفيه تعريف التعارض وأشهر ا ؤلفات فيه.
٣- **أبواب الرسالة:**

الباب الأول: الآيات الواردة الإ ان بالرسل، و توي على فصل :

الفصل الأول: آيات النبوة والأنبياء و توي على تسعة مباحث:
ا بحث الأول: آيات عصمة الأنبياء، ا بحث الثا : آيات شهادة الرسل على أ هم، ا بحث الثالث: آيات نصرة الرسل وغلبتهم، ا بحث الرابع: آيات نفي اطلاع الأنبياء على الغيب، ا بحث ا امس: آيات كون الأنبياء من أهل القرى، ا بحث السادس: آيات أن كل أمة ل من نذير، ا بحث السابع: آيات أن وجود الأنبياء سبب أمن أ هم من العذاب، ا بحث الثامن: آيات نفي تسلط الشيطان على الأنبياء، ا بحث التاسع: آيات تعدد شرائع الأنبياء.

الفصل الثا : آيات خاصة بالأنبياء، و توي على سة مباحث:
ا بحث الأول: آيات خاصة بنوح وإبراهيم عليهما السلام، ا بحث الثا : آيات خاصة بيونس عليه السلام، ا بحث الثالث: آيات خاصة وسى عليه السلام، ا بحث الرابع: آيات خاصة بعيسى عليه السلام، ا بحث ا امس: آيات خاصة بالن مد صلى ا عليه وسلم.

الباب الثا : الآيات الواردة الإ ان بالقدر، و توي ثلاثة فصول:

الفصل الأول: آيات ا دى والضلال، وفيه مبحثان:
ا بحث الأول: آيات ا داية العامة وا داية ا اصة، ا بحث الثا : آيات نفي إ ان الكافر مع إمكانية وقوعه.

الفصل الثا : آيات ا شيئة والإرادة والأمر، وفيه مبحثان:
ا بحث الأول: آيات الإرادة الكونية والشرعية والفرق بينهما، ا بحث الثا : آيات الأمر الكو والشرعي والفرق بينهما.

الفصل الثالث: آيات أفعال العباد، و توي على ستة مباحث:
ا بحث الأول: آيات القدر السابق مع إثبات ا شيئة للعبد، ا بحث الثا : آيات التكليف ا يطاق، ا بحث الثالث: آيات أفعال العباد، ا بحث الرابع: آيات احتجاج ا شرك بالقدر، ا بحث ا امس: آيات قيام ا جة، ا بحث السادس: آيات الدعاء صول الشيء مع عدم توفر أسباب حصوله.

ا ا ة: وفيها أهم النتائج والتوصيات، ومن أ ها:

١- أن القرآن الكر لا يوجد فيه تعارض ولا اختلاف قال ا تعا (ولو كان من عند غ ا لوجدوا فيه اختلافا كث ا) سورة النساء الآية (٨٢)
٢- أن التعارض ا توهم ب الآيات تعارض شكلي – نظر الناظر -، لا حقيقة له الواقع، وإ ا هو بسبب قصور الناظر وا تأمل القرآن.
٣- دفع إيهام التعارض عن الآيات الواردة الإ ان بالرسل والقدر.
٤- ضرورة الاعتماد على كتب التفس السلفية، فهم معا آيات كتاب ا .
٥- أوصي طلاب العلم والباحث بالاهتمام با واضيع ال تع بكتاب ا عز وجل، والدفاع عنه.

وآخر دعوانا أن ا مد رب العا ، وسلام على ا رسل ...

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

و بعد:

فإن من أعظم نعم الله على هذه الأمة أن أنزل عليها خير كتبه، وأرسل إليها أفضل رسله، وشرع لها أفضل شرائع دينه.

ومن تمام نعمته عليها أن جعل كتابه العزيز معجزة خالدة على مر العصور والدهور قُل﴿ لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾(٨٨)[١] وجعله مناط قوة الأمة وعزها، وسر هدايتها ونورها، كما قال تعالى: قَدۡ﴿ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(١٦)[٢].

وكما روى الإمام مسلم بسنده عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما - أن النبيﷺ قال في حجة الوداع: **((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به كتاب الله...))**[٣].

فكتاب الله عز وجل هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، من تمسك به نجا، ومن فرط فيه هلك، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، لا تزيغ به الأهواء، ولا يمل منه البلغاء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي بركاته، لَّا﴿ يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾(٤٢)[٤].

ولما كان كتاب الله عز وجل بهذه المنزلة الرفيعة، والمكانة العالية؛ حرص أعداء

---

(١) سورة الإسراء.
(٢) سورة المائدة .
(٣) الصحيح، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ح (١٢١٨) صـ (٥١٥)
(٤) سورة فصلت .

الإسلام قديما وحديثا على تحريف ألفاظه ومعانيه، والتشكيك في أخباره وأوامره ونواهيه ؛ بأساليب شتى وطرق مختلفة: جماعها النيل من القرآن الكريم، وتشكيك المسلمين في مصدر قوتهم وعزهم، والحيلولة بينهم وبينه.

فأخذ الأعداء يشككون المسلمين في آياته، ويضربون بعضها ببعض، زاعمين الاختلاف فيها، والتناقض والتعارض بينها.

إلا أن الله سبحانه وتعالى أبطل كيدهم ورده في نحورهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1] وتكفل سبحانه بحفظ كتابه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

وهيأ علماء الإسلام - قديما وحديثا - للدفاع عن كتابه، والذود عن حياضه، بدفع الشكوك والشبهات التي تثار حوله بين الفينة والأخرى.

ولذا كان الواجب على طلاب العلم المشاركة في هذا الميدان، والقيام بواجبهم في الدفاع عن كتاب الله –عز وجل بدفع هذه الشبهات وإزالة تلك الأوهام.

ومن هذا المنطلق عقدت العزم - بعد استخارة واستشارة - على أن يكون عنوان رسالتي لمرحلة الماجستير: **"دفع إيهام التعارض عن الآيات الواردة في الإيمان بالرسل والقدر"**

وذلك للأسباب التالية:

١- القيام بواجب الدفاع عن كتاب الله عز وجل، والذود عن حياضه ضد تشكيك الأعداء وشبهاتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بهذا العمل.

٢- اتصال هذا الموضوع بكتاب الله عز وجل وأنبيائه ورسله، والقدر، والتي تعتبر أركاناً مهمة من أركان الإيمان بالله عز وجل.

٣- رد ودفع الشبهات والشكوك والافتراءات الباطلة التي أثارها ويثيرها الأعداء فيما يدعونه من وجود تعارض وتناقض واختلاف بين كتاب الله –سبحانه وتعالى.

٤- التطبيق العملي للمنهج السلفي في فهم نصوص كتاب الله مجتمعة في المسألة الواحدة، لا أن يضرب كتاب الله بعضه ببعض، أو يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، كما هو حال الذين في قلوبهم مرض من المغضوب عليهم أو الضالين، وأشباههم.

٥- إثراء المكتبة الإسلامية بإضافة بحث علمي جديد في تخصص العقيدة، يدفع إيهام التعارض بين آيات الله الواردة في الإيمان بالرسل والإيمان بالقدر.

٦- استكمال المشروع البحثي العلمي الذي تقدمت به الأختان: حياة المحمادي،

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة الحجر.

وحنان العمري، من كلية التربية للبنات بمكة المكرمة.

فقد بحثت الأولى: (آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان بالله والملائكة والكتب).

وبحثت الثانية: (آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر).

وقد اتبعت في إعداد هذا البحث منهجين أساسين هما:

أ ـ **المنهج الاستقرائي:** وذلك بتتبع واستقراء الآيات التي قد يتوهم من ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان بالرسل، والإيمان بالقدر، وحصرها وتقسيمها على حسب الموضوعات.

ب ـ **المنهج التحليلي:** وذلك بتحليل معاني النصوص، ببيان وجه التعارض المتوهم بين الآيات، ثم الاستعانة بأقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين، وذلك بغية حصر أوجه الجمع بين هذه الآيات المنصوص عليها لدفع التعارض المتوهم مع أدلتها وتعقيبات العلماء عليها، ثم الترجيح بين تلك الأقوال.

وقد سلكت في عرض مادة هذا البحث الطريقة التالية:

أولاً- تحديد الآيات في المسألة العقدية، وإتباعها بالآيات التي قد يتوهم من ظاهرها التعارض.

ثانياً- بيان وجه التعارض المتوهم بين الآيات وإبرازه.

ثالثاً- إيراد مسالك العلماء في دفع هذا الإيهام، وهي على النحو التالي:

١- مذهب الجمع: أي الجمع بين الآيات الموهمة التعارض، وذلك بسرد أقوال العلماء في الجمع بين تلك الآيات وتفسيرها وذكر أدلتهم على ذلك.

٢ ـ مذهب النسخ: أي نسخ بعض الآيات لبعض، ببيان ذلك ومن قال به.

رابعــاً- إيراد تعقيبات العلماء على الأقوال المذكورة في المسألة، إن كان لهم تعقيبات.

خامساً- الترجيح بين مسالك العلماء وأقوالهم، مع ذكر سبب الترجيح ما أمكنني ذلك.

وهذه الجوانب الخمسة سوف أضمنها كل مسألة من مسائل البحث، إلا أنه قد يقتضي المقام عدم ذكرها جميعا في بعض تلك المسائل.

سادساً- عزو الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى مواضعها في المصحف الشريف، بذكر اسم السورة ورقم الآية، وذلك في الهامش.

سابعاً- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مظانها من كتب السنة المعتمدة، وكان منهجي في التخريج كما يلي:

١- إذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما؛ إذ المقصود معرفة صحته وثبوته.

٢- إذا لم يكن الحديث في الصحيحين أو أحدهما التزمت تخريجه من كتب السنة بحسب الوسع والطاقة، ثم أورد كلام أهل العلم في الحكم عليه على قدر الاستطاعة.

٣ـ أذكر الكتاب ثم الباب ثم رقم الحديث ثم رقم الجزء والصفحة، وذلك إذا كان في الصحيحين، وأما إذا كان في غيرهما، فأذكر رقم الحديث والجزء والصفحة.

٤ـ إذا تكرر الحديث في ثنايا البحث فإني أحيل القارئ إلى الصفحة التي ورد تخريجه فيها المرة الأولى.

ثامناً ـ وثقت الآثار الواردة في البحث حسب الاستطاعة.

تاسعاً ـ اقتصرت في ترجمة الأعلام، على غير المعروفين، الوارد ذكرهم في صلب الرسالة، وذلك في أول موضع ذكر فيه العلم.

عاشرا ـ شرحت ما دعت إليه الحاجة من الكلمات الغريبة.

الحادي عشر ـ عزوت ما وقفت عليه من الأبيات الشعرية إلى مصادرها قدر الإمكان.

الثاني عشر ـ التزمت عند ورود اسم الكتاب لأول مرة بذكر اسمه كاملاً واسم المؤلف كاملاً، ثم الجزء إن وجد ورقم الصفحة، ثم إذا تكرر مرة أخرى أكتفي بالجزء الأول من العنوان ولقب المؤلف.

الثالث عشر ـ وثقت نسبة المسالك والوجوه والأقوال إلى من ذكرته على وجه الخصوص ، وإلى من يشاركه القول عموما بعزو ذلك إلى المراجع في الهامش.

الرابع عشر ـ وضعت خاتمة في آخر الرسالة بينت فيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال البحث.

وأخيراً:

ذيلت الرسالة بخمسة فهارس خدمة للبحث، وهي:

١ـ فهرس الآيات القرآنية، معزوة إلى سورها ومرتبة حسب ورودها في القرآن الكريم.

٢ـ فهرس الأحاديث النبوية، مرتباً حسب الحروف الهجائية.

٣ـ فهرس الآثار ، مرتباً حسب الحروف الهجائية.

٤ـ فهرس المصادر والمراجع، مرتبا حسب الحروف الهجائية.

٥ـ فهرس الموضوعات.

وأما خطة البحث فهي على النحو التالي :

- **ا قدمة:**

وتشتمل على سبب اختيار الموضوع وأهميته، وأهدافه،والدارسات السابقة ومنهج البحث وخطة البحث التي سرت عليها.

- **التمهيد:**

تعريف التعارض، وأهم المؤلفات فيه، ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول ـ تعريف التعارض لغة واصطلاحاً، وعلاقته بالمشكل والمتشابه.

المبحث الثاني ـ أشهر الكتب المؤلفة في دفع إيهام التعارض بين آيات القرآن

الكريم

- **الباب الأول ـ الآيات الواردة في الإيمان بالرسل**، ويحتوي على فصلين:

الفصل الأول ـ آيات في النبوة والأنبياء، وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول ـ آيات في عصمة الأنبياء.
المبحث الثاني ـ آيات في شهادة الرسل على أممهم.
المبحث الثالث ـ آيات في نصرة الرسل وغلبتهم.
المبحث الرابع ـ الآيات النافية علم الأنبياء الغيب.
المبحث الخامس ـ آيات في كون الأنبياء من أهل القرى.
المبحث السادس ـ آيات في أن كل أمة لم تخل من نذير.
المبحث السابع ـ آيات في أن وجود الأنبياء سبب في أمان أممهم من العذاب.
المبحث الثامن ـ آيات في نفي تسلط الشيطان على الأنبياء والمؤمنين.
المبحث التاسع ـ آيات في تعدد شرائع الأنبياء.

الفصل الثاني ـ آيات خاصة بالأنبياء، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول ـ آيات خاصة بنوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ.
المبحث الثاني ـ آيات خاصة بيونس ـ عليه السلام ـ.
المبحث الثالث ـ آيات خاصة بموسى ـ عليه السلام ـ.
المبحث الرابع ـ آيات خاصة بعيسى ـ عليه السلام ـ.
المبحث الخامس ـ آيات خاصة بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول ـ آيات في طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .
المطلب الثاني ـ آيات في اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .
المطلب الثالث ـ آيات في مغفرة ذنوب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .
المطلب الرابع ـ آيات في عدم سؤال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته الأجر على التبليغ.
المطلب الخامس ـ آيات في تنزيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الضلال.
المطلب السادس ـ آيات في عموم البعثة المحمدية.
المطلب السابع ـ آيات في أفضلية الأمة المحمدية على سائر الأمم.

- **الباب الثـا ـ الآيات الواردة في الإيمان بالقدر**، ويحتوي على ثلاثة فصول:

الفصل الأول ـ آيات في الهدى والضلال، ويحتوي على تمهيد ، ومبحثين:

تمهيد ـ الهدى في القرآن الكريم.
المبحث الأول ـ آيات في الهداية العامة والهداية الخاصة.
المبحث الثاني ـ آيات في نفي إيمان الكافر مع إمكانية وقوعه.

الفصل الثاني ـ آيات في المشيئة والإرادة والأمر، وفيه مبحثان:

المبحث الأول ـ آيات في الإرادة الكونية والشرعية والفرق بينهما.
المبحث الثاني ـ آيات في الأمر الكوني والشرعي والفرق بينهما.

الفصل الثالث ـ أفعال العباد، ويحتوي على ستة مباحث:

المبحث الأول ـ آيات في القدر السابق مع إثبات المشيئة للعبد.
المبحث الثاني ـ آيات في التكليف بما لايطاق.
المبحث الثالث ـ آيات في أفعال العباد.
المبحث الرابع ـ آيات في احتجاج المشركين بالقدر.
المبحث الخامس ـ آيات في قيام الحجة على المشركين.
المبحث السادس ـ آيات في الدعاء بحصول الشيء مع عدم توفر أسباب حصوله.

- **ا ا ة:**

وفيها أهم المسائل و النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

- **الفهارس،** وهي :

١ ـ فهرس الآيات القرآنية.
٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية.
٣ـ فهرس الآثار .
٤ ـ فهرس المصادر والمراجع.
٥ ـ فهرس الموضوعات.

وأخيراً: لا يسعني في هذا المقام إلا أن أشكر الله سبحانه وتعالى على ما من به علي وأنعم من انتسابي لطلب العلم الشرعي، وتوفيقي لاختيار هذا الموضوع المهم، وإتمامه، راجياً منه سبحانه القبول والعفو والمغفرة.

ثم أشكر والديَّ ـ حفظهما الله ومتعهما بالصحة والعافية ـ اللذين غرسا فيَّ حب العلم ومواصلة طلبه، ولم يبخلا عليّ بشيء من العطاء والدعاء والتشجيع.

كما أشكر فضيلة شيخي الدكتور/أحمد بن ناصر الحمد، المشرف على هذه الرسالة على ما منحني من وقته وجهده وعلمه، مع كثرة مشاغله ومسؤولياته، سائلاً المولى عز وجل أن يجزيه عني خير الجزاء وأن يجعل ما قدمه في ميزان حسناته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كما أشكر جامعة أم القرى على ما تقدمه من خدمات لطلاب العلم.

كما أشكر كلية الدعوة وأصول الدين، وقسم العقيدة والقائمين عليه على ما يبذلونه من جهود في سبيل نشر العلم وتذليل الصعاب أمام طلابه.

كما أشكر كل من قدم لي نصحاً أو توجيهاً أو مساعدة خلال مشوار هذا البحث، سائلاً الله عز وجل أن يجزيهم عني خير الجزاء، وأن يوفقهم لما يحب ويرضى.

وفي الختام فإني لا أدعي الكمال في هذا البحث، ولكني قد بذلت فيه الجهد والطاقة، فإن أصبت فمن الله وله الحمد والمنة، وإن أخطأت فمن نفسي ، وأستغفر الله تعالى إنه هو الغفور الرحيم.وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بقلم

خالد بن عبدالله بن عمر الدميجي

١٤٢٧/٥/٥هـ

*   *   *

الباب الأول

ويحتوي على فصلين:

الفصل الأول. تعريف التعارض، ومفارقته المشكل والمتشابه.

الفصل الثاني. أشهر الكتب المؤلفة في دفع إيهام التعارض والاختلاف والمشكل.

الفصل الأول

تعريف التعارض، وعلاقته بالمشكل والمتشابه

المبحث الأول

تعريف التعارض

أولا . التعارض في اللغة: مصدر (تعارض) من باب التفاعل، وفعله يقتضي فاعلين فأكثر.

فإذا قلنا: تعارض الدليلان، كان المعنى تشارك الدليلان في التعارض الذي وقع بينهما[(١)].

ومادة (عرض) في اللغة لها عدة مدلولات منها:

١ ـ **الناصية أو الجهة:** يقول الأزهري: (وأما العُرْض، فهو ناحية الشيء من أي جهة جئته. قال: استعرض الخوارج الناس، إذا قتلوهم من أي جهة أمكنهم. وقيل: استعرضوهم: أي قتلوا من قدروا عليه أو ظفروا به، ويقال: اضرب بهذا عُرْضَ الحائط، أي ناحيته)[(٢)].

٢ ـ **المنع:** قال الأزهري: (قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾[(٣)]. قال سلمة عن الفراء: (يقول: لا تجعلوا الحلف بالله معترضًا مانعًا لكم أن تبروا، فجعل العُرضة بمعنى المعترض، ونحو ذلك.. قلت: وقوله: عُرضَة: فُعلة من عَرَضَ يَعرض. وكل مانع منعك من شغل وغيره من الأمراض فهو عارض، وقد عَرَضَ عارض، أي حال حائل ومنع مانع. ومنه قيل: لا تَعرضْ لفلان، أي لا تعترض له فتمنعه باعتراضك أن يقصد مراده ويذهب مذهبه)[(٤)].

ويقول الفيروز أبادي : (والاعتراض المنع والأصل فيه أن الطريق إذا اعترض

---

(١) انظر: منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي للدكتور عبد المجيد السوسوه، الطبعة الثانية (١٤١٧هـ)، دار الذخائر بالدمام، (ص٤٣).

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، (١٣٨٤هـ)، دار القومية العربية للطباعة والنشر، مصر (٤٥٩/١).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٢٤).

(٤) تهذيب اللغة (٤٥٤/١، ٤٥٥).

فيه بناء أو غيره منع السابلة في سلوكه)[1].

٣ ـ **الظهور والإظهار:** قال الأزهري: (قال شمر: ويقال أعرضَ لك الشيء، أي بدا وظَهَر. وأنشد:

إذا أعْرَضَتْ داويَّةٌ مُدلهمَّةٌ   وغرَّدَ حاديها فَرَيْنَ بها فِلَقا[٢]

أي: بدت.

وقال الفراء ـ كما ذكر الأزهري ـ في قول الله جل وعز: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾[٣]: (أي: أبرزناها حتى رأوها)[٤].

وفي اللسان: (وعرض له أمر كذا أي: ظهر، وعرضت عليه أمر كذا، وعرضت له الشيء أي أظهرته له، وأبرزته إليه، وعرضت الشيء فأعرض أي أظهرته فظهر)[5].

٤ ـ **المقابلة:** جاء في اللسان: (وعارض الشيء بالشيء معارضة: قابله، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته.

وفي الحديث: (إن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضه العام مرتين)[٦]. قال ابن الأثير: (أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن)[٧].

وبناء على ذلك فالتعارض في اللغة يدل على معانٍ عديدة، ومن أهمها: الجهة، والمنع، والظهور، والمقابلة. فالتعارض في اللغة: منع ظاهر في جهة مقابلة.

ثانيا ـ التعارض اصطلاحًا:

أكثر من تناول تعريف التعارض بهذا الاسم الأصوليون، وأما علماء الحديث، فلم يرد ذكر التعارض عندهم بهذا الاسم، وإنما جاء وصفه بمختلف الحديث، فذكروا أن مختلف الحديث هو الأحاديث التي تتعارض في الظاهر، وأما علماء علوم القرآن فلم يتناولوه كذلك بهذا الاسم، وإنما تناولوه تحت اسم "موهم الاختلاف والتناقض".

١ ـ تعريف التعارض في اصطلاح الأصوليين:

اختلف الأصوليون في تعريف التعارض ما بين موجز ، وما بين مطنب ، ومنهم

---

(١) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، الطبعة الثانية (١٣٧١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (٣٤٨/٢).
(٢) نسب هذا البيت في اللسان (٣٢٤/٣) إلى سويد بن كراع .
(٣) سورة الكهف.
(٤) تهذيب اللغة (٤٦١/١).
(٥) (١٦٨/٧).
(٦) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، باب: من فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ، ح/٢٤٥٠ (ص١٠٧٧).
(٧) (١٦٧/٧).

من توسط[١].

فمن الأول الغزالي، فيقول: (معنى التعارض ؛ التناقض)[٢].

ومن الثاني: النسفي، وقد عرف التعارض بأنه: (إبطال إحدى الحجتين بالأخرى ، وركن المعارضة تقابل الحجتين المتساويتين على وجه يوجب كل منهما ضد ما توجبه الأخرى ؛ لأن ركن الشيء ما يقوم به ذلك الشيء، وبالحجتين المتساويتين تقوم المقابلة إذ الضعيف لا يقابل القوي)[٣].

وقد انتقد هذا التعريف: بأن الحجة تعني الدليل القطعي، ومعلوم أنه لا تعارض بين الأدلة القطعية، وأن "إبطال إحدى الحجتين بالأخرى" زيادة في التعريف غير سليمة؛ لأن دفع التعارض الظاهري يتم بالجمع، أو النسخ أو الترجيح، وليس ذلك من الإبطال لاحدى الحجتين، والإبطال لأحد المتعارضين لا يكون إلا في التناقض[٤].

وممن توسط في التعريف وجاء بتعريف جامع مانع، وأكثر ضبطًا من غيره السبكي. فعرف التعارض بقوله: (التعارض بين الشيئين هو: تقابلهما على وجه يمنع كل منهما مقتضى صاحبه)[٥].

وانتقد هذا التعريف بأنه لم يضف كلمة "ظاهرًا" لأن التعارض بين الأدلة إنما هو في الظاهر بحسب ما يتبادر إلى ذهن المجتهد وليس واقعًا بين الأدلة[٦].

٢ ـ تعريف التعارض في اصطلاح المحدثين:

لم يستخدم المحدثون لفظ التعارض، وإنما استخدموا لفظ: مختلف الحديث. كما تقدم

.

وعرفوا مختلف الحديث تعريفات متقاربة. وأهمها ما يلي:

أ ـ يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ (الحديث الذي عارضه ـ ظاهرًا ـ مثله) [٧] وذلك بناء على ضبط مختلف الحديث بكسر اللام.

ب ـ يقول السيوطي ـ رحمه الله ـ (أن يأتي الحديثان متضادان في المعنى

---

(١) انظر: منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي، للدكتور عبد المجيد محمد إسماعيل السوسوه، (ص ٤٦).

(٢) المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد محمد الغزالي، ت: محمد الأشقر، ط الأولى، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت. (٢/٢٢٦).

(٣) كشف الأسرار شرح المنار، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، ط: ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (٢/٨٨، ٨٩).

(٤) انظر: منهج التوفيق والترجيح، للسوسوة (ص٤٨).

(٥) الإبهاج شرح المنهاج، لابن السبكي (٢/٢٧٣).

(٦) انظر: منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي، الدكتور/ السوسوة (ص٤٩).

(٧) نزهة النظر، شرح نخبة الفكر، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة مكتبة التوعية الإسلامية، القاهرة. (ص ٣٧).

ظاهرًا)[1]. وذلك بناء على ضبط مختلف الحديث بفتح اللام.

٣ ـ تعريف التعارض في اصطلاح المفسرين وعلماء علوم القرآن:

لقد عرف علماء القرآن موهم الاختلاف والتناقض كما يقول الزركشي : بأنه (ما يوهم التعارض بين آيات كلام الله، وكلام الله ـ جل جلاله ـ منزه عن ذلك)[2].

وبناء على ما سبق، فيمكن تعريف التعارض في هذا البحث بما يلي :

(تعارض دلالة آية مع دلالة آية أخرى في الظاهر).

وبهذا يتبين لنا موافقة المعنى الاصطلاحي للمعنى اللغوي، فكل دليل يعارض غيره فإنه يظهر له في ناحية وجهة مقابلة، فيقابله ويمنعه من تحصيل مقتضاه.

فقول: (تعارض): جنس في التعريف يشمل كل تعارض، سواء كان بين آيتين أو غيرهما.

وقول: (دلالة آية مع دلالة آية أخرى): قيد يخرج التعارض بين غير الآيتين، كآية وحديث، وبين حديثين أو آية ودليل عقلي، أو أي دليل آخر.

وقول: (في الظاهر): يقصد به أن التعارض بين الآيات القرآنية وهمي، وليس حقيقيا.

فهو تعارض يتبادر إلى الذهن، وليس له وجود في الواقع، فإذا أعمل المجتهد مسالك دفع التعارض ارتفع عن ذهنه ذلك التعارض المتوهم بين الآيات.

---

(١) تدريب الراوي، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط الثانية، ١٣٩٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (ص٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابي وشركاه (٤٥/٢).

المبحث الثاني

تعريف المشكل والمتشابه

المطلب الأول ـ تعريف المشكل:

أولا ـ المشكل في اللغة:

اسم فاعل من أشكل عليه الأمر: إذا اختلط.
ومادة (شكل) في اللغة لها عدة معان منها:

١ ـ المماثلة: قال الأزهري: (قال الليث: الشَّكْلُ المِثل، تقول هذا على شَكْلِ هذا أي على مثاله، وفلان شَكْلُ فلان أي مثله في حالاته) [١]. وفي القاموس: (الشَّكْلُ: الشبه والمثل) [٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴾ [٣]. فآخر عطف على قوله: ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [٤] أي: وعذاب آخر من شكله أي مثل ذلك الأول[٥].

٢ ـ الاختلاط والالتباس: قال الأزهري: (وقال شمر: الشُّكْلَة: الحُمْرَةُ تختلط بالبياض، وهذا شيء أَشْكَلُ. ومنه قيل للأمر المُشْتَبِه: مُشْكِلٌ.. ويقال: أشكَل عَلَيّ الأمر إذا اختلط، والأشكلُ عند العرب: اللونان المختلطان)[٦].

وفي اللسان: (وأَشْكَلَ الأمر: التبس، وأمور أَشْكَال: ملتبسة، وبينهم أَشْكَلَة أي لبس)[٧].

ثانيا ـ المشكل في الاصطلاح:

١ ـ المشكل في اصطلاح الأصوليين:

يقول البرديسي : (المشكل: هو الذي خفي المراد منه فلا يمكنه أن يدرك إلا بالبحث فيما يكتنفه من القرائن والأدلة)[٨].

---

(١) تهذيب اللغة (١٠/ ٢١).
(٢) (٤١٢/٣).
(٣) سورة ص.
(٤) سورة ص.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (٢٠/١٠). ولسان العرب، لابن منظور (٣٥٦/١١).
(٦) تهذيب اللغة (٢٢/١٠).
(٧) (٣٥٧/١١).
(٨) أصول الفقه، لمحمد زكريا البرديسي، الطبعة الخامسة (١٣٩٤هـ)، دار النهضة العربية القاهرة (ص٣٨٨).

وهذا المصطلح انفرد باستعماله الحنفية من الأصوليين؛ وذلك لتقسيمهم النص الشرعي من جهة وضوح دلالته على معناه وخفائها إلى قسمين:

القسم الأول ـ نص واضح الدلالة على ما أراده الشارع منه.

القسم الثاني ـ نص غير واضح الدلالة على ما أراده الشارع منه.

والمشكل عندهم هو نوع من هذا القسم، ويعود الخفاء في المشكل عند الأحناف إلى اللفظ نفسه وصيغته(١).

٢ ـ المشكل في اصطلاح المحدثين:

يقول الدكتور أسامة خياط : (المشكل: هو أحاديث مروية عن رسول الله ﷺ بأسانيد مقبولة يوهم ظاهرها معاني مستحيلة أو معارضة لقواعد شرعية ثابتة)(٢).

فمنشأ الإشكال عند المحدثين يكمن في عدة أسباب منها:

١ ـ وجود التعارض بين حديثين ، أو أكثر.

٢ ـ وجود التعارض بين آية وحديث.

٣ ـ تعارض الحديث مع الإجماع.

٤ ـ تعارض الحديث مع القياس والعقل ، أو غيرهما.

٥ ـ غموض معنى الحديث واستغلاق فهمه من غير معارضة.

وبناء على ذلك فالمشكل عند المحدثين مصطلح عام يشتمل على التعارض وغيره(٣).

٣ ـ المشكل في اصطلاح علماء علوم القرآن:

عرف الزركشي المشكل بأنه: (ما يوهم التعارض بين الآيات، وكلام الله جل جلاله منزه عن الاختلاف)(٤).

فمنشأ الإشكال عندهم هو ما يوهم التناقض والاختلاف(٥).

المطلب الثاني ـ تعريف المتشابه:

أولا ـ المتشابه في اللغة:

مادة (شبه) في اللغة لها عدة معان من أهمها:

١ ـ المماثلة: جاء في اللسان: (الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المثل، والجمع أَشْبَاهٌ، وأَشْبَهَ الشيءُ الشيءَ ماثله. وفي المثل: من أَشْبَهَ أباه فما ظَلَم، وأَشْبَه الرجل أُمّه: وذلك إذا

---

(١) انظر: آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر (١/١١).

(٢) مختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين الفقهاء. للدكتور أسامة خياط، ط الأولى، ١٤٢١هـ، دار الفضيلة، الرياض (ص ٣٢).

(٣) انظر: آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر، لحنان العمري (١٠/١).

(٤) البرهان، (٤٥/٢).

(٥) انظر: آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر، لحنان العمري (٩/١).

عجز وضعف. وأَشْبَهْتُ فلانًا وشابَهْتُه، واشْتَبَهَ عليَّ، وتشابَه الشيئان، واشْتَبَها: أشْبَهَ كل منهما صاحبه وفي التنزيل: مُتَشَبِهًا﴿ وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾[1] وشَبَّهَهُ إياه، وشَبَّهَه به مثله.. والمتشابهات: المتماثلات، وتَشَبَّهَ فلان بكذا، والتَّشْبِيهُ التمثيل)[2].

٢ ـ **الالتباس:** جاء في القاموس: (وتَشَابَهَا واشْتَبَها أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا.. وأمور مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ كمعظمة: مُشْكِلَة، والشُّبْهَةُ بالضم الالتباس، والمِثْلُ، وشُبِّهَ عليه الأمر تشبيهًا: لُبِّسَ عليه)[3].

ثانيا ـ المتشابه في الاصطلاح:

١ ـ المتشابه عند الأصوليين:

أ ـ المتشابه في اصطلاح الحنفية:

المتشابه عند الحنفية كما يقول البرديسي:(هو اللفظ الذي خفي معناه ولا سبيل إلى إدراكه)[4].

فمنشأ التشابه عندهم هو اللفظ.

ب ـ المتشابه في اصطلاح الشافعية:

المتشابه عند الشافعية كما يقول الآمدي: (هو ما تعارض فيه الاحتمال؛ إما بجهة التساوي؛ كالألفاظ المجملة؛ القرء واللمس، والذي بيده عقدة النكاح، أو لا على جهة التساوي؛ كالأسماء المجازية...)[5].

فمنشأ التشابه عندهم: اشتباه المعنى على السامع.

ج ـ المتشابه في اصطلاح المالكية:

المتشابه عند المالكية كما يقول ابن العربي: (هو ما افتقر إلى غيره مما فيه شبهة منه أو من سواه)**[6]**. وقيل: (هو: ما يحتمل وجهين أو أكثر منهما)**[7]**.

فمنشأ التشابه عندهم هو اللبس والخفاء، فقد يكون من اللفظ، أو من المعنى.

د ـ المتشابه في اصطلاح الحنابلة:

المتشابه عند الحنابلة كما يقول ابن شهاب العكبري: (هو الذي يحتاج في معرفة معناه إلى تفكر وتدبر، وقرائن تبينه، وتزيل إشكاله)**[8]**.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤١).
(٢) (٥٠٤/١٣).
(٣) (٢٨٨/٤).
(٤) أصول الفقه، (ص٣٩٠).
(٥) الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الآمدي، ت: سيد الجميلي، ط الثالثة، ١٤١٨هـ، دار الكتاب العربي، بيروت (٢١٨/١، ٢١٩).
(٦) المحصول في علم الأصول، (٨٦/١، ٨٧).
(٧) الفصول في الأصول، لأحمد بن علي الرازي الجصاص، ت: عجيل جاسم النشمي، ط الأولى، ١٤٠٥هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت (٣٧٣/١).
(٨) رسالة في أصول الفقه، للإمام أبي علي الحسن بن شهاب العكبري الحنبلي، تحقيق الدكتور: موفق

فمنشأ التشابه عندهم كالمالكية هو اللبس والخفاء، وقد يكون من اللفظ، أو من المعنى.

٢ ـ تعريف المتشابه عند المحدثين:

عرفه الخطابي بقوله: (فأما المتشابه فقد اختلف فيها، وجماعها:

ما اشتبه منها فلم يتلق معناه من لفظه، ولم يدرك حكمه من تلاوته؛ وذلك على ضربين:

الضرب الأول ـ ما إذا رد إلى المحكم واعتبر به عقل مراده، وعلم معناه.

والضرب الآخر ـ هو ما لا سبيل إلى معرفة كنهه، والوقوف على حقيقته، ولا يعلمه إلا الله عز وجل)[١].

٣ ـ المتشابه عند علماء علوم القرآن:

عرفه الزركشي بقوله: (أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني)[٢].

وقال السيوطي: (واختلف الناس في تفسير المتشابه بحسب اختلافهم: هل يعلمه الراسخون أولا؟ فعلى الأول هو: ما لم يتضح معناه، وعلى الثاني: ما استأثر الله بعلمه)[٣].

وقد عرف ابن قتيبة المتشابه وبين علاقته بالمشكل بقوله: (وأصل التشابه: أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان.. ثم يقال لكل ما غمض ودق: متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره..

ومثل المتشابه "المشكل". وسمي مشكلاً؛ لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله.

ثم يقال: لما غمض ـ وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة ـ مشكل)[٤].

ويتضح لنا من خلال ما سبق أن أضيق تلك التعريفات هو تعريف الحنفية؛ إذ قصروه على ما لا سبيل لإدراكه؛ لاستئثار الله بعلمه.

بينما الجمهور من الشافعية والمالكية والحنابلة قد وسعوا نطاقه ليشمل كل ما اشتبه على السامع معناه، واحتاج إلى بيان.

وأما علماء الحديث فالمتشابه عندهم منه ما لا سبيل إلى معرفة كنهه ولا يعلمه إلا الله، ومنه ما اشتبه معناه ولا يعلم إلا برده إلى المحكم.

وأما علماء علوم القرآن، فمنهم من قصره على ما لا سبيل إلى إدراكه، ومنهم من وسع نطاقه ليشمل كل ما لم يتضح معناه.

بن عبد الله ابن عبد القادر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت (ص ٥١).

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، للإمام أبي سليمان محمد بن محمد الخطابي، تحقيق د/ محمد بن سعد آل سعود، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ)، مطبعة جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة (١٨٢٥/٣).

(٢) البرهان (٦٩/٢).

(٣) التحبير في علم التفسير (ص ٣٩٣).

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص١٠١، ١٠٢).

ويظهر لنا مما سبق كذلك أن الجمهور من الفقهاء لم يفرقوا بين المشكل والمتشابه، وأما التعارض عندهم فهو نوع من المشكل والمتشابه.

وأما علماء علوم القرآن، فلم يفرقوا بين المشكل والتعارض، فقصروا المشكل على ما أوهم التعارض، وأما المتشابه فهو عندهم أعم وأشمل منهما.

وأما علماء الحديث فالمشكل عندهم أعم وأشمل من المتشابه، وهما أعم من التعارض، والله أعلم[1].

---

(١) انظر: آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر،لحنان العمري(١٨،١٩/١).

المبحث الثالث

الفرق بين التعارض وبين المشكل والمتشابه

يتبين لنا من خلال ما سبق أن الفروق الظاهرة التي تميز موهم الاختلاف والتعارض عن المشكل ما يلي:

١ ـ أن موهم الاختلاف، يعني التعارض الظاهري بين آيتين ، أو أكثر، فإذا لم يوجد هذا التعارض فإنه لا يتحقق الاختلاف. بينما المشكل يتناول جوانب كثيرة تختلف فيما بينها بحسب سبب الإشكال، فقد يكون بسبب إيهام التعارض بين آيتين أو أكثر، أو بين آية وحديث، أو غرابة اللفظ وغموض المعنى، أو بسبب تكرار الألفاظ، أو التقديم والتأخير ونحو ذلك من المتشابه اللفظي.

٢ ـ أن العمل في موهم الاختلاف لإزالة التعارض بين الآيات لابد أن يكون جاريًا على القواعد التي رسمها أهل العلم عند توهم التعارض الظاهري، بينما العمل في المشكل يكون بالنظر والتأمل في المعاني التي يحتملها اللفظ، وضبطها ثم الاجتهاد في البحث عن القرائن التي يمكن بوساطتها معرفة المراد من تلك المعاني المحتملة في اللفظ[١].

* * *

الفصل الثاني

أشهر الكتب المؤلفة في دفع إيهام التعارض والاختلاف والمشكل

لقد اهتم علماء الإسلام قديمًا وحديثًا ـ ابتداء من زمن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ[٢] إلى زمننا المعاصر ـ بهذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا، واعتنوا به عناية عظيمة

---

(١) انظر: آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر، لحنان العمري (٢١/١).

(٢) كما فعل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حينما أجاب على أسئلة نافع بن الأزرق التي أخرجها البخاري في صحيحه معلقا ، كتاب التفسير ، باب سورة حم السجدة (فصلت) ، (ص٨٥١) . وينظرص(٦٥) من هذه الرسالة.

وذلك في مختلف الأزمان والعصور، فألفوا فيه الكتب، وصنفوا فيه المصنفات، فمنهم من أفرده بالدراسة والبحث، ومنهم من تناوله ضمن موضوعات وبحوث أخرى، فبينوا المشكل وأوضحوا المشتبه، ودفعوا الاختلاف والتعارض، ومن ذلك ما يلي:

أولاً ـ أشهر ما وقفت عليه من الكتب المصنفة المفردة المطبوعة في هذا المجال ما يلي:

١ ـ الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكوا فيه من متشابه القرآن، وتأولوه على غير تأويله[١].

لإمام أهل السنة والجماعة، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. المتوفى سنة (٢٤١هـ).

وقد صنف الإمام ـ رحمه الله ـ كتابه للرد على الزنادقة والجهمية الذين كانوا يقولون بخلق القرآن وينكرون صفات الخالق، وقد قسمه إلى قسمين:

القسم الأول ـ خصه الإمام بالرد على الآيات التي يدعون أنها متناقضة ومختلفة ومتضاربة مع آيات أخرى.

فتتبع ـ رحمه الله ـ هذه الآيات ثم أوردها، آية آية، فيذكر بعد إيراد الآية زعمهم بوجود التناقض فيها، ثم يرد على هذا الزعم، موضحًا المعنى الصحيح لتفسير الآية.

وقد بلغت مسائل هذا القسم (اثنتين وعشرين مسألة).

القسم الثاني ـ خصصه للرد على فرقة الجهمية في مسألتين رئيستين هما:

أ ـ إنكار صفات الله.

ب ـ خلق القرآن.

فأورد شبهاتهم وفندها وأبطلها.

٢ ـ تأويل مشكل القرآن[٢].

للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ).

وقد صنف المؤلف هذا الكتاب لما هاله كثرة الشكوك والطعون التي تثار حول القرآن، فانتدب نفسه لإزالة هذه الشكوك، ودحض تلك المفتريات والمطاعن التي يثيرها الأعداء.

وقد رتب كتابه على حسب الموضوعات، فبدأ بمقدمة تكلم فيها عما اختص به الله هذه الأمة من الفصاحة والبيان، وتكلم فيها أيضًا عن داعي تأليف الكتاب.

ثم بعد ذلك مطاعن الطاعنين في القرآن، وعددها اثنان وثلاثون مطعنًا، ورد عليها في عدة أبواب متتالية، بدأها بالرد عليهم في وجوه القرآن، ثم أعقبه بما ادعوه من وجود اللحن في القرآن، ثم عقد بابًا لبيان ما زعموه من التناقض والاختلاف ثم أعقبه بباب في المتشابه.

---

(١) طبع هذا الكتاب بمفرده بتحقيق: صبري بن سلامة شاهين، طبعته دار الثبات عام (١٤٢٤هـ).

(٢) طبع في مجلد واحد، يحتوي على (٧٠٥ صفحة)، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، ونشرته دار التراث بالقاهرة، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ).

وختم الكتاب ببيان دخول بعض حروف الصفات مكان بعض.

٣ ـ متشابه القرآن الكريم[١].

لأبي الحسن أحمد بن جعفر المنادى[٢].

وقد بين مؤلفه أن الغرض من تأليفه شيئان:
أحدهما ـ جمع النظائر من ألفاظ القرآن التي تشتبه على القارئ ليحفظها، ويتنبه لها فيتقنها.
والثاني ـ إعانة من يريد أن يرد على الملحدين الذين يطعنون في القرآن بأن فيه المكرر والمعاد. وقد بين المؤلف وجه ذلك في نهاية الكتاب.
وقد افتتح المؤلف الكتاب ببيان أهمية حفظ القرآن الكريم، وتعاهد هذا الحفظ حتى لا يضيع، وخطورة نسيانه، وبعض الأمور التي تساعد على الحفظ وتعاهده.
كما تحدث عن أنواع المتشابه في القرآن الكريم.
وهذا الكتاب: اعتنى عناية خاصة بالمتشابه اللفظي ـ أي تشابه الألفاظ في القرآن الكريم ـ.

٤ ـ الرد على الجهمية[٣].

للإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده، المتوفى سنة (٣٩٥هـ).
وهو يحتوي على سبعة أبواب، في كل باب يذكر المؤلف آية من آيات الصفات التي أولتها الجهمية، والروايات التي وردت في تفسيرها.

٥ ـ متشابه القرآن[٤].

للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، المتوفى سنة (٤١٥هـ).
وكان منهجه في التأليف كالآتي:
أـ بدأ المؤلف بمقدمة تحتوي على (اثنتي عشرة) مسألة، ركز فيها على دراسة المحكم والمتشابه ومعانيها.

---

(١) طبع في مجلد واحد، يحتوي (٢٤٦ صفحة) بتحقيق فضيلة الشيخ/ عبد الله بن محمد الغنيمان، ونشرته مكتبة لينة بمصر (١٤١٤هـ).

(٢) كان محدثا فصيحا ، ثقة وصاحب سنة ، وكان صلبا في الدين ، ولم تنتشر الرواية عنه ، من كبار القراء في العراق ، وله مصنفات كثيرة فاقت المائة مصنف، منها فضائل القرآن ، وناسخ القرآن ومنسوخه ،ولد سنة(٢٥٦هـ) وتوفي سنة (٣٣٦هـ) وقيل : (٣٣٤هـ) انظر تذكرة الحفاظ (٨٤٩/٣) ، والسير (٣٦١/١٥).

(٣) طبع بتحقيق فضيلة الشيخ الدكتور/ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، ويقع في (١٤٠ صفحة)، ونشرته دار الإمام أحمد بمصر (١٤٢٦هـ).

(٤) طبع في مجلد واحد كبير (٨١٠ صفحة) نشرته دار التراث بمصر. بتحقيق عدنان محمد زرزور.

ب ـ يستعرض سور وآيات القرآن بحسب ترتيبها في المصحف.
ج ـ يقف عند نوعين من الآيات:
١ ـ الآيات المتشابهة: التي يزعم خصمه أن فيها دلالة على مذهبه.
٢ ـ الآيات المحكمة: والتي يدعي المؤلف أنها تدل على مذهب المؤلف – الاعتزال ـ.
د ـ جاءت مسائل هذا الكتاب على نوعين:
مسائل: وموضوعها الآيات المتشابهة، وعرض ما يراه الخصم فيها من الدلالة على مذهبه ، ثم تأويلها على الوجه الذي يراه المؤلف موافقًا لمذهبه.
دلائل: وموضوعها الآيات المحكمة الدالة على مذهبه.
هـ ـ بنى القاضي منهجه في هذا الكتاب سواء في الاستدلال أو الرد على ما يلي:
ـ الأدلة العقلية.
ـ اللغة والنظم.
ـ سياق الآيات.
و ـ يكتفي المؤلف بالقول الموجز فيما يستدل عليه المخالف، دون التعرض لذكره أو ذكر فرقته ومذهبه وغالبًا ما يقول عند عرض آرائهم:"قالوا" وبعدها يجيب قائلاً:(والجواب عن ذلك). ثم يذكر الإجابة.
ز ـ بلغت عدد مسائل ودلائل الكتاب (٨٨٩) مسألة.
ح ـ اهتم في هذا الكتاب بدفع ما أوهم التعارض والاختلاف بين الآيات.
ط ـ ختم المؤلف الكتاب بخاتمة تحتوي على (ست عشرة) مسألة تبين بعض المصطلحات التي وردت في الكتاب أو بعض المسائل المهمة المتعلقة بتقرير مذهبه في الاعتقاد.

وقد استغل القاضي عبد الجبار هذا الكتاب لتقرير مذهبه الاعتزالي، والدفاع عنه وتأويل آيات الصفات ونحوها من الآيات التي تخالف معتقده، سالكًا في ذلك المنهج العقلي.

٦ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن[1].

للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، المتوفى سنة (٤١٥هـ).

ومنهجه في هذا الكتاب قريب من منهجه في الكتاب السابق، إلا أنه اقتصر في هذا الكتاب على بعض المسائل دون الدلائل، وهي الآيات التي تعلق بها الطاعنون، سواء كان الطعن من جهة اللغة، أو اللفظ ، أو النظم، أو المعنى، وأسلوبه في رد هذه الطعون مختصر مقارنة بأسلوبه في الكتاب السابق، ومسائل هذا الكتاب أقل بكثير من مسائل الكتاب السابق.

وقد نصر مذهبه الاعتزالي من خلال ردوده على المخالفين، وأول كل الآيات التي تخالف مذهبه تأويلاً مذمومًا.

---

(١) طبع في مجلد واحد، يحتوي على (٤٩٦ صفحة)، نشرته الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، دار النهضة الحديثة، بيروت.

٧ ـ درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز[١].

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله، المعروف بالخطيب الإسكافي[٢] .

وقد اعتنى المؤلف في هذا الكتاب بالمتشابه اللفظي، فبين تناسب الآيات، وحكمة التكرار وتوجيه الاختلافات بين الآيات المتشابهة بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والجمع والإفراد، والتذكير والتأنيث، ونحو ذلك. كما يدفع إيهام التعارض والاختلاف بينها. وكانت طريقته في تصنيف هذا الكتاب كالتالي:

أ ـ رتب الآيات والسور على ترتيب المصحف، مدرجًا تحت كل سورة الآيات المتشابهة والمتماثلة مراعيًا ترتيبها داخل السورة الواحدة، فبدأ بسورة البقرة وذكر الآية الأولى منها، وأتبعها بالآيات المشابهة لها مرتبة، محدداً أسماء سورها، ويوجه الاختلاف بينها، بشكل مرتب بديع.

ب ـ يورد الإشكال ، أو التساؤل ثم يتعقبه بالجواب، ويرجح بين الوجوه والأقوال إن أمكنه ذلك.

ج ـ قد تحتوي الآية الواحدة على أكثر من تساؤل ، أو إشكال، ولا ينتقل إلى غيرها حتى ينتهي منها.

د ـ يحيل إلى ما سبق ذكره من الآيات.

هـ ـ عدم تعرضه لكثير من مشكل القضايا العقدية ، أو الفقهية، مع عنايته بمشكل القضايا النحوية والصرفية.

و ـ لم يتعرض لموهم التعارض والاختلاف إلا في مواطن يسيرة.

٨ ـ البرهان في متشابه القرآن[٣].

لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني الشافعي[٤].

وصنفه المؤلف على غرار "درة التنزيل" للإسكافي. وكان منهج المؤلف في كتابه كالتالي:

أ ـ تتبع الآيات المتشابهة وتوجيهها، مراعيًا ترتيب المصحف، عند ذكر الآيات والسور.

---

(١) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد يحتوي على (٥٤٣ صفحة)، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت (١٤٠١هـ).

(٢) عالم باللغة والأدب، من أهل أصفهان، كان إسكافا ثم خطيبا بالري، وهو أحد أصحاب الصاحب بن عباد من مصنفاته: مبادئ اللغة، توفي سنة (٤٢٠هـ) انظر : معجم الأدباء (٢٥٤٩/٦) ، الإعلام (٢٢٧/٦) .

(٣) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد، يقع في (٤٤٨ صفحة)، بتحقيق أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، نشرته دار صادر، بيروت (١٤١٧هـ).

(٤) عالم فاضل يعرف بتاج القراء،عالم بالقراءات، شافعي المذهب، وكان عجبافي دقة الفهم والاستنباط، ولم يفارق وطنه ولارحل ، وله مصنفات عديدة، منها : لباب التفسير، ونقل فيه آراءا مستنكرة وحذّر منها، توفي نحوسنة(٥٠٥هـ). انظر : معجم الأدباء (٢٦٨٦/٦) وطبقات المفسرين للداودي (٣١٢/٢) و الإعلام (١٦٨/٧) .

ب ـ يذكر الآية الأولى، ويلحق بها ما يشبهها من الآيات من السورة نفسها، ومن باقي السورة بطريقة استقرائية دقيقة.
ج ـ يحيل إلى ما سبق ذكره من الآيات.
والخلاصة: أن هذا الكتاب ركز على المتشابه اللفظي، ولم يول التعارض والاختلاف بين الآيات عناية إلا في مواضع نادرة.

٩ ـ باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن[١].

لمحمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي[٢].

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي ألفت في مشكل القرآن، لغزارة مادته العلمية، ولاستيعابه كثيرًا من أفراد المشكل على اختلاف أسبابه.
وطريقة المؤلف في كتابه كالآتي:
أ ـ تتبع الآيات الموهمة الاختلاف والإشكال، ورتبها حسب تريب المصحف.
ب ـ إيراد لطائف التعبير القرآني وأسرار تراكيبه، ويكشف عن كثير من المشكلات والشبهات ويتولى الرد عليها، ويبين سلامة الآيات من الاختلاف والتعارض، موليًا عنايته الخاصة بالجمع والتوفيق بين الآيات.
ج ـ يحيل على ما سبق من الآيات، ويغفل نسبة الأقوال إلى قائليها.
وقد حفل هذا الكتاب بكثير من مشكل المسائل العقدية والفقهية واللغوية.

١٠ ـ فوائد في مشكل القرآن[٣].

لسلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، المتوفى سنة (٦٦٠هـ).
وهو كتاب يمتاز بالدقة والإيجاز، إذ يشتمل على كثير من المشكلات العلمية واللغوية والنحوية والعقدية، إضافة إلى ما أوهم التعارض والاختلاف، وقد رتبها حسب ترتيب المصحف.
وقد طرح الإشكالات على هيئة سؤال، ثم يتبعها بذكر الإجابة عن ذلك الإشكال.
وكانت المسائل العقدية التي يتوهم منها التعارض قليلة جدًا.

١١ ـ مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل[٤].

لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي[٥] .

---

(١) طبع هذا الكتاب في أربعة مجلدات، والمجلد الأول مخصص للدراسة، وهو بتحقيق: سعاد بنت صالح بابقي، وهو من إصدار جامعة أم القرى، بمكة المكرمة.
(٢) عالم بارع،مفسر لغوي فقيه فصيح،لقب بـ (بيان الحق)، والذي يظهر أنه ماتريدي المذهب ، من مصنفاته : إيجاز البيان في معاني القرآن ، وجمل الغرائب – في غريب الحديث - توفي بعد سنة (٥٥٣) . انظر طبقات المفسرين (٣١١/٢) ومعجم الأدباء (٢٦٨٦/٦) والإعلام (١٦٧/٧) .
(٣) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد يحتوي على (٣٢٦ صفحة)، بتحقيق: سيد رضوان علي الندوي.
(٤) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد، ويحتوي على (٣٩٠ صفحة) بتحقيق: إبراهيم عطوة عوفي.
(٥) فقيه من فقهاء الحنابلة أديب مفسر لغوي، صاحب تحقيق، واطلاع، بارع في كثير من العلوم، إمام في اللغة، صوفي مؤول ، من مصنفاته مختار الصحاح في اللغة، وشرح المقامات الحريرية، أصله من الري، وأقام بقونية، توفي سنة (٦٦٦هـ) . انظر: الأعلام (٥٥/٦)، ومعجم المؤلفين (١٦٨/٣) .

وقد احتوى هذا الكتاب على أكثر من ألف ومائتي سؤال كما صرح بذلك المصنف في مقدمة كتابه وقد اعتنى المؤلف بالمتشابه اللفظي، كما تعرض لموهم الاختلاف والتعارض، ودفعه بأسلوب سهل موجز، وقد رتبه حسب ترتيب المصحف، وقد تنوعت المسائل ما بين عقدية وفقهية ولغوية، إلا أنه لم يستوعب جميع المسائل.

١٢ ـ ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل(١).

لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي(٢).

وقد اهتم المؤلف في هذا الكتاب بالمتشابه اللفظي، وخصوصًا التكرار، وقد اعتمد فيه على كتاب درة التنزيل، ومنهجه فيه قريب من منهج درة التنزيل، إلا أنه أوسع منه.

١٣ ـ تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد طائفة من كتب التفسير فيها القول بالصواب بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ(٣).

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، المتوفى سنة (٧٢٨هـ).

وقد فسر فيه الشيخ عددًا من الآيات القرآنية رأى أنها أشكلت على كثير من المفسرين فعمد إلى حل تلك الإشكالات، ومناقشتها بأسلوب علمي دقيق.

وقد تميز منهجه فيه بما يلي:

أ ـ تفسيره القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين ثم بشواهد اللغة.

ب ـ الإكثار من النقل عن الأئمة.

ج ـ الاسترسال في بعض المواضع.

د ـ الإحالة إلى كثير من مؤلفاته، وقد لا يسميها أحيانًا.

وقد تعرض الشيخ في كتابه هذا إلى عدد من الآيات والتي رأى أنها أشكلت على كثير من المفسرين فأزال عنها الإشكال، وقد بلغ عدد الآيات التي تعرضها لها (١٧) آية.

١٤ ـ الروض الريان في أسئلة القرآن(٤).

---

(١) طبع هذا الكتاب في مجلدين، كل مجلد يمثل جزءًا، ويحتوي المجلدان على (١٣٠٠ صفحة)، بتحقيق الدكتور: سعيد الفلاج. ونشرته دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢) محدث مؤرخ، ولد بالأندلس سنة (٦٢٧هـ) و انتهت إليه الرياسة بها في العربية، ورواية الحديث والتفسيروالأصول،وهوشيخ القراء بالأندلس ، وكان قائما بالمعروف ، وله مع ملوك عصره وقائع، وكان معظما عند العامة والخاصة، توفي سنة (٧٠٨هـ) . انظر : تذكرة الحفاظ (١٨٣/٤) والدرر الكامنة (٥٤/١)

(٣) طبع هذا الكتاب في مجلدين، ويحتوي (٩٥١ صفحة) بتحقيق: عبد العزيز بن محمد الخليفة، ونشرته مكتب الرشد وشركة الرياض (١٤١٧هـ).

(٤) طبع هذا الكتاب في مجلدين، ويحتوي على (٧٥٥ صفحة)، بتحقيق: عبد الحليم بن محمد بن نصار السلفي، ونشرته مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة (١٤١٥هـ).

لشرف الدين الحسين بن سليمان بن ريان، [1].

وقد صنف المؤلف كتابه لمعرفة النكات والإشكالات، والآيات الموهمة التعارض، منبهًا على النكتة، مجيبًا على الإشكال أو التشابه مزيلاً التعارض والاختلاف بين الآيات وذلك بأسلوب علمي موجز، وعبارة سهلة واضحة، وقد احتوى على عشرة وألف سؤال.

وقد جاء بحث المؤلف على صيغة سؤال وجواب، مع إخلال يسير في بعض المواضع، فكان يكتفي بسرد الآيات الموهمة التعارض أو الإشكال دون ذكر السؤال، ثم يبدأ في ذكر الجواب.

وقد يرجح بين الوجوه إذا كان للإجابة أكثر من وجه.

وقد أهتم المؤلف بالآيات التي ظاهرها التعارض فأزال الإشكال عنها، إلا أنه لم يستوعب جميع المسائل العقدية الموهمة التعارض.

١٥ ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن[2]:

لأبي يحيى زكريا الأنصاري[3] .

وقد بذل فيه المؤلف جهدًا عظيمًا لتوضيح ما يلتبس من آيات القرآن، ويكشف لنا عن دقائق أسرار القرآن، وهذا الكتاب جاء مختصرًا لأسئلة القرآن المجيد، للرازي، فقد استفاد منه الأنصاري، وأخذ عنه ولخصه وزاد عليه.

وقد تعرض الأنصاري في هذا الكتاب للآيات المتشابهات ،والآيات التي توهم التعارض مع غيرها، فوفق بينها بأسلوب مختصر سهل واضح المعنى.

وتناول رحمه الله المسائل المشكلة المتشابهة على حسب ترتيب المصحف.

ويورد أكثر من إشكال أو تساؤل في الآية الواحدة، ويقتصر جوابه على وجه واحد في الغالب، وربما تجاوزه في بعض الأحيان، ويندر أن يرجح بينها وقد جاءت مسائله متنوعة.

١٦ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب[4]:

للعلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، المتوفى سنة (١٣٩٣هـ).

وفي هذا الكتاب مئتان وتسع عشرة مسألة متنوعة وأغلبها عقدية. ولم يستوعب الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب جميع المسائل الموهمة التعارض، وما تناوله منها فإنه

---

(١) ولد سنة (٧٠٢هـ) ونشأ بحلب، وكان أبوه ناظر الدولة ، وقد تأثربالمنهج الأشعري ونشأ نشأة حسنة، صادق اللهجة. من تصانيفه: زهر الربيع في علم البديع. توفي سنة (٧٧٠هـ) انظر: الدر الكامنة (٣٢/٢). ومعجم المؤلفين (٦١٢/١) ومقدمة المحقق للكتاب (٥١/١).

(٢) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد،ويحتوي على (٦٣٨ صفحة)،بتحقيق: محمد علي الصابوني، ونشرته دار القرآن الكريم، بيروت.

(٣) عالم فاضل، مفتي الشافعية في مصر، مفسر، من حفاظ الحديث، تولى القضاء، ثم عزل، واستمر في التدريس والتأليف، أشعري المعتقد ، من مصنفاته :تحفة الباري على صحيح البخاري ، والتذكرة في أصول الفقه توفي سنة (٩٢٦هـ) . انظر: شذرات الذهب (١٧٤/٨)، والأعلام (٤٦/٣) .

(٤) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد، يحتوي على (٣٥٢ صفحة) نشرته مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

قد تناوله بصورة مختصرة موجزة.

ويعد هذا الكتاب من أحسن ما ألف في هذا الموضوع في هذا العصر، ويتميز منهجه في هذا الكتاب بما يلي:

أ ـ تبيين ما تيسر له من أوجه الجمع بين الآيات التي يظن بها التعارض في القرآن الكريم، مرتبًا لها حسب ترتيب المصحف، فيذكر الجمع بين الآيتين في محل ورود الأولى منهما غالبًا، وربما يذكر الجمع عند الأخيرة، وربما يكتفي بذكر الجمع عند الأولى، وربما يحيل إليه عند محل الأخيرة، ولا سيما إذا كانت السورة ليس فيها مما يظن فيه التعارض إلا تلك الآية.

ب ـ تبيين سبب الإشكال والإيهام عند ذكر الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض.

ج ـ سهولة الأسلوب ووضوح العبارة في التوفيق بين الآيات التي يجمع بينها.

د ـ الاقتصار أحيانًا على وجه واحد للجمع بين الآيات إذا كان هو المتعين والراجح، وربما يذكر أوجهًا أخرى، ويرجح بينها، ويبين سبب الترجيح في الغالب، وقد يضعف ويبطل بعض الأوجه، وربما يبين سبب ضعفها.

هـ ـ عدم الاقتصار على دفع إيهام التعارض، بل همه العناية بالإشكال الناشئ من غرابة اللفظ، أو غموض المعنى.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي اعتمدتُّ عليها في هذه الرسالة .

١٧ ـ أضواء على متشابهات القرآن(١):

لخليل ياسين(٢) .

ويحتوي هذا الكتاب على (١٦٥١) سؤالاً وجوابًا، وقد اعتنى المؤلف بتوجيه الآيات المتشابهة في الألفاظ، كما تطرق إلى موهم التعارض والاختلاف بين الآيات، ويزيل تلك الإشكالات بأسلوب سهل موجز.

وقد التزم المؤلف بترتيب الآيات والسور حسب ترتيب المصحف، ويبدأ بذكر الآية ثم يتبعها بذكر السؤال ثم الإجابة.

وقد يطرح السؤال مباشرة، وأحيانًا يمهد له بتمهيد قصير، وقد تتضمن الآية الواحدة أكثر من إشكال أو تساؤل، ويحيل إلى ما سبق ذكره محددًا في الإحالة السورة ورقم الآية والصفحة.

وقد تنوعت مسائله ما بين عقدية وفقهية ونحوية، ولم يستوعب جميع المسائل.

١٨ ـ البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن(٣):

لمحمد أبو النور الحديدي(١).

---

(١) طبع هذا الكتاب في مجلدين، ويحتوي على (٧٥٤ صفحة)، ونشرته دار ومكتبة الهلال.

(٢) من علماء الشيعة الإمامية، وله اهتمامات بالدراسات القرآنية،توفي سنة (١٤٠٥هـ)انظرتتمةالإعلام(١/١٦٥)

(٣) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد، يحتوي على (٢٨٣ صفحة) وقد نشرته مطبعة الأمانة بمصر سنة (١٤٠٢هـ).

وهو كتاب يهتم بدفع التعارض المتوهم بين الآيات، فيذكرها المؤلف، ثم يذكر ما يتيسر له من وجوه الجمع بينها، بأسلوب سهل واضح مرتب، ومتفاوت بين الاختصار تارة والإطناب تارة أخرى.

وقد بدأه بتمهيد تحدث فيه عن نفي وقوع الاختلاف والتعارض في كتاب الله، مبينًا جهود العلماء للجمع بين النصوص الموهمة التعارض، ثم تحدث في الفصل الأول عن الأسباب الموهمة التعارض.

ثم عقد فصلاً آخر للتوفيق بين الآيات الموهمة التعارض، والفصل الثالث ذكر فيه الاختلاف بين الآيات لأمور ترجع إلى اللغة، وختمه بالحديث عن التعارض بين الآية والحديث.

وقد سار المؤلف في ترتيب السور بحسب النزول فبدأ بالعلق ثم القلم، ثم المزمل وهكذا، ويضع لكل مسألة عنوانًا مناسبًا لها، ويبدأ بسرد الآيات الموهمة التعارض، ثم يذكر التعارض المتوهم في ثناياها، ويتبع ذلك بذكر وجوه الجمع والتوفيق بينها، ويرجح بينها.

وقد اشتمل هذا الكتاب على (تسع وثمانين) مسألة.

١٩ ـ موهم الاختلاف والتناقض في القرآن الكريم[٢]:

لياسر بن أحمد الشمالي[٣].

وهي رسالة في عموم الآيات، وليست خاصة بآيات العقيدة، وقد بدأها المؤلف بمقدمة بيَّن فيها سبب اختيار الموضوع، ومنهجه في البحث ثم جعل الباب الأول دراسة وتمهيدًا.

وفي الباب الثاني تحدث عن موهم الاختلاف في النص القرآني. وفي الباب الثالث عن موهم الاختلاف في مضمون القرآن.

وقد رتب الباحث رسالته حسب ترتيب الموضوعات، ويذكر الآيات الموهمة الاختلاف ويبين وجه توهم الاختلاف بينها في ثنايا ذلك، وقد يفصل بينها أحيانًا. ثم يجيب بعد ذلك عن الإشكالات مستشهدًا بالقرآن والسنة وأقوال المفسرين، ويذكر وجهًا واحدًا وهو الراجح عنده، وأحيانًا يذكر أكثر من وجه ويرجح بينها.

وقد عقد المؤلف فصلاً بعنوان "موهم آيات العقيدة" إلا أن هناك بعض المسائل تدخل ضمن هذا الفصل ولم يذكرها فيه، بل عقدها في فصول أخرى، كالفصل الثاني "موهم آيات النبوة والرسالة"، والفصل العاشر: "موهم آيات القيامة والحساب".

ولم يستوعب المؤلف في هذه الرسالة إلا آيات قليلة في العقيدة، وذلك بحكم أن رسالته عامة في المسائل الفقهية والعقدية والنحوية.

---

(١) المؤلف معاصر .

(٢) رسالة ماجستير مقدمة لقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى، عام (١٤٠٨هـ)، وتقع في مجلد واحد، وتحتوي على (٧١٦ صفحة).

(٣) المؤلف معاصر .

٢٠ ـ آيات مظلومة بين جهل المسلمين وحقد المستشرقين[(١)]:

لعمر بن عبد العزيز قريشي[(٢)].

وقد اهتم المؤلف بالآيات التي يساء فهمها سواء من المسلمين، أو المستشرقين، ويدخل في ذلك الآيات التي يدعي فيها المستشرقون التعارض والاختلاف.

وقد رتبه المؤلف حسب ترتيب المصحف، فيبدأ بسورة البقرة ثم يورد الآيات التي يساء فهمها مرتبة حسب ترتيب المصحف، ويضع لكل آية عنوانًا مناسبًا تحت اسم السورة ثم يذكر الآية ويتبعه بذكر الفهم الخاطئ لها، ثم يصحح ذلك الفهم ببيان المعنى الصحيح مستشهدًا لما يقول بالقرآن والسنة، وإذا كانت الآية يتوهم فيها التعارض، فإنه يزيله ويدفعه من خلال بيان المعنى الصحيح للآية، وقد بلغت المسائل في هذا الكتاب (١٦٧ مسألة) متنوعة ما بين فقهية وعقدية وغيرها.

٢١ ـ مسالك أهل السنة فيما أشكل من نصوص العقيدة[(٣)]:

لعبد الرزاق طاهر معاش[(٤)].

وهي دراسة نظرية تأصيلية لما يشكل من نصوص القعيدة، وقد بدأها المؤلف بمقدمة بين فيها أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، والخطة المتبعة، ثم تمهيد: وتحدث فيه عن تعريف المصطلحات التالية: التعارض المتشابه، الإشكال، وتحدث فيه عن شروط التعارض وأركانه، ثم أنواع الأدلة، وما يجري عليه التعارض منها ثم عرض لأهم المؤلفات في المشكل والمتشابه.

وفي الباب الأول تحدث عن قواعد أهل السنة في بيان توافق النصوص وعدم تعارضها مع العقل، وختم هذا الباب بمنهج أهل السنة في دفع التعارض، واستشهد فيه بخمسة كتب في هذا الموضوع.

وفي الباب الثاني تحدث عن منهج المبتدعة في النصوص التي ظاهرها التعارض وآثاره ولوازمه، وختمه بمنهاج المخالفين لأهل السنة في دفع التعارض، واستشهد فيه بخمسة كتب في هذا الموضوع.

وفي الباب الثالث تحدث عن مسالك أهل السنة في الجمع بين النصوص المتعارضة، ودفع ما أشكل منها.

وفيه أربعة فصول:

الأول: المسلك الجاري على القواعد العامة لأهل السنة في ألفاظ الكتاب والسنة.

والثاني: المسلك الجاري على قواعد الاصطلاح عند المحدثين.

---

(١) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد، يحتوي على (٥٢٢ صفحة)، ونشرته مكتبة الأديب في الرياض، (١٤٢٣هـ).

(٢) المؤلف معاصر .

(٣) هي رسالة دكتوراه مقدمة لقسم العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وهي مطبوعة وتقع في مجلدين، ونشرتها دار ابن القيم، ودار ابن عفان.

(٤) المؤلف معاصر .

والثالث: المسلك الجاري على قواعد على أصول الفقه والتفسير.
والرابع: المسلك الجاري على قواعد الأسلوب العربي.

ويلاحظ أن هذه الرسالة مهتمة بالجانب النظري والتأصيلي، ولم تتناول الجانب التطبيقي. بخلاف رسالتي فإنها مهتمة بالجانب التطبيقي، فهي مكملة لهذه الرسالة وغيرها مما كتب في هذا الموضوع.

ثانيًا . أشهر ما وقفت عليه من الكتب التي تناولت مشكل القرآن، وموهم الاختلاف والتناقض ضمن موضوعات أخرى:

١ ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع[١]:

لأبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي، المتوفى سنة (٣٧٧هـ).

وقد أفرد المؤلف فيه أربعة أبواب متتالية لمتشابه القرآن، وما يتوهم أنه من الاختلاف والتناقض نقل فيه ما أخذه عن الثقات عن مقاتل بن سليمان[٢].

٢ ـ البرهان في علوم القرآن[٣]:

للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، المتوفى سنة (٧٩٤هـ).
وقد أفرد فيه المؤلف فصلاً لموهم الاختلاف[٤].

٧ ـ الإتقان في علوم القرآن[٥]:

للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة (٩١١هـ).
وقد أفرد فيه المؤلف فصلاً لموهم الاختلاف والتناقض[٦].

ومما ينبغي أن يعلم أن الاهتمام بموهم الاختلاف والتناقض لم يكن مقتصرًا على من سبق ذكره، بل كان معظم المفسرين ـ إن لم يكن كلهم ـ لهم نصيب في الدفاع عن كتاب الله، والرد على الطاعنين والمشككين فيه، وأخص بالذكر منهم الإمام ابن جرير الطبري، والسمعاني، والقرطبي، وابن كثير وغيرهم، بل إن اعتمادي على المفسرين كان أكثر من غيرهم ـ رحم الله الجميع ـ.

ثالثًا . أشهر الكتب التي تناولت مشكل القرآن، وذكرها العلماء ولم أقف عليها:

---

(١) طبع هذا الكتاب في مجلد واحد بتحقيق: يمان بن سعد الدين الميادين، ط الأولى، ١٤١٤هـ، رمادي للنشر، الدمام. وحقق في رسالة علمية في الجامعة الإسلامية بتحقيق الباحث: صالح الدخيل.
(٢) انظر: (ص ٧٠) منه .
(٣) طبع هذا الكتاب في أربعة أجزاء، بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط الأولى، ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٤) انظر: (٥٣/٢) منه .
(٥) طبع هذا الكتاب في مجلدين، نشرته دار الكتب العلمية، بيروت.
(٦) انظر: (٥٧/٢) منه .

١ ـ جوابات القرآن[1]:

لسفيان بن عيينة. المتوفى سنة (١٩٨هـ).

٢ ـ الرد على الملحدين في متشابه القرآن[٢]:

لمحمد بن المستنير بن أحمد، أبي علي البصري الشهير بـ(قطرب النحوي) [٣].

٣ ـ مشكلات القرآن[٤]:

لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة (٢٧٥هـ).

٤ ـ ضياء القلوب من معاني القرآن وغريبه ومشكله[5]:

للمفضل بن سلمة بن عاصم، أبي طالب الكوفي النحوي، [٦].

٥ ـ سراج الهدى في القرآن ومشكله وإعرابه[٧]:

لأبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي، [٨].

٦ ـ توضيح المشكل في القرآن[٩]:

لسعيد بن محمد بن صبيح الغساني القيراوني. [١٠].

٧ ـ المشكل في معاني القرآن[١١]:

لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الحسين المعروف بابن الأنباري[12].

---

(١) انظر: الفهرست، لابن النديم (ص ٥٤).

(٢) قد ذكره الزركشي في البرهان (٥٣/٢)، والسيوطي في الإتقان (٥٧/٢).

(٣) كان من أئمة عصره في النحو واللغة، لازم سيبويه، وكان يرى رأي المعتزلة النظامية، من مصنفاته :معاني القرآن ، الاشتقاق ، توفي سنة (٢٠٦هـ) . انظر : شذرات الذهب (٩١/٢)، والأعلام (٩٥/٧) .

(٤) توجد منه نسخة خطية في فاتح كتبخانة سي في اسطنبول بتركيا. انظر: فهرس كتب خانة (ص٣٨).

(٥) انظر: الفهرست، لابن النديم (ص ٥٤).

(٦) لغوي عالم بالأدب، كان من خاصة الفتح بن خاقان وزير المتوكل، توفي سنة (٢٩٠هـ). انظر: تاريخ بغداد (١٢٤/١٣) وطبقات المفسرين (٣٢٨/٢) و هدية العارفين (٤/١). والأعلام (٢٨/١).

(٧) انظر: هدية العارفين، للبغدادي (٤/١).

(٨) أديب، من الكتاب العلماء، ولد سنة (٢٢٣هـ) أصله من بغداد، واستقر بالقيروان، توفي فيها سنة (٢٩٨هـ) ، من مصنفاته : لقط المرجان ،وقطب الأدب . انظر: هدية العارفين (٤/١). والأعلام (٢٨/١).

(٩) انظر: هدية العارفين (٣٨٤/١).

(١٠) فقيه لغوي محدث، كان كثير الرد على البدع، واشتهر بجدله مع بعض علماء الدولة العبيدية، من مصنفاته : الرد على الملحدين ،والاستواء .توفي سنة (٣٠٢هـ). انظر: السير (٢٠٥/٤). وشذرات الذهب (١٢/٤).

(١١) انظر: هدية العارفين (٣٥/٢).

(١٢) إمام حافظ مقرئ، كان من أعلم الناس بنحو الكوفيين، وأكثرهم حفظا للغة، صدوقا زاهدا ، من أهل السنة، حنبلي المذهب ،من مصنفاته : غريب الحديث النبوي ، والوقف والابتداء ، توفي سنة (٣٢٨هـ

٨ ـ معاني القرآن وتفسيره ومشكله[١]:

لأبي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، البغدادي[٢].

٩ ـ الموضح من معاني القرآن وكشف مشكلات الفرقان[٣]:

لعبد العزيز الصيدلاني المزرباني[٤]، وهو من علماء القرن الرابع.

١٠ ـ حل الآيات المتشابهات[5]:

لمحمد بن الحسبن بن فورك الأصبهاني. المتوفى سنة (٤٠٦هـ).

١١ ـ البرهان في مشكلات القرآن[٦]:

لأبي المعالي عزيزي بن عبد الملك بن منصور الجيلي[7].المعروف بشيذلة.

١٢ ـ كشف مشكلات القرآن[٨]:

لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني. المتوفى سنة (٥٠٢هـ).

وقيل إن اسمه: (درة التأويل في متشابه التنزيل)، وقيل: (حل متشابهات القرآن).

١٣ ـ درر الكلمات على غرر الآيات الموهمة للتعارض والشبهات[٩]:

لنجم الدين أبي القاسم محمود بن علي القزويني المشهور بـ(بيان الحق) [١٠].

١٤ ـ تأويل متشابهات القرآن[١١]:

) .وقيل : (٣٢٧هـ) . انظر : السير (٢٧٤/١٥) وشذرات الذهب (١٥٢/٤) .

(١) انظر: هدية العارفين (٦٧٨/١).

(٢) وزير المقتدر العباسي، والقاهر، وأحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد، فارسي الأصل،ولي مكة، وتولى الوزارة، فأحسن إدارتها، وكان صدوقا دينا خيرا،توفي سنة(٣٣٤هـ) . انظر :السير(٢٩٨/١٥)و الأعلام (٣١٧/٤).

(٣) انظر: تاريخ التارث العربي، لفؤاد سزكين (٨٠/١).

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) انظر: الأعلام (٨٣/٦).

(٦) انظر: هدية العارفين (٦٦٣/١). والأعلام (٢٣٢/٤).

(٧) فقيه أصولي واعظ متكلم، من فقهاء الشافعية، واشتغل بالأدب من أهل جيلان، ولي القضاء ببغداد ،وتوفي بها سنة (٤٩٤هـ) من مصنفاته :ديوان الأنس ، ولوامع أنوار القلوب . انظر:طبقات الشافعية (٢٨٧/٣) والأعلام (٢٣٢/٤) .

(٨) انظر: الأعلام (٢٥٥/٢).

(٩) انظر: هدية العارفين (٤٠٣/٢).

(١٠) لم أعثر له على ترجمة .

(١١) انظر: الأعلام (٢٧٩/٦).

لمحمد بن علي بن شهر أشوب السروي، المازندراني. [١].

١٥ ـ كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في تفسير القرآن[٢]:

لأبي الفتح كمال الدين موسى بن يونس بن منعة الموصلي الشافعي[٣].

١٦ ـ مشكلات التفاسير[٤]:

لمحمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي[٥].

١٧ ـ إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات[٦]:

لأبي عبد الله محمد بن أحمد عبد المؤمن الأسعردي الشاذلي ـ شمس الدين ابن اللبان ـ[٧].

١٨ ـ كشف غوامض المنقول في مشكل الآيات والآثار وأخبار الرسول[٨]:

لزين العابدين بن محمد بن محمد العمري الشهير بـ (بسيط المرصفي)[٩].

١٩ ـ مشكلات القرآن[١٠]:

لعبد الله بن مسلم، أبي محمد. المتوفى سنة (١٠٠١هـ) [١١].

٢٠ ـ تيجان التبيان في مشكلات القرآن[١٢]:

لمحمد أمين بن خير الله بن محمود الخطيب العمري[13].

٢١ ـ هداية الصبيان لفهم بعض مشكل القرآن[١٤]:

---

(١) عالم مشارك بالحديث والأصول،من كبار دعاة الشيعة ، ذهب إلى بغداد ثم انتقل إلى الموصل، واستقر في حلب وتوفي بها سنة (٥٨٨هـ) . انظر: لسان الميزان (٣١٠/٥). والأعلام (٢٧٩/٦).
(٢) انظر: إيضاح المكنون (٣٦٧/٢).
(٣) فيلسوف علامة بالرياضيات، والحكمة والأصول، اتهم في عقيدته، توفي سنة (٥٨٨هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣١١/٥). وشذرات الذهب (٣٢٣/٥).
(٤) انظر: هدية العارفين (٤٠٧/٢). والأعلام (١٨٧/٧).
(٥) حكيم فلكي فيلسوف، مشارك في التفسير والفقه والأصول والمنطق،ضعيف في دينه ، ولد بشيراز، دخل الروم، وزار الشام ثم استقر في تبريز وتوفي بها سنة (٧١٠هـ). انظر: هدية العارفين (٤٠٦/٢، ٤٠٧). والأعلام (١٨٧/٧).
(٦) انظر: هدية العارفين (١٥٥/٢).
(٧) فقيه محدث مفسر، من علماء العربية، ومن كبار الصوفية ، ولد بدمشق، واستقر في مصر، وتوفي بها سنة (٧٤٩هـ). انظر: الشذرات (٢٧٩/٨) و هدية العارفين (١٥٥/٢). والأعلام (٣٢٧/٥).
(٨) انظر: هدية العارفين (٢٤٦/٢).
(٩) من فقهاء الشيعة، توفي سنة (٩٦٥هـ). انظر: هدية العارفين (٢٤٦/٢).
(١٠) انظر: هدية العارفين (٤٧٣/١).
(١١) لم أعثر له على ترجمة .
(١٢) انظر: الأعلام (٤١/٦، ٤٢).
(١٣) باحث شاعر، من علماء الموصل، توفي سنة (١٢٠٣هـ). انظر: الأعلام (٤١/٦، ٤٢).
(١٤) انظر: هدية العارفين (٧٧١/١). والأعلام (٣١٦/٤).

لعلي بن عمر بن أحمد بن عمر الميهي المقري الشافعي[١] .

٢٢ ـ إيضاح المشكلات[٢]:

لمحمد تقي بن محمد الكاشاني. [٣].

٢٣ ـ مشكلات القرآن[٤]:

للشيخ محمد أنور الكشميري[٥].

* * *

---

(١) قارئ متصوف شافعي، ضرير، تعلم بالأزهر، واشتهر بطنطا، و توفي بها سنة (١٢٠٤هـ). انظر :الأعلام (٣١٦/٤).

(٢) انظر: الأعلام (٦٣/٦).

(٣) فقيه، أصولي، متكلم، تعلم في النجف، وتوفي بطهران سنة (١٣٢١هـ). انظر: هداية العارفين (٣٩٢/٢). والأعلام (٦٣/٦).

(٤) انظر: معجم المؤلفين (٧٨٠/٣).

(٥) عالم فاضل، من شبه القارة الهندية، توفي سنة (١٣٥٣هـ). انظر: معجم المؤلفين (٧٨٠/٣).

وقد استفدت استفادة كبيرة في هذا المبحث، من رسالة آيات العقيدة التي قد يتوهم من ظاهرها التعارض في مسائل الإيمان باليوم الآخر (٧٩/١ ـ ١٢٦).

الباب الثاني
آيات في الإيمان بالرسل

ويحتوي على فصلين:

الفصل الأول ـ آيات في النبوة والأنبياء.

الفصل الثاني ـ آيات خاصة بالأنبياء.

الفصل الأول
آيات في النبوة والأنبياء

ويحتوي على تسعة مباحث:

المبحـــث الأول ـ آيات في عصمة الأنبياء.

المبحث الثانـي ـ آيات في شهادة الرسل على أممهم.

المبحث الثالــث ـ آيات في نصرة الأنبياء.

المبحث الرابــع ـ الآيات النافية علم الأنبياء بالغيب.

المبحث الخامس ـ آيات في كون الأنبياء من أهل القرى.

المبحث السادس ـ آيات في أن كل أمة لا تخلو من نذير.

المبحث السابــع ـ آيات في أن وجود الأنبياء مع أممهم مانع من العذاب.

المبحث الثامــن ـ آيات في نفي تسلط الشيطان على الأنبياء.

المبحث التاسع ـ آيات في تعدد شرائع الأنبياء.

المبحث الأول

آيات في عصمة الأنبياء

المطلب الأول

تعريف العصمة

العصمة في اللغة: المنع والحفظ. قال الجوهري: (يقال: عصمه الطعام: أي منعه من الجوع، والعصمة: الحفظ. يقال: عصمته فانعصم)[(١)].

وفي لسان العرب: (العصمة في كلام العرب بمعنى: المنع. وعصمة الله عبده: أن يمنعه مما يوبقه. وعصمه يعصمه عصمًا: منعه ووقاه، واعتصم به واستعصم: امتنع وأبى) [(٢)].

ويقول الفيروز أبادي: (عصم يعصم: اكتسب ومنع ووقى. والعصمة: المنع والقلادة)[(٣)].

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[(٤)]، وقوله سبحانه ـ فيما حكاه عن ابن نوح ـ : ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[(٥)]. وقوله سبحانه ـ حكاية عن امرأة العزيز حين راودت يوسف عن نفسه ـ: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾[(٦)].

العصمة في الاصطلاح ـ ذكر أهل العلم للعصمة تعريفات اصطلاحية كثيرة مختلفة منها:

أن عصمة الأنبياء كما يقول الراغب الأصفهاني هي: (حفظ الله تعالى إياهم بما خصهم به من صفاء الجوهر ثم بما أولاهم من الفضائل النفسية والجسمية ثم بالنصرة وتثبيت لأقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق)[(٧)].

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت أحمد بن عبد الغفور عطار، ط الثالثة ١٤٠٤هـ، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨٦/٤).

(٢) (٤٠٣/١٢ ـ ٤٠٤).

(٣) القاموس المحيط، (١١٣/٤).

(٤) سورة هود، الآية: (٤٣).

(٥) سورة هود، الآية: (٤٣).

(٦) سورة يوسف، الآية: (٣٢).

(٧) المفردات في غريب القرآن ، ص(٣٣٧).

ويقول ابن حجر – رحمه الله – عصمة الأنبياء هي:(حفظهم من النقائص ، وتخصيصهم بالكمالات النفسية ،والنصرة ،والثبات في الأمور ،وإنزال السكينة عليهم) [١].

وقد انتقد هذان التعريفان بانشغال أصحابه بتعديد الأسباب التي يحصل بها الحفظ في حين أغفل ما هو أهم وهو بيان ما حفظوا منه. هل حفظوا من الناس؟ أم من الذنوب؟ وأي الذنوب حفظوا منها؟ ومتى حفظوا منها؟ هل قبل النبوة أم بعدها؟[٢].

وحكى الإيجي أن العصمة عند الفلاسفة: (ملكة تمنع من الفجور وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات وتتأكد بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي والاعتراض على ما يصدر عنهم من الصغائر وترك الأولى)[٣].

وانتقد هذا التعريف بكونه يجعل العصمة أمرًا مكتسبًا لغير الأنبياء، وما ذكروه من أسباب لتحصيلها يمكن لغير الأنبياء عملها، فالعلم بمثالب المعاصي، ومناقب الطاعات ليس خاصًا بالأنبياء، وتعريفهم هذا مبني على قولهم بأن النبوة أمر مكتسب ، وليس اصطفاء من الله – عزوجل ـ . وهو قول ظاهر البطلان .

ويقول العبد اللطيف أن العصمة هي: (حفظ الله ظواهرهم ـ أي الأنبياء ـ وبواطنهم مما تستقبحه الفطر السليمة قبل النبوة وحفظهم من الكبيرة وصغائر الخسة بعدها وتوفيقهم للتوبة والاستغفار من الصغائر وعدم إقرارهم عليها)[٤].

وينتقد هذا التعريف: بإهماله العصمة في التبليغ. وعدم الإشارة إليها.

والراجح في نظري ـ والله أعلم ـ هو ماعرفها به أحمد الحمد أنها: (حفظ الله تعالى أنبياءه من تغير الفطرة، ومن الخطأ فيما يبلغون عنه من وحي، ومن اقتراف كبائر الذنوب، وما يستقذر من صغائرها، وعدم إقرارهم على ما يمكن وقوعه منهم من معاصي)[٥].

* * *

---

(١) فتح الباري ، (١١/٥٠١-٥٠٢) .
(٢) انظر: عصمة الأنبياء بين المسلمين وأهل الكتاب، لأحمد العبد اللطيف (ص٢٣).
(٣) المواقف (ص٣٦٦).
(٤) عصمة الأنبياء بين المسلمين وأهل الكتاب، لأحمد العبد اللطيف (ص٢٤).
(٥) صفات الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، للدكتور أحمد بن ناصر الحمد، مخطوط (ص٢٠).

المطلب الثاني

آيات في عصمة الأنبياء

١ ـ آيات بشأن نبي الله آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾﴿١١٥﴾[(١)] **مع قوله تعالى:** ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾﴿١٢١﴾[(٢)].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

ظاهر الآية الأولى يبين أن آدم عليه الصلاة والسلام نسي العهد بالنهي عن أكل الشجرة؛ لأن الشيطان قاسمه بالله أنه لمن الناصحين حتى أغراه وأنساه العهد. وبناء على ذلك فهو معذور بالنسيان لا عاص.

بينما تبين الآية الثانية أنه عاص لله تعالى[(٣)].

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

سلك العلماء في تفسير هاتين الآيتين مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على قولين:

القول الأول ـ أن النسيان في هذه الآية بمعنى: الترك. وعلى هذا فليس هناك ما يوهم التعارض بين الآيتين.

وهذا القول هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول أكثر المفسرين كالحسن البصري، ومجاهد، وابن أبي زمنين وغيرهم[(٤)].

---

(١) سورة طه.

(٢) سورة طه.

(٣) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب، لمحمد الأمين الشنقيطي، نشر مكتبة ابن تيمية. القاهرة. ص (٢٠٢).

(٤) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طـ الثالثة، ١٣٨٨هـ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (٢٢٠/١٦). وصحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، ت راشد عبد المنعم الرجال، ط الثانية، ١٤١٤هـ، دار الجيل بيروت، (ص٣٥٠). وتفسير الحسن البصري، جمع د/محمد عبد الرحيم، ط دار الحديث، القاهرة (١٢٠/٢). وتفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، ت حسين عكاشة ومحمد مصطفى الكنز، ط الأولى ١٤٢٣هـ، دار الفاروق الحديثة، القاهرة (١٣٠/٣). وتفسير ابن جرير الطبري (٢٢٠/١٦). وتفسير القرآن، لأبي مظفر السمعاني (٣٥٨/٣). والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، ت عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

ويتجلى هذا بما يلي:

١ ـ قول الرازي: (أن قوله تعالى: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[٢] يدل على أنه ما نسي النهي حال الإقدام)[٣].

٢ ـ قول الشنقيطي: (أن العرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمدًا.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ط الأولى (١٤٠٩هـ)، مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر، الدوحة (١٠٠/١٠). وتفسير القرآن العزيز، المسمى (تفسير عبد الرزاق)، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت عبد المعطي قلعجي، ط الأولى (١٤١١هـ)، دار المعرفة، بيروت (١٩/٢). ومعالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان الحرش، الإصدار الثاني من الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ) (١٤٢/٣). وفتح القدير للشوكاني (٣٨٩/٣). ومعاني القرآن، للزجاج (٣٧٨/٣). والدر المنثور في التفسير بالمأثور، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ط الأولى (١٤٠٣هـ)، دار الفكر، بيروت (٦٠٣/٥). وتفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي، عناية أبو صهيب الكرمي، ط (١٤١٩هـ)، بيت الأفكار الدولية، الرياض (ص٣٢٠). والوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت صفوت عدنان داودي، ط الأولى (١٤١٥هـ)، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت (٧٠٧/٢). وتفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، ط الأولى (١٤١٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٣١/٦). وتفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، ت أسعد الطيب، ط الأولى (١٤١٧هـ)، مكتب الباز، مكة المكرمة (٢٤٣٧/٧). وتفسير البحر المحيط، لمحمد ابن يوسف ـ الشهير بابن حيان ـ ط الثانية (١٤١٣هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (٢٨٣/٦).

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٠).
(٢) سورة الأعراف.
(٣) مفاتيح الغيب ومفاتيح الغيب، لمحمد الرازي، ط الثالثة (١٤٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت (١٢/٢).
(٤) سورة طه.
(٥) سورة الأعراف.
(٦) سورة السجدة.

ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾[(١)]، وقوله تعالى: وَقِيلَ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾[(٢)]، وقوله تعالى: نَسُواْ﴿ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ ﴾[(٣)])[(٤)].

القول الثاني. إنه من النسيان الذي يخالف الذكر. وهو السهو.

وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مؤاخذًا بالنسيان، وإن كان النسيان اليوم مرفوعًا[(5)]، وأنه عوقب على ذلك لتركه التحفظ والاهتمام[(٦)].

وهذا قول بعض المفسرين كالماوردي والرازي والنسفي وغيرهم[(٧)].

وقد استدلوا على ذلك بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: وَلَمۡ﴿ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾[(٨)]. ومثلوه بالصائم يشتغل بأمر يستغرقه، ويغلب عليه فيصير ساهيًا عن الصوم ويأكل في أثناء ذلك السهو لا عن قصد[(٩)].

٢ ـ يقول الشنقيطي: (مما يدل على هذا ـ أي على هذا القول ـ ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما قرأ رَبَّنَا﴿ لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾[(١٠)] قال: **((قال الله: نعم قد فعلت))**[(١١)]. فلو كان معفوًا

---

(١) سورة الحشر.

(٢) سورة الجاثية.

(٣) سورة التوبة، الآية: (٦٧).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي،ط الثانية (١٤٠٠هـ) (٥٢٠/٤).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي، القاهرة (٢٥١/١١). ومعالم التنزيل، للبغوي (١٤٣/٣).

(٦) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين السيد محمد الألوسي، ط الرابعة (١٤٠٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٢٦٩/١٥).

(٧) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٣٢٧/٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢/). ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، لعبد الله بن أحمد النسفي، ت مروان محمد الشقار، ط الأولى، دار النفائس، بيروت (١٠٣/٣). وروح المعاني، للألوسي (٢٦٩/١٥). ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي، ط الثانية (١٤١٣هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (٣٥٤/١٢).

(٨) سورة طه.

(٩) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٢/٢).

(١٠) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

(١١) كتاب الإيمان، باب: بيان تجاوز الله ـ تعالى ـ عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر،

عن جميع الأمم لما كان لذكره على سبيل الامتنان وتعظيم المنة موقع. ويستأنس لذلك بقوله:﴿ كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[1]. ويؤيد ذلك حديث: **((إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))** [2].

فقوله: **((تجاوز لي عن أمتي))** يدل على الاختصاص بأمته؛ وليس مفهوم لقب؛ لأن مناط التجاوز عن ذلك هو ما خصه الله به من التفضيل على غيره من الرسل)[3].

٣ ـ قال البغوي: (فإن قيل: أتقولون: إن آدم كان ناسيًا لأمر الله حين أكل من الشجرة قيل: يجوز أن يكون نسي أمره ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعًا عن الإنسان بل كان مؤاخذًا به، وإنما رفع عنا، وقيل: نسي عقوبة الله وظن أنه نهاه تنزيهًا)[4].

وقد ذكر هذين القولين جمع من أهل العلم[5].

الترجيح:

وبعد النظر في هذين القولين، وأدلتهما، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول، وأن النسيان في الآية بمعنى: الترك، وذلك لما يلي:

١ ـ قوة أدلة أصحاب هذا القول، وسلامتها من المعارض.

٢ ـ ورود أثر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ

وبيانه أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ح/١٢٥ ـ ١٢٦ ص (٦٧).

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ح (٢٠٤٣، ٢٠٤٥) (٦٥٩/١).
والحاكم في مستدركه، كتاب الطلاق (١٩٨/٢). وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وابن حبان في صحيحه (ح٧٢١٩) ـ ترتيب ابن لبان (٢٠٢/١٦) ـ والبيهقي في سننه، كتاب الخلع والطلاق، باب ما جاء في طلاق المكره (٣٥٧/٧). والدار قطني في سننه، كتاب النذور (١٧١/٤). والطحاوي في شرح معاني الآثار، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره (٩٥/٣). وابن عدي في الكامل (١٩٢٠/٥). والنووي في الأربعين وحسنه (ح٣٩) (ص٨١). وصححه الألباني في إرواء الغليل (ح٨٢) (١٢٣/١).

(٣) أضواء البيان، للشنقيطي (٥٢١/٤).

(٤) معالم التنزيل (٢٣٣/٣).

(٥) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت محمد الصادق قمحاوي، ط (١٣٩٢هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (٥٥٥/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٥١/١١). وتفسير أبو السعود (٤٤/٦). وأضواء البيان، للشنقيطي (٥٢٠/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (٦٢٢/٥). وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، ط الأولى، (١٤١٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٤٠/٤). والنكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تعليق السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط الأولى (١٤١٢هـ)، دار الكتب العلمية (٤٣٠/٣). واللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، ت عادل بن أحمد عبد الموجود وآخرون. ط الأولى (١٤١٩هـ). دار الكتب العلمية، بيروت (٤٠٢/١٣). =

إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ ﴾فَنَسِيَ[1] يقول: ترك[2].

٣ ـ لثبوت ورود النسيان في لغة العرب بمعنى: الترك.

(ومن ذلك ما روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه أنشده:

إن عــليّ عَقَبَــــةً أقضيها   لست بناسيها ولا مُنْسيها

قال: بناسيها بتاركها، ولا منسيها ولا مؤخرها)[3]

---

(١) سورة طه، الآية: (١١٥).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢٠/١٦). وابن أبي حاتم (٢٤٣٧/٧). والسيوطي في الدر المنثور (٦٠٣/٥). وابن منده في الرد على الجهمية ص(٥١). وهذا الأثر من رواية علي بن أبي طلحة ـ مولى بني العباس ـ وإسناده حسن . وإن كان ظاهره الانقطاع ؛ لأن علي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يره ، لكنه صاحب صحيفة في التفسير كانت بمصر ، قال عنها الإمام أحمد :(بمصر صحيفة في التفسير رواها علي ابن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ماكان كثيرا) . (الاتقان للسيوطي ١٨٨/٢) وقال ابن حجر :(وهذه النسخة كانت عند أبي صالح ـ كاتب الليث ـ رواها عن معاوية بن صالح ، عن علي بن ابي طلحة ،عن ابن عباس . وهي عند البخاري عن أبي صالح .وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيرا فيما يعلقه عن ابن عباس . وقد اعتمدها لكون الواسطة بينهما معروفة ؛ وهو مجاهد أوسعيد بن جبير) ولهذا قال ابن حجر : (بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك) انظر :تهذيب التهذيب (٣٣٩/٧) .

(٣) لسان العرب، لابن منظور (٣٢٣/١٥).

=

٢ ـ آيات بشأن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾[2]. **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾[3]. ونحوها من الآيات.

مع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨﴾[4].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيات الأولى إلى أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن من المشركين في وقت من الأوقات، بينما تشير الآيات الأخرى بأنه قال للكواكب والشمس والقمر: ﴿هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ فكيف يقول لها: هذا ربي. ولم يكن من المشركين في وقت من الأوقات، وهذا ما يتوهم منه التعارض بين الآيات، وسنورد بمشيئة الله تعالى ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات؛ وذلك على احتمالين يندرج تحتهما أقوال:

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) سورة النحل.
(٤) سورة الأنعام.

الاحتمال الأول - أن قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا رَبِّي ۖ ﴾ على ظاهره، وأن المقام مقام نظر وتفكر. ويندرج تحت هذا الاحتمال ثلاثة أقوال للعلماء:

القول الأول - إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: ﴿ هَـٰذَا رَبِّي ۖ ﴾ في زمن طفولته.

وهذا قول بعض العلماء كالسدي ،ومحمد بن إسحاق ، وغيرهما(1).

وقد استدلوا على ذلك بما يلي:

١ - ما رواه الإمام ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّي ۖ ﴾(٢) فعبده حتى غاب، فلما غاب قال: لا أحب الآفلين؛ فلما رأى القمر بازغًا قال: هذا ربي فعبده حتى غاب؛ فلما غاب قال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ فعبدها حتى غابت؛ فلما غابت قال: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(٣))(٤).

٢ - احتجوا بقوله تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾(٥)

قال ابن الجوزي: (وهذا يدل على نوع تحيير. قالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عليه دليل) (٦).

ويرى ابن جرير الطبري أن قول إبراهيم عليه السلام ﴿ هَـٰذَا رَبِّي ۖ ﴾ لم يكن في زمن الطفولة؛ حيث قال بعد أن ذكر أقوال العلماء في هذه المسألة: (وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٤٨/٧). وزاد المسير، لابن الجوزي (٥٠/٣). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٥٩٢/٤). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٨/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٥/٧).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٧٦).

(٣) سورة الأنعام.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (٢٤٨/٧). وروى نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٢٨/٤).

(٥) سورة الأنعام.

(٦) زاد المسير، لابن الجوزي (٥١/٣).

﴾٧٧﴿ الدليل على خطأ الأقوال الأخرى، وأن الصواب في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر عنه، والإعراض عما عداه)[1].

القول الثاني - إن قول إبراهيم عليه السلام ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كان في حال الاستدلال، وهو على تقدير حذف مضاف، أي: هذا دليل ربي، أو هذا نور ربي.

وهو قول جمع من أهل العلم[2].

قال النحاس: (من أحسن ما قيل في هذا: ما صح عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[3] كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه فإذا عرفه ازداد نور على نور، وكذلك إبراهيم - عليه السلام - عرف الله بقلبه، واستدل عليه بدلائله، فعلم أن له ربًا وخالقًا، فلما عرفه الله بنفسه وازداد معرفة فقال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِ﴾[4])[5].

وقد ذكر هذا القول القرطبي - ولم يعزه لأحد من العلماء - فقال: (لما خرج إبراهيم من السرب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربه فظن أنه ضوءه فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي بأنه يتراءى له نوره) [6].

وقد ضعف هذا القول الزجاج والسمعاني، وابن عطية[7].

وقد ضعف هذا الاحتمال بأقواله وأبطله جمع كثير من أهل العلم في القديم والحديث. كالزجاج، والسمعاني، وابن كثير، وابن عطية وغيرهم[8].

وذلك للأمور التالية:

١ - أن أثر ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح الاحتجاج به وحده في هذا

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٥٠/٧).

(٢) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (١١٩/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٨/٢).. وفتح القدير، للشوكاني (١٣٣/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٧/٧).

(٣) سورة النور، الآية: (٣٥).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (٨٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٧/٧).

(٦) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٦/٧).

(٧) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (١١٩/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٦٠/٥). ومعاني القرآن، للزجاج (٢٦٦/٢).

(٨) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (١١٩/٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (٤٩/١٣). وتفسير ابن كثير (٢٩٢/٣). ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٦٧/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٦٠/٥). وأضواء البيان، للشنقيطي (١٨٠/٢). وتفسير القرآن الحكيم - الشهير بتفسير المنار - لمحمد رشيد رضا، ط دار الفكر، بيروت (٥٥٧/٧).

الموضع

وذلك لمخالفته قوله تعالى ـ في أكثر من آية ـ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[2].

ولإمكاننا حمل قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ :(فعبده حتى غاب) على أنه تظاهر بعبادته أمامهم ، ولم يعبده عبادة حقيقية .

٢ ـ أن قصة دخول إبراهيم عليه السلام السرب، من الإسرائيليات، ومدارها على ابن إسحاق وهو معروف بنقله عن أهل الكتاب[3]، وروى نحوها ابن أبي حاتم عن السدي[4].

٣ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد نفى وقوع الشرك من إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[5]، وقال

سبحانه وتعالى في أكثر من موضع: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾[6]. فدلت هذه الآيات دلالة واضحة على أن إبراهيم عليه السلام لم يقارف الشرك في وقت من الأوقات، لا قبل البلوغ ولا بعده[7].

٤ ـ أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل؛ لأن الله أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾[8])[9].

٥ ـ أن الله تعالى قال في وصف إبراهيم: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾[10].

---

(١) سورة البقرة. الآية: (١٣٥). وسورة آل عمران، الآية: (٦٧).
(٢) سورة النحل.
(٣) انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (٧٠/١).
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك، لابن جرير الطبري (٢٣٦/١).
(٥) سورة النحل.
(٦) سورة البقرة. الآية: (١٣٥). وسورة آل عمران، الآية: (٦٧).
(٧) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي (١٨٠/٢).
(٨) سورة الأنعام.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٥٠/٧).
(١٠) سورة الصافات.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[1]. أي: آتيناه رشده من قبل أول زمان الفكرة وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ أي: بطهارته وكماله[2].

٦ ـ أن الله تعالى هيأ لإبراهيم عليه السلام سبب اليقين قبل رؤية الكوكب؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[3] أي: بسبب تلك الإراءة يكون من الموقنين، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[4] "والفاء" تقتضي الترتيب، فدلت الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ على أن هذه الواقعة حصلت بعد أن صار من الموقنين العارفين بربهم[5].

٧ ـ أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع قومه؛ لأن الله تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[6]. ولم يقل: على نفسه، فعلم أن هذه المحادثة إنما جرت مع قومه؛ لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم عليه السلام كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه[7].

٨ ـ أن قولهم: إن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والشمس والقمر حال كونه في الغار باطل؛ لأنه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[8] مع أنه ما كان في الغار لا قوم،

---

(١) سورة الأنبياء.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الدمشقي (٢٤٤/٨).
(٣) سورة الأنعام.
(٤) سورة الأنعام، الآية: (٧٦).
(٥) مفاتيح الغيب، للرازي (٥١/٧).
(٦) سورة الأنعام، الآية: (٨٣).
(٧) اللباب في علوم الكتاب، لابن عماد الحنبلي (٢٤٤/٨).
(٨) سورة الأنعام.

ولا صنم[1].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾[2]. فكيف يحاجونه وهم لم يروه ولم يرهم، وهذا يدل على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والشمس والقمر بعد مخالطة قومه ورآهم يعبدون الأصنام، ودعوه إلى عبادتها،فقال:﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ردًا عليهم وتنبيهًا على فساد قولهم[3].

١٠ ـ أنه تعالى حكى عنه أنه قال للقوم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾[4].وهذا يدل على أن القوم كانوا خوفوه بالأصنام كما قال هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾[5] وهذا الكلام لا يليق بالغار)[6].

١١ ـ أن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار، ولا شك أن الشمس كانت طالعة في اليوم المتقدم، ثم غربت، فكان ينبغي أن يستدل بغروبها السابق على أنها لا تصلح للإلهية، وإذا بطلت صلاحية الشمس للإلهية بطل ذلك في القمر والكوكب بطريق الأولى[7].

١٢ ـ لو أن إبراهيم عليه السلام كان معتقدًا ربوبية الكواكب كقومه لوسعه ما وسعهم من الاعتقاد بالكواكب على الطريقة التي يتعبدون بها ولم يكن باحثًا عن رب منها واحدًا تلو الآخر.

الاحتمال الثاني ـ أن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول مناظرًا لهم؛ لأجل إلزامهم، ويندرج تحت هذا الاحتمال أقوال للعلماء:

القول الأول ـ إن قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ على ظاهره، وأن المقام مقام مناظرة ومجادلة.

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (٥١/٧).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٨٠).
(٣) مفاتيح الغيب، للرازي (٥١/٧).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (٨١).
(٥) سورة هود، الآية: (٥٤).
(٦) مفاتيح الغيب، للرازي (٥١/٧).
(٧) مفاتيح الغيب، للرازي (٥٢/٧).

وهو قول الكثير من أهل العلم كابن قتيبة، وأبو بكر الأنباري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم**(١)**.

وقد استدلوا على ذلك بما يلي:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى نفى عن إبراهيم الوقوع في الشرك في الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ في آيات كثيرة(٢)، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾(٣) فثبت أنه لم يقع في الشرك يومًا من الأيام.

٢ ـ قال تعالى بعد سرد هذه القصة: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾(٤) وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾(٥) فدل ذلك على أنه في حال مناظرة ومحاجة.

٣ ـ ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه))**(٦).

٤ ـ ما رواه الإمام مسلم بسنده عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: **((قال الله: وإني خلقت عبادي حنفاء...))**(٧).

٥ ـ قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾(٨)

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ

---

(١) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٥٩٣/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (٥١/٣). وأضواء البيان، للشنقيطي (١٨٠/٢). وتفسير أبي السعود (١٥٣/٣). وبدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، جمع وتوثيق: يسري السيد محمد، ط الأولى، ١٤١٤هـ، دار ابن الجوزي (١٥١/٢). والكشاف، للزمخشري (٣٠/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٦١/٥). وباهر البرهان، للغزنوي (٤٧٣/١). وتأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص٣٣٦). وتفسير ابن كثير (٢٩٢/٣). وتفسير ابن سعدي (٤٢٥/٢). ومنهاج السنة النبوية، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت محمد رشاد سالم، ط الأولى، (١٤٠٦هـ)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٩٣/٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٣٥). وسورة آل عمران، الآية: (٦٧).

(٣) سورة النحل.

(٤) سورة الأنعام، الآية: (٨٠).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (٨٣).

(٦) الصحيح ، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (ح١٣٨٥)، (ص٢٢٢). وانظر: صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مود يولد على الفطرة (ح ٦٧٥٥ ـ ٦٧٦١)، (ص ١١٥٧ ـ ١١٥٨).

(٧) الصحيح ، كتاب الجنة ونعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة والنار، ح/٢٨٦٥ (١٢٤١).

(٨) سورة الروم الآية: (٣٠).

أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾﴿١٧٢﴾[1]. قال ابن كثير: (ومعناه على أحد القولين كقوله: فِطْرَتَ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[2] فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أُمَّةً﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾﴿١٢٠﴾[3] ناظرًا في هذا المقام؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب)[4].

وقد ذكر هذا القول بعض أهل العلم[5].

القول الثاني - إن قول إبراهيم عليه السلام: هَٰذَا﴿ رَبِّى ﴾ هو على تقدير استفهام محذوف. أي: أهذا ربي؟ ومعناه: إنكار أن يكون مثل هذا ربًا.

وهو قول جمع من أهل العلم كقطرب، والبغوي، وابن عطية، والرازي وغيرهم**[6]**.

وذكروا من أدلته ما يلي:

١ - أن قول إبراهيم هَٰذَا﴿ رَبِّى ﴾ على تقدير استفهام محذوف مثل قوله تعالى: أَفَإِيْن﴿ مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾﴿٣٤﴾[7][8].

٢ - أن حذف الاستفهام وارد في العربية:

ومثله قول أبو خراش الهذلي:

---

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٣) سورة النحل.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، (٣/٢٩٢).

(٥) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٣/٥١). وتفسير البغوي (٢/٣٩). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥/٢٦١).

(٦) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (٢/١١٩). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٤/٥٩٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣/٥١). وتفسير البغوي (٢/٣٩). وأضواء البيان، للشنقيطي (٢/١٨٠). ومفاتيح الغيب، للرازي (٧/٥٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧/٢٦). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥/٢٥٨). وباهر البرهان، للغزنوي (١/٤٧٣). وتفسير ابن جرير الطبري (٧/٢٥٠).

(٧) سورة الأنبياء.

(٨) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/١٣٣).

رَفَوْني وقالوا يا خويلدُ لم تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ همُ همُ[١]

أي: أهم هم؟[٢].

وقول عمر بن أبي ربيعة:

فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ بسبعٍ رميتَ الجمرَ أم بثمان [٣]

أي: أبسبع؟[٤].

وقول الأخطل:

كَذَبَتكَ عينُكَ أم رأيتَ بواسطٍ غَلَسَ الظلامِ من الربابِ خيالاً[٥]

أي: أكذبتك؟[٦].

وقد ضعف هذا القول الزجاج وابن الأنباري.

قال أبو المظفر السمعاني: (وأما الزجاج وغيره فلم يرضوا منه هذا، وقالوا: ليس في كلام العرب "هذا" بمعنى الاستفهام)[٧].

وقال ابن الأنباري ـ فيما ذكر ابن الجوزي ـ : (وهذا القول شاذ؛ لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقًا بين الإخبار والاستخبار)[٨].

القول الثالث ـ إن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ هو على تقدير: وأنتم تقولون: هذا ربي. فأضمر القول.

ورجح هذا القول الزجاج[٩]، وذكره بعض أهل العلم كالبغوي، والقرطبي وغيرهم[١٠].

وذكروا استدلالاً عليه قوله تعالى: وَإِذْ ﴿ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني (١٣٣/٢)، وورد هذا البيت في الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ت سمير جابر، ط الثالثة، دار الفكر الأصفهاني، بيروت. وديوان الهذليين ط ١٣٨٥هـ، المكتبة العربية بمصر (١٤٢/٢).

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (١٣٤/٢).

(٣) انظر : المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٤٩/٣) .

(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني (١٣٤/٢).

(٥) ديوان الأخطل شرح راجي الأسمر، ط الثانية ١٤١٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.(٢٠٠) .

(٦) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٥١/٣).

(٧) انظر: تفسير ه ، (١١٩/٢).

(٨) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٥١/٣).

(٩) انظر: معاني القرآن وإعرابه، (٢٦٢/٢).

(١٠) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٥٩٢/٤). وتفسير البغوي (٣٩/٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٣/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٧/٧).

وَإِسۡمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ ﴾[1] أي يقولون: ربنا تقبل منا، فتلك الآية مثل هذه الآية وتقاس عليها[2].

القول الرابع - إن قول إبراهيم: ﴿ هَـٰذَا رَبِّيۖ ﴾ من باب الإخبار على سبيل الاستهزاء والإنكار والتوبيخ.

وقد ذكره جمع من أهل العلم[3].

وذكروا مما يدل عليه ما يلي:

١ - أنه كقوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[4] أي عند نفسك وبزعمك[5].

٢ - أنه كما قال موسى في قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾[6] يريد إلهك بزعمك[7].

٣ - أنه كما قال تعالى: ﴿ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾[8][9] .

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، وأدلتها. يظهر أن الراجح - والله أعلم - هو القول الأول من الاحتمال الثاني. وأن قول إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ هَـٰذَا رَبِّيۖ ﴾ أي على زعمكم، وأن المقام مقام مناظرة ومجادلة؛ وذلك لما يلي:

١- قوة أدلة أصحاب هذا القول، وسلامتها من المعارض.
٢- تأييد القرآن والسنة الصحيحة هذا القول.
٣- دلالة سياق الآيات عليه.
٤- أنه الأليق بمقام إبراهيم عليه السلام.
٥- أن فيه حمل الآيات على ظاهرها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٢٧).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٣٩/٢).
(٣) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٥٩٢/٤). وتفسير البغوي (٣٩/٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٣/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٦/٧).
(٤) سورة الدخان.
(٥) انظر: تفسير البغوي (٣٩/٢).
(٦) سورة طه. الآية: (٩٧).
(٧) انظر: تفسير البغوي (٣٩/٢).
(٨) سورة القصص.
(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن ،للقرطبي (٢٧/٧) .

٦- أن فيه جمعًا بين النصوص، وإعمالاً لها كلها.

مسألة : عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة عند أهل السنة والجماعة .

لقد اختلف العلماء حول هذه المسألة على قولين :

القول الأول : عصمة جميع الأنبياء من الشرك والكفر قبل النبوة وبعدها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - : (وكثير من أهل السنة يقولون : إن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة ، كما قال ذلك : ابن الأنباري ،والزجاج ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، والبغوي) [(١)].

قال البغوي : (وأهل الأصول على أن الأنبياء كانوا مؤمنين قبل الوحي ،وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعبدالله قبل الوحي على دين إبراهيم ، ولم تبين له شرائع دينه) [(٢)].

القول الثاني : جوا ز وقوع الكفر من بعض الأنبياء قبل النبوة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - : (وأما قولهم : إن شعيبا والرسل ماكانوا في ملتهم قط ،وهي ملة الكفر ، فهذا فيه نزاع مشهور ، وبكل حال فهذا خبر يحتاج إلى دليل سمعي أو عقلي ، وليس في أدلة الكتاب والسنة والإجماع ما يخبر بذلك ، وأما العقل : ففيه نزاع ، والذي عليه نظار أهل السنة أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك ، وهذه مسألة تنازع فيها المتأخرون من المنتسبين إلى السنة والحديث ، والمعتزلة) [(٣)] .

ثم قال : (المقصود بما ذكر خلاف الناس في هذا الأصل، وأما تحقيق القول فيه : فالله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه ، كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [(٤)] ، وقال : (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) [(٥)]

. بل قد يبعث النبي من أهل بيت ذي نسب طاهر ، كما قال هرقل لأبي سفيان :" كيف نسبه فيكم؟ قال : هو فينا ذو نسب. قال : وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها " ، وقد قالوا لشعيب _ مع استضعافهم له _ : (ولولا رهطك لرجمناك و ما أنت علينا بعزيز) [(٦)].

---

(١) تفسير آيات أشكلت (١٨١/١) .
(٢) معالم التنزيل ،للبغوي (١٣٢/٤) .
(٣) تفسير آيات أشكلت ، (١٧٨/١) .
(٤) سورةالأنعام ،آية: (١٢٤) .
(٥) سورة الحج ، آية : (٧٥) .
(٦) سورة هود ، آية : (٩١) .

ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه منهم نقص ولا بغض ولا غضاضة إذا كان على مثل دينهم إذا كان عندهم معروفا بالصدق والأمانة ، وفعل ما يعرفون وجوبه واجتناب ما يعرفون قبحه ، وقد قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [1] ؛ فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب قبل الرسالة ، وإن كان لا هو ولا هم يعلمون ما أرسل به .

وفرق بين من يرتكب ما علم قبحه وبين من يفعل ما لم يعرف ، فإن هذا الثاني لا يذمونه ولا يعيبونه عليه ، ولا يكون ما فعله مما هم عليه منفرا عنه ، بخلاف الأول.

ولهذا لم يكن في أنبياء بني إسرائيل من كان معروفا بشرك ، فإنهم نشأوا على شريعة التوراة ، وإنما ذكر هذا فيمن كان قبلهم ، ولكن هذا الذي ذكره يجيء في إخوة يوسف ، إذ قيل أنهم صاروا أنبياء بعد ما فعلوه بيوسف فوقع منهم ما وقع قبل النبوة.

وأما ما ذكره سبحانه في قصة شعيب و الأنبياء ، فليس في هذا ما ينفر أحداً عن القبول منهم ، وكذلك الصحابة الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد جاهليتهم ، وكان فيهم من كان محمود الطريقة قبل الإسلام ، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فإنه لم يزل معروفاً بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ، لم يكن فيه قبل الإسلام ما يعيبونه به ، والجاهلية كانت مشتركة فيهم كلهم.

فقد تبين أن ما أخبر عنه قبل النبوة _ في القرآن _ من أمر الأنبياء ليس فيه ما ينفر أحداً عن تصديقهم ، ولا يوجب طعن قومهم فيهم ؛ ولهذا لم يذكر أحد من المشركين هذا قادحاً في نبوتهم ، ولو كانوا يرونه عيبا لعابوه ، ولقالوا : أنتم كنتم أيضا معنا على الحالة المذمومة ، ولو ذكروا للرسول هذا ، قالوا : كنا كغيرنا لم نعرف ما أوحي به إلينا ، بل (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) [2]، فقالت الرسل : (إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) [3].

وقد اتفقوا كلهم على جواز بعثة رسول لم يعرف ما جاءت به الرسل قبله من أمور النبوة والشرائع ، ومن لم يقر بهذا الرسول بعد الرسالة فهو كافر، والرسل _ قبل الوحي _ قد كانت لا تعلم هذا ، فضلاً عن أن تقربه ، فعلم أن عدم هذا العلم والإيمان لا يقدح في نبوتهم . بل الله إذا نبأهم ، علمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وقد قال تعالى : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) [4] وقال : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون

---

(١) سورة الإسراء ، آية :(١٥).
(٢) سورةإبراهيم آية : (١٠).
(٣) سورة إبراهيم ، آية : (١١) .
(٤) سورة غافر ، آية : (١٥).

) [1] . فجعل إنذارهم بعبادة الله وحده كإنذارهم بيوم التلاق ، كلاهما عرفوه بالوحي.
وقد كان إبراهيم الخليل قد تربي بين قوم كفار ليس فيهم من يوحد الله ، وآتاه الله رشده ، وآتاه من العلم والهدى ما لم يكن فيهم ، كذلك غيره من الرسل.
وموسى لما أرسله الله إلى فرعون ، قال له فرعون :(قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين* وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين * قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين * وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) [2].
وقال تعالى لخاتم الرسل : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءان وإن كنت من قبله لمن الغافلين) [3].
وهذه "إن" المخففة من الثقيلة ، قد دخلت في خبرها اللام "الفارقة" ليست "النافية" كما يظنه من لا يفهم العربية ولا معاني القرآن .
وقال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) [4]، وقال : (وعلمك ما لم تكن تعلم) [5] الآية ، وقال : (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلنه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) [6] إلى آخر السورة) [7].
ثم قال : (فلا يلزم إذا كان نبي قبل النبوة معصوما من كبائر الإثم والفواحش صغيرها وكبيرها أن يكون كل نبي كذلك ، ولا يلزم إذا كان الله قد بغض إليه شرك قومه قبل النبوة أن يكون كل نبي كذلك . فما عرف من حال نبينا وفضائله لا تناقض ما روي من أخبار غيره إذا كان دون ذلك ، ولا يمنع كون ذلك بنبينا ، ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض ، كما فضلهم في الشرائع والكتب والأمم ؛ فهذا أصل يجب اعتباره.
وقد اخبر الله تعالى أن لوطاً كان من أمة إبراهيم ، و ممن آمن له ، ثم إن الله أرسله ، وكذلك يوشع كان من أمة موسى ، وكان فتاه ، ثم إن الله أرسله ، وكذلك هارون . لكن هارون ويوشع كانا على دين بني إسرائيل ملة إبراهيم ، وأما لوط فلم يكن قبل إبراهيم من قومه ملة نبي يتبعها لوط ، بل لما بعث الله إبراهيم آمن له.
والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم ، ثم يبعثه الله فيهم يكون أكمل

---

(١) سورة النحل ، آية : (٢) .
(٢) سورة الشعراء ، آية : (١٨-٢٢) .
(٣) سورة يوسف ، آية : (٣) .
(٤) سورة هود ، آية : (٤٩) .
(٥) سورة النساء ، آية : (١١٣) .
(٦) سورة الشورى ، آية (٥٢) .
(٧) تفسير آيات أشكلت ، (١/١٩١-١٩٧) .

وأعظم ممن كان من قوم يعرفون النبوة ، فإنه يكون تأييد الله له أعظم من جهة تأييده بالعلم والهدى ، ومن جهة تأييده بالنصر والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم ، ولهذا يضيف الله الأمر إليهما في مثل قوله : (ولقد أرسلنا نوحاً و إبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) [1] وقوله : (إن الله اصطفى ءادم ونوحاً و ءال إبراهيم و ءال عمران على العالمين) [2][3].

* * *

المبحث الثاني
آيات في شهادة الرسل على أممهم

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: فَكَيْفَ﴿ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[4]. **وقوله تعالى:** وَيَوْمَ﴿ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾[5].

مع قوله تعالى: ۞﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ

---

(١) سورة الحديد ، آية : (٢٦).
(٢) سورة آل عمران ، آية : (٣٣) .
(٣) تفسير آيات أشكلت (١/٢٣٠-٢٣٣) . وانظر : مجموع الفتاوى ، (١٥/٣٠-٣١) .
(٤) سورة النساء.
(٥) سورة النحل، الآية: (٨٩).

إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾[1].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيتان الأوليان إلى أن الرسل يشهدون على أممهم يوم القيامة، بينما يشير ظاهر الآية الأخيرة إلى أن الرسل ينفون علمهم بحال أممهم في ذلك اليوم، وهذا ما يتوهم منه التعارض بين الآيات، وسنورد ـ بمشيئة الله تعالى ـ من أقوال العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

القول الأول ـ أن معنى قوله تعالى: ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ ﴾ لم يكن ذلك من الرسل إنكارًا أن يكونوا عالمين بما عملت به أممهم، ولكن ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم، ثم أجابوا بعد أن ثابت إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم.

وهو قول جمع من المفسرين كالسدي، ومجاهد والحسن البصري وغيرهم، وعزاه البغوي وابن الجوزي إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه القرطبي إن كان السؤال عند زفرة جهنم[2].

وقد استدلوا على ذلك بما يلي:

١ ـ قال السيوطي: (وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ ۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ ﴾[3]. قال: تذهل عقولهم، ثم يرد الله عقولهم إليهم، فيكونوا هم الذين يسألون يقول الله: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾[4])[5].

٢ ـ قال السيوطي: (وأخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: والذي نفسي بيده لتفسرن لي آيًا من كتاب الله ـ عز وجل ـ أو لأكفرن به، فقال ابن عباس: ويحك! أنا لها اليوم. أي آي؟ قال: أخبرني

---

(١) سورة المائدة.

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٢٥/٧). ومعالم التنزيل، للبغوي (٧٣٠/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٦/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٦١/٦). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٩٥/٥). وتفسير أبي المظفر السمعاني (٧٧/٢). والدر المنثور، للسيوطي (٢٢٧/٣). وتفسير أبي السعود (٤٩/٣). ومعاني القرآن، للزجاج (٢١٨/٢). وباهر البرهان، للغزنوي (٤٤٧/١). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي ص (١١٥).

(٣) سورة المائدة. الآية: (١٠٩).

(٤) سورة الأعراف.

(٥) انظر: الدر المنثور، للسيوطي (٢٢٧/٣).

عن قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾[1] وقال في آية أخرى: وَنَزَعْنَا﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ ﴾لِلَّهِ[2] فكيف علموا وقد قالوا لا علم لنا؟ وأخبرني عن قول الله: ثُمَّ﴿ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[3] وقال في آية أخرى: لَا﴿ تَخْتَصِمُواْ ﴾لَدَىَّ[4].

فكيف يختصمون وقد قال لا تختصموا لدي؟

وأخبرني عن قول الله: ٱلْيَوْمَ﴿ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ ﴾أَرْجُلُهُم[5] فكيف شهدوا وقد ختم على الأفواه؟

فقال ابن عباس: ثكلتك أمك يا ابن الأزرق، إن للقيامة أحوالاً وأهوالاً، وفظائع وزلازل، فإذا تشققت السموات، وتناثرت النجوم، وذهب ضوء الشمس والقمر، وذهلت الأمهات عن الأولاد، وقذفت الحوامل ما في البطون، وسجرت البحار، ودكدكت الجبال، ولم يلتفت والد إلى ولد، ولا ولد إلى والد، وجيء بالجنة تلوح فيها قباب الدر والياقوت حتى تنصب على يمين العرش، ثم جيئ بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام من حديد، ممسك بكل زمام سبعون ألف ملك، لها عينان زرقاوان، تجر الشفة السفلى أربعين عامًا، تخطر كما يخطر الفحل، لو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر، ثم يؤتى بها حتى تنصب على يسار العرش فتستأذن ربها في السجود فيأذن لها، فتحمده بمحامد لم يسمع الخلائق بمثلها، تقول: لك الحمد إلهي إذ جعلتني أنتقم من أعدائك، ولم تجعل لي شيئًا مما خلقت تنتقم به مني، إلى أهلي، فلَهِيَ أعرف بأهلها من الطير بالحب على وجه الأرض، حتى إذا كانت من الموقف على مسيرة مائة عام، وهو قول الله تعالى: إِذَا﴿ رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ ﴾بَعِيدٍ[6] زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولا صديق منتخب، ولا شهيد مما هنالك إلا خر جاثيًا على ركبتيه، ثم تزفر الثانية زفرة فلا يبقى قطرة من الدموع إلا بدرت، فلو كان لكل آدمي يومئذ عمل اثنين وسبعين نبيًا لظن أنه سيواقعها، ثم تزفر الثالثة زفرة فتنقطع القلوب من أماكنها فتصير

---

(١) سورة المائدة. الآية: (١٠٩).
(٢) سورة القصص، الآية: (٧٥).
(٣) سورة الزمر.
(٤) سورة ق، الآية: (٢٨).
(٥) سورة يس، الآية: (٦٥).
(٦) سورة الفرقان، الآية: (١٢).

بين اللهوات والحناجر، ويعلو سواد العيون بياضها، ينادي كل آدمي يومئذ: يا رب نفسي نفسي، لا أسألك غيرها. ونبيكم ﷺ يقول: **((يا رب أمتي أمتي))** لا همة له غيركم. فعند ذلك يدعى بالأنبياء والرسل، فيقال لهم: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾[1] طاشت الأحلام، وذهلت العقول، فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَـٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾[2].

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ۝٣١﴾[3] فيؤخذ للمظلوم من الظالم، وللمملوك من المالك، وللضعيف من الشديد، وللجماء من القرناء، حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه، فإذا أدى إلى كل ذي حقه حقه أمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وأهل النار اختصموا فقالوا: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾[4] ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾[5]. فيقول الله تعالى: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨﴾[6]. إنما الخصومة بالموقف، وقد وقد قضيت بينكم بالموقف فلا تختصموا لدي.

وأما قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾[7] فهذا يوم القيامة حيث يرى الكفار ما يعطي الله أهل التوحيد من الفضائل والخير، يقولون: تعالوا حتى نحلف بالله ما كنا مشركين، فتتكلم الأيدي بخلاف ما قالت الألسن، وتشهد الأرجل تصديقًا للأيدي، ثم يأذن الله للأفواه فتنطق ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾[8])[9].

وضعف هذا القول الرازي فقال: (وهذا الجواب وإن ذهب إليه جمع عظيم من

---

(١) سورة المائدة، الآية: (١٠٩).
(٢) سورة القصص، الآية: (٧٥).
(٣) سورة الزمر.
(٤) سورة الأعراف، الآية: (٣٨).
(٥) سورة ص.
(٦) سورة ق.
(٧) سورة يس، الآية: (٦٥).
(٨) سورة فصلت، الآية: (٢١).
(٩) الدر المنثور، للسيوطي (٢٢٧/٣). وتاريخ بغداد، للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت (٣٠٢/١٢).

الأكابر فهو عندي ضعيف؛ لأنه تعالى قال في صفة أهل الثواب: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1] وقال أيضًا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾[2] بل بل إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾[3].

فكيف يكون حال الأنبياء والرسل أقل من ذلك؟ ومعلوم أنهم لو خافوا لكانوا أقل منزلة من هؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يخافون البتة)[4].

القول الثاني. أنهم قالوا: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا.

وهو قول مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد، واختيار ابن جرير الطبري، واستحسنه ابن كثير، وغيره[5].

وقد استدلوا على ذلك بما يلي:

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، عند تفسير قوله تعالى: ۞﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ﴾[6] إلا علم أنت أعلم به منا)[7].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾[8].

قال ابن جرير عند تفسير هذه الآيات: (أي أنك لا يخفى عليك ما عندنا من علم ذلك ولا غيره، من خفي العلوم وجليها، فإنما نفى القوم أن يكون لهم بما سؤلوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو ـ تعالى ذكره ـ، لا أنهم نفوا أن يكونوا علموا ما شاهدوا، كيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، وهو تعالى يخبر عنهم أنهم يخبرون بما أجابتهم به الأمم،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٣).
(٢) سورة عبس.
(٣) سورة البقرة.
(٤) مفاتيح الغيب (١٣٠/١٢).
(٥) انظر:جامع البيان لابن جرير الطبري(١٢٥/٧، ١٢٦).وتفسير القرآن العظيم،لابن كثير (٢٢٢/٣). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٩٦/٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٣٠/١٢).
(٦) سورة المائدة، الآية: (١٠٩).
(٧) جامع البيان (١٢٦/٧).
(٨) سورة المائدة.

على تبليغ الرسالة شهداء. فقال ـ تعالى ذكره ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[1] فالله تعالى أخبر أن الرسول سيكون عليهم شهيدًا)[2].

وقد حكى هذا القول جمع من العلماء كأبي المظفر السمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، وغيرهم[3].

القول الثالث ـ أن معنى قوله: ﴿ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ ﴾ أي: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا؟

وهو قول ابن جريج[4].

وقد استدل على ذلك بما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩ ﴾[5] أي: لا نعلم إلا جوابهم لنا وقت وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا، وبماذا ختموا أنت ﴿ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩ ﴾ تعلم بما ختموا، وما في بواطنهم[6].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ ﴾[7].

٣ ـ ما رواه البخاري بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: **((ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم، اختلجوا دوني، فأقول أصحابي! فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك))**[8].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٢٥/٧).
(٣) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٧٢٩/١). ومعاني القرآن، للزجاج (٢١٨/٢).وتفسير أبي المظفر السمعاني (٧٧/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٦/٢). والكشاف، للزمخشري (٦٥٥/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٦١/٦). والدر المنثور، للسيوطي (٢٢٧/٣). ودفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب، للشنقيطي (ص١١٥).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٢٦/٧).
(٥) سورة المائدة.
(٦) انظر : مفاتيح الغيب ، للرازي (١٣١/١٢) .
(٧) سورة المائدة.
(٨) الصحيح ، كتاب الرقاق، باب الحوض. ح/ ٦٥٨٢ ص(١١٣٩). وروى مسلم في صحيحه نحوه،

وضعف هذا القول ابن جرير الطبري، وابن الجوزي[1]، والشنقيطي[2].

قال ابن جرير الطبري: (وأما الذي قاله ابن جريج: من أن معناه: ماذا عملت الأمم بعدكم؟ وماذا أحدثوا؟ فتأويل لا معنى له؛ لأن الأنبياء لم يكن عندهم من العلم بما يحدث بعدها إلا ما أعلمها الله من ذلك. وإذا سئلت عما عملت الأمم بعدها والأمر كذلك، فإنما يقال لها: ماذا عرفناك أنه كائن منهم بعدك. وظاهر خبر الله ـ تعالى ذكره ـ عن مسألته إياهم يدل على غير ذلك)[3].

وذكر هذا القول جمع من العلماء كالسمعاني، والبغوي، والرازي، وغيرهم[4].

القول الرابع. أن المراد منه المبالغة في تحقيق فضيحتهم وتوبيخهم.

وهو اختيار بعض أهل العلم كالزجاج، والزمخشري، وأبي السعود، وغيرهم[5].

وقالوا: (هو كمن يقول لغيره ما تقول في فلان؟ فيقول أنت أعلم به مني، كأنه قيل: لا يحتاج فيه إلى الشهادة لظهوره، وقاسوه على الموؤدة إذا سئلت) [6].

وذكره القرطبي[7]،والقاسمي[8].

وقد ضعف هذا القول الرازي فقال: (وهذا أيضًا ليس بقوي؛ لأن السؤال إنما وقع عن كل الأمة، وكل الأمة ما كانوا كافرين حتى تريد الرسل بالنفي تبكيتهم وفضيحتهم) [9].

القول الخامس. أنهم قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ ۖ﴾ لما رأوا أن من الأدب السكوت، وإحالة الأمر إلى العليم الحكيم.

وهو قول القاسمي، وحكاه الرازي وابن الجوزي[10].

كتاب الفضائل، باب: إثبات فضائل النبي ﷺ وصفاته ح/٢٣٠٤ ص(١٠١٨).

(١) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٧/٢).

(٢) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص ١١٥).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٣٠/١٢).

(٤) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٩٦/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٧٢٩/١). وتفسير أبو المظفر السمعاني (٧٧/٢). والكشاف، للزمخشري (٦٥٢/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٦١/٦).

(٥) انظر: معاني القرآن، للزجاج (٢١٨/٢). والكشاف، للزمخشري (٦٥٢/١). وتفسير أبي السعود (٩٣/٣).

(٦) مفاتيح الغيب، للرازي (١٣٠/١٢).

(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (٣٦١/٦).

(٨) انظر: محاسن التأويل، (٤٢٣/٦).

(٩) مفاتيح الغيب (١٣٠/١٢).

(١٠) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٤٢٣/٦). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٣٠/١٢).وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٧/٢).

القول السادس. أن الأنبياء قالوا: (لا علم لنا البتة بأحوالهم، وإنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن، والظن كان معتبرًا في الدنيا، وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن؛ لأن الأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأشياء، وبواطن الأمور، فلهذا السبب قالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾، ولم يذكروا البتة ما معهم من الظن؛ لأن الظن لا عبرة به في القيامة)[1].

وهو اختيار الغزنوي[2]، وذكره الزجاج، والرازي، والقرطبي، وغيرهم[3].

القول السابع. أن قولهم: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ يراد به: لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا.

ذكره أبو المظفر السمعاني[4]، والخازن[5].

القول الثامن. أن قولهم: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ أي: لا علم لنا كعلمك.

وهو اختيار ابن الأنباري[6]. وذكره الخازن ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما[7].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، وأدلتها. يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الثاني. وهو أن المراد من قوله تعالى: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ **أي: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا** وذلك لما يلي:

٧- أنه قول لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول الصحابي مقدم على غيره.
٨- دخول كثير من الأقوال المذكورة فيه.
٩- قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (١٢٦/١٢).
(٢) انظر: باهر البرهان (٤٤٧/١).
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٢٦/١٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٦١/٦). ومعاني القرآن، للزجاج (٢١٨/٢).
(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٧٧/٢).
(٥) انظر: تفسير الخازن (٩٠/٢).
(٦) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٣/٢).
(٧) انظر: تفسير الخازن (٨٩/٢).

المبحث الثالث

آيات في نصرة الأنبياء

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[1]. **وقوله تعالى:** ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾[2]، **وقوله تعالى:** ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾[4].

مع قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾[5]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾[6]، **وقوله تعالى:** ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾[7]. ونحوها من الآيات.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تبين الآيات الأولى: أن الرسل منصورون في الدنيا والآخرة، وأنهم هم الغالبون، بينما تدل الآيات الأخرى على أن بعض الرسل قتلوا وكذبوا. وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ ما يزيل هذا التوهم.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: (٢١).
(٢) سورة الصافات.
(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: (١٣، ١٤).
(٤) سورة غافر.
(٥) سورة البقرة.
(٦) سورة آل عمران.
(٧) سورة المائدة.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات؛ وذلك على النحو التالي:

القول الأول. أن النصر يكون بالغلبة والقهر.

وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[1].

القول الثاني. أن النصر يكون في الدنيا بالحجة، وفي الآخرة بالعذر.

وهو قول بعض أهل العلم كالضحاك وأبي العالية[2].

القول الثالث. أن النصر يكون بالانتقام من أعدائهم في الدنيا والآخرة.

وهو قول السدي[3]، وذكره بعض أهل العلم كالسمعاني، والقرطبي، والسيوطي[4].

والسيوطي[4].

القول الرابع. أن النصر يكون بجميع الأمور الثلاثة، وذلك بحسب حال كل نبي ومؤمن.

وهو قول الكثير من أهل العلم كالزجاج، والبغوي، والسمعاني، وغيرهم[5].

قال ابن جرير الطبري: (يقول القائل: وما معنى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه، ومثلوا به، كأشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما، ومنهم من هَمَّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيًا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقًا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله، والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت،

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٤٧/٤).

(٢) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٤٧/٤). وتفسير أبي المظفر السمعاني (٢٥/٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٢٢/١٥). والدر المنثور، للسيوطي (٢٩٢/٧).

(٣) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٤٧/٤).

(٤) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (٢٥/٥). والجامع لأحكام القرآن. للقرطبي (٣٢٢/١٥). والدر المنثور، للسيوطي (٢٩٢/٧).

(٥) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٤٧/٤). ومعاني القرآن، للزجاج (١٤١/٥). وتفسير أبي المظفر السمعاني (٢٥/٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٠٦/١٧). والكشاف، للزمخشري (٤٣١/٣). وتفسير أبي السعود (٢٨٠/٨ ـ ٢٢٣/٨). وأضواء البيان، للشنقيطي (٨٢٣/٧ ـ ٨٢٤). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٢٤). وتفسير ابن جرير الطبري (٦٩/٢٤). وتفسير ابن كثير (١٥٠/٧، ١٥١).

وما نصروا على من نالهم بما نالهم به؟ قيل: إن لقوله: إِنَّا﴿ لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ﴾ٱلدُّنۡيَا وجهين كلاهما صحيح معناه.

أحدهما - أن يكون معناه: إِنَّا﴿ لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ﴾ٱلدُّنۡيَا إما بإعلائنا لهم على من كذبنا، وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذبه من قومه.

وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذبهم وعاداهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقًا، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك.

أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا إشعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قتلته من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له، وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم فهذا أحد وجهيه. وقد كان بعض أهل التأويل يوجه معنى ذلك إلى هذا الوجه)(١).

قال البغوي: (وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر على من ناوأهم، وإهلاك أعدائهم، ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قتل، قتل به سبعون ألفًا، فهم منصورون بأحد هذه الوجوه)(٢).

وقال الزجاج: (ومعنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث بالحرب، فغالب بالحرب، ومن بعث منهم بغير حرب فهو غالب بالحجة)(٣).

وقال الشنقيطي: (والذي يظهر من هذا أن الرسل قسمان: قسم أمروا بالقتال في سبيل الله، وقسم أمروا بالصبر والكف عن الناس، فالذين أمروا بالقتال وعدهم الله بالنصر والغلبة في الآيات المذكورة، والذين أمروا بالكف والصبر هم الذين قتلوا ليزيد الله رفع درجاتهم العلية بقتلهم مظلومين، وهذا الجمع مفهوم من الآيات لأن النصر والغلبة فيه الدلالة بالالتزام على جهاد ومقاتلة)(٤).

وقال في موضع آخر: (وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٦٩/٢٤).
(٢) معالم التنزيل (٤٧/٤).
(٣) معاني القرآن (١٤١/٥).
(٤) دفع إيهام الاضطراب ، (ص٢٤).

تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ ليسوا مقتولين في جهاد) [1].

القول الخامس. أن المراد بالرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ النبي محمد ﷺ وهو من باب إطلاق الخبر على الجميع والمراد به واحد.

وذكر ابن جرير هذا بقوله : (**والوجه الآخر -** أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد. فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمد ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد كما بينا فيما مضى أن العرب تخرج الخبر بلفظ الجميع، والمراد واحد إذا لم تنصب للخبر شخصًا بعينه) [2]. ولم يعزه لأحد.

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، وأدلتها. يظهر أن الراجح - والله أعلم - هو القول الرابع، وهو أن النصر يكون بالغلبة والقهر، أو الحجة في الدنيا ، أو الانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وذلك بحسب حال كل نبي. وذلك لما يلي:

١- قوة أدلة أصحاب هذا القول وحجتهم، وسلامتها من المعارض.

٢- أن فيه جمعًا بين الآيات.

٣- أنه قول كثير من أهل العلم.

* * *

المبحث الرابع

الآيات النافية علم الأنبياء بالغيب

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

(١) أضواء البيان ، (٨٢٤/٧).

(٢) جامع البيان، (٦٩/٢٤).

قول الله تعالى: قُل﴿ لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ﴾ٱلۡغَيۡبَ[1].

وقوله تعالى: ۞﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾[2]. **وقوله تعالى:** وَلَآ﴿ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ﴾ٱلۡغَيۡبَ[3]. ونحوها من الآيات التي تدل على أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

مع قوله تعالى: وَقَالَ﴿ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴾٢٧[4].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيات الأولى إلى أنه لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى، بينما يشير ظاهر آيات سورة نوح إلى أن نوحًا عليه الصلاة والسلام ذكر في دعائه على قومه أنهم لن يلدوا في المستقبل إلا أبناء كفارًا، وعلم المستقبل من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين تلك الآيات:

سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات وذلك على قولين:

القول الأول ـ أن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يدع عليهم بالهلاك إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وهذا ما صرح به كثير من العلماء كقتادة، ومقاتل، والربيع بن أنس وغيرهم[5].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٥٠).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٥٩).

(٣) سورة هود، الآية: (٣١).

(٤) سورة نوح.

(٥) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠١/٢٩). وتفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (٤٢/٥). وتفسير القرآن، للسمعاني (٦٠/٦). اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٤٠١/١٩). وأحكام القرآن، لابن العربي (١٨٦٠/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (١٠٢/٨). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٤٦/٣٠). وتفسير ابن جرير الطبري (١٠١/٢٩). والكشاف، للزمخشري (١٦٥/٤). المحرر الوجيز، لابن عطية (١٢٥/١٥). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٢/١٨). فتح القدير، للشوكاني (٣٠١/٥). أضواء البيان، للشنقيطي (٥٣٤/٨). روح المعاني، للألوسي (٨٠/٢٩). نظم الدرر، للبقاعي (٤٥٨/٢٠).

قال قتادة ـ فيما ذكره ابن جرير ـ : (في قوله: رَّبِّ﴿ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1] أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء: أَنَّهُۥ﴿ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ﴾ءَامَنَ[2] فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح فقال: وَقَالَ﴿ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴾[3] ثم دعا دعوة عامة فقال: رَّبِّ﴿ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ[4])[5].

القول الثاني: أنه دعا عليهم بهذا الدعاء بعد أن أيس منهم، وذلك لخبرته بهم ومكثه الطويل بين أظهرهم، وهو قول جمع من العلماء كالرازي، وابن كثير، والقاسمي، وغيرهم[6].

قال ابن كثير: (وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا)[7].

الترجيح :

وبعد النظر في القولين السابقين يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول ، أي أن نوحا ـ عليه السلام ـ دعا على قومه بهذا الدعاء بعد أن أوحى الله إليه .وذلك لما يلي :

١ـ لقوة أدلته ،وسلامتها من المعارض .

٢ـ أنه الأليق بنوح – عليه السلام – لأنه من أولي العزم من الرسل .

*   *   *

---

(١) سورة نوح.
(٢) سورة هود، الآية: (٣٦).
(٣) سورة نوح.
(٤) سورة نوح ، الآية : (٢٨) .
(٥) جامع البيان، (٢٩/ ١٠١).
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٤٦/٣٠). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٣٧/٨). واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٤٠١/١٩). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٦٠/٦). والكشاف، للزمخشري (١٦٥/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٢٥/١٥). وتفسير أبو السعود (٤١/٨). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٣٠٠/١٦).وأضواء البيان، للشنقيطي (٢٧٤/٨).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٢٣٧/٨).

المبحث الخامس

آيات في كون الأنبياء من أهل القرى

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾[1]. **مع قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تشير الآية الأولى إلى أن يعقوب وأبناءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاءوا من البادية، بينما يشير ظاهر الآية الثانية إلى أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه لم يرسل رسولاً إلا من أهل القرى. وهذا يتوهم منه تعارضًا بين الآيتين، وسأورد ـ بمشيئة الله تعالى ـ من أقوال العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ يعني: أهل المدن والأمصار، دون أهل البوادي. وأن المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ موضع يقال له: بدا.

وقد نسبه الرازي، والألوسي إلى ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وقال القرطبي: "ذكره

(١) سورة يوسف، الآية: (١٠٠).

(٢) سورة يوسف، الآية: (١٠٩).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٩/١٨). وروح المعاني، للألوسي (٦٠/١٣).

القشيري، وحكاه الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما"[1]. وذكره ابن عادل الحنبلي[2].

وقد احتجوا وعللوا ذلك بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: وَمَآ﴿ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾[3]. فظاهر هذه الآية دال على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يبعث رسله رسله إلا من أهل المدن دون أهل البوادي.

٢ ـ قول الرازي: (قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها)[4].

٣ ـ قول الحسن ـ فيما ذكر ابن عادل الحنبلي ـ : (لم يبعث الله نبيًا من أهل البادية ولا من الجن ولا من الملائكة)[5].

٤ ـ تعليلهم هذا القول: بأن أهل القرى أعلم وأحلم من أهل البادية[6].

٥ ـ قول ابن الأنباري: بدا اسم موضع معروف. يقال: هو بين شعب، وبدا. [7] وهما موضعان ذكرهما جميعًا كُثَيِّر فقال:

وأنتِ التي حَبّبْتِ شَعْبًا إلى بَدًا   إليّ وأوطاني بلادٌ سواهما[8][9].

قال الرازي: (وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين؛ لأن البدو لم يرد به البادية لكن عني به قصد بدا)[10].

وقد ضعف هذا القول الشوكاني. وقال: (فيه نظر)[11] وكذا الألوسي[12].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٢١٧/٩).
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، (٢١٦/١١).
(٣) سورة يوسف، الآية: (١٠٩).
(٤) مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٩/١٨). وانظر: اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٢١٦/١١). (٢١٦/١١).
(٥) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٢١٦/١١).
(٦) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٨٠/١٣).
(٧) وقيل : (شغبى) بالمعجمة ، قيل : هما موضعان بين المدينة وأيلة . (معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٥١/٣) .
(٨) ديوان كثير عزة (٢٠٤/١). وقيل: البيت لجميل بثينة. انظر: ديوانه (١٠٩/١).بلفظ : (شغبى) .
(٩) انظر : مفاتيح الغيب ، للرازي (٢١٩/١٨) .
(١٠) مفاتيح الغيب، (٢١٩/١٨).
(١١) فتح القدير، (٥٦/٣).
(١٢) انظر: روح المعاني، للألوسي (٦٠/١٣).

وقال الشنقيطي: (ولا يخفى بعد هذا القول كما نبه عليه الألوسي في تفسيره)[١].

وقال الدكتور شيخنا الدكتور أحمد بن ناصر الحمد: (ولا أرى أن لهذا التعليل وجهًا؛ لأن من يختارهم الله تعالى لنبوته ليسوا بمكتسبين لشيء من صفاتها، ولا وراثين لشيء من خصائصها فأهلها أعدهم الله تعالى لها، وهيأهم لتحملها والقيام بأعبائها من غير كسب منهم، بمحض فضله يصطفيهم) ثم قال: (وأقول: إن الجواب الأول ـ يعني: أن المقصود بالبدو في الآية اسم الموضع المعروف "بدا" ـ لا يدل على المراد، فدلالته على كونهم بادية أقرب؛ لأن "بدا" ليست مدينة إنما هي: وادٍ من الأودية؛ قرب أيلة من ساحل البحر، وقيل: بواد القرى، وقيل: بوادي عذرة؛ قرب الشام. كما ذكر ذلك ياقوت، وأنشد لبعضهم:

وأنت التي حَبّبْتِ شغبًا إلى بدا ... إليّ وأوطاني بلاد سواهما
حَلَلْتِ بهذا حَلّة ثم حَلّة ... بهذا فطاب الواديان كلاهما[٢].

ثم قال: وقال جميل العذري:

ألا قد أرى إلا بثينة ترتجي ... بوادي بدا فلا بجسمي ولا شغب
ولا ببراق قد تيممت فاعترف ... لما أنت لاق أو تنكب عن الركب[٣]

فإن تلك الشواهد دالة على أن "بدا" ليست مدينة، وعليه فلا يستقيم لهم ذلك الوجه، بل هو مؤيد لما نفوه من كون يعقوب وأبنائه؛ أهل بادية)[٤].

القول الثاني. أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود[٥]، بل هو بتقر وفي منازل وربوع.

وهو قول ابن عطية[٦]، والبغوي[٧].

القول الثالث. أن الآية على ظاهرها، لكن يعقوب عليه الصلاة والسلام لم يتحول إلى البادية إلا بعد النبوة.

وقد ذكر هذا القول القرطبي[٨] والألوسي[١].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص ١٦٢).
(٢) انظر: ديوان كثير عزة (٢٠٤/١). وديوان جميل بثينة (٦/١).
(٣) انظر: ديوان جميل بثينة (٦/١). وهذا نص البيت الذي نقله ياقوت الحموي، وفي الديوان:
ألا أرى إلا بثينة للقلب ... بوادي بديٍّ لا بجسمي ولا شعب
(٤) النبي والرسول، للدكتورأحمد بن ناصر الحمد، ط الأولى ١٤١٤هـ. مكتبة القدس، الزلفي، (ص٣٩).
(٥) قوله :(أهل عمود) يعني: أهل البادية ؛ والعمود هو الخشبة القائمة وسط الخباء ، والأخبية بيوت أهل البادية.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، (٩٧/٨).
(٧) انظر: معالم التنزيل، (٥٠٠/٤).
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (٢١٧/٩).

وقد ضعف هذا القول، شيخناالدكتور: أحمد الحمد. فقال: (هو دعوى يعوزها الدليل، وعلى فرض صحتها، تكون دليلاً على الجواز إذ لا يصح للنبي أن يتحول إلى موضع لا يليق به، ولا يصح أن يبعث منه)[٢].

القول الرابع . أن المراد بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[٣] أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكثير من العلماء كابن جريج، وابن كثير، وغيرهم[٤].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[٥]. أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم)[٦].

٢ ـ قول ابن كثير: (وهذا القول من ابن عبـاس ـ رضي الله عنهما ـ يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾[٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدًا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩﴾[٨]. وقوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٩])[١٠].

---

(١) انظر: روح المعاني، (٦٠/١٣).
(٢) النبي والرسول (ص٤٢).
(٣) سورة يوسف، الآية: (١٠٩).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٠٩/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٧٤/٩).والدر المنثور، للسيوطي (٥٩٥/٤). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٩/١٨).
(٥) سورة يوسف، الآية: (١٠٩).
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٢١٠/٧).
(٧) سورة الفرقان، الآية: (٢٠).
(٨) سورة الأنبياء.
(٩) سورة الأحقاف، الآية: (٩).
(١٠) تفسير القرآن العظيم، (٤٢٣/٤).

٣ ـ قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[1] فهذه الآية دليل على أن نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام كان في البادية، ويروى أنه كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواشي وبرية[2] وهو قول أكثر المفسرين[3].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأخير، أي أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ أي أهل الأرض؛ وذلك لما يلي:

١٠- قوة أدلة أصحاب هذا القول وسلامتها من المعارض.

١١- أنه قول لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول الصحابي مقدم على غيره.

١٢- دلالة الآيات الأخرى عليه.

١٣- أنه قول كثير من المفسرين.

* * *

---

(١) سورة يوسف، الآية: (١٠٠).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٧١/١٣).

(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٧١/١٣). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤١٢/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٦٧/٩).

المبحث السادس

آيات في أن كل أمة لا تخلو من نذير

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾[1] **وقال تعالى:** ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾[2] **مع قوله تعالى:** ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[4].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيتان الأوليان إلى أن لكل قوم هاديًا ونذيرا، بينما تشير الآيتين الأخيرتين إلى أن بعض الأقوام لم يكن لهم نذير ولا هاد بالمعنى العام الذي هو هداية الدلالة والإرشاد.

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأبين بمشيئة الله من أقوال العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء مسلك الجمع بين الآيات عند تفسيرهم هذه الآيات، ويظهر ذلك من خلال بيان أقوالهم في المسألتين التاليتين:

---

(١) سورة الرعد.
(٢) سورة فاطر.
(٣) سورة يس، الآية: (٦).
(٤) سورة المائدة، الآية: (١٩).

الأولى ـ أقوال العلماء في معنى هَادٍ﴿ ﴾ في الآية الأولى:

الثانية ـ أقوال العلماء في معنى مَّآ﴿ أُنذِرَ ﴾ءَابَآؤُهُمْ[1] في الآية الثانية.

بيان المسألة الأولى:

اختلف العلماء في تفسير معنى قوله تعالى: وَلِكُلِّ﴿ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[2] على أقوال هي:

١ ـ أن المنذر هو محمد ﷺ، والهادي هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وهو قول سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وابن عباس[3] وعكرمة والنخعي[4].

قال القاسمي: (أو المعنى: لكل قوم هاد عظيم الشأن، قادر على هدايتهم. هو الله سبحانه، فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم، وابتداؤهم الإيمان وصدهم عن الجحود، فإن ذلك لله وحده، كقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[5])[6].

وقال الشنقيطي: (وتحرير المعنى على هذا القول: أنت يا محمد منذر، وأنا هاد، كل قوم سبقت لهم السعادة والهدى في علمي؛ لدلالة آيات كثيرة على أنه تعالى هدى قومًا وأضل آخرين، على وفق ما سبق به علمه الأزلي كقوله تعالى: إن﴿ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾[7])[8].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

أ ـ الآيات الدالة على أن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[9]. وكقوله تعالى: إن﴿

---

(١) سورة يس، الآية: (٦).
(٢) سورة الرعد.
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠٧/١٣).
(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٢٨/٤).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).
(٦) محاسن التأويل، (٣٣٢/٩).
(٧) سورة النحل، الآية: (٣٧).
(٨) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص١٦٤ ـ ١٦٥).
(٩) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).

تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[1].

ب ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (قوله: إِنَّمَآ﴿ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ يقول: أنت يا محمد منذر، وأنا هاد كل قوم)[2].

٢ ـ أن الهادي في هذا الموضع: نبي.

وهو قول جمهور المفسرين كمجاهد وقتادة والحسن وغيرهم[3].

قال أبو المظفر السمعاني: (فيه أقوال، الأكثرون أن معناه: ولكل قوم نبي يدعوهم إلى الله)[4].

وقال القاسمي عند تفسيره قوله تعالى: وَلِكُلِّ﴿ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[5]: (أي: نبي داع إلى الحق، مرشد بالآية التي تناسب زمنه. كقوله تعالى: وَإِن﴿ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[6] تعريض بأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس بدعًا من الرسل، فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله ـ عليهم السلام ـ)[7].

وقال الشنقيطي: (وأقرب الأوجه المذكورة عندنا، هو ما يدل عليه القرآن العظيم وهو أن معنى الآية:وَلِكُلِّ﴿ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[8]،أي لكل أمة نبي،فلست يا نبي الله بدعًا من الرسل)[9].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يأتي:

---

(١) سورة النحل، الآية: (٣٧).
(٢) جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠٧/١٣).
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠٧/١٣ ـ ١٠٨). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٢٨/٤). ومعاني القرآن، للزجاج (١٤٠/٣). ومعالم التنزيل، للبغوي (٥١٢/٢). والكشاف، للزمخشري (٣٥٠/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٨٥/٩). وتفسير أبي السعود (٧/٥). وفتح القدير، للشوكاني (٦٨/٣). وروح المعاني، للألوسي (١٠٧/١٣). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٣٣٢/٩). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٦٧).
(٤) تفسير القرآن، (٧٩/٣).
(٥) سورة الرعد.
(٦) سورة فاطر.
(٧) محاسن التأويل، (٣٣٢/٩).
(٨) سورة الرعد.
(٩) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص١٦٧).

أ ـ قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1].

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

جـ ـ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[3].

قال الشنقيطي: (وكثيرًا ما يطلق في القرآن اسم القوم على الأمة. كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[4]. وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾[5].وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾[6]. ونحو ذلك.

وعلى هذا القول فالمراد بالقوم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾[7] أعم من مطلق ما يصدق عليه اسم القوم لغة، ومما يوضح ذلك حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه في السنن والمسانيد: **((أنتم توفون سبعين أمة))**[8] الحديث.

ومعلوم أن ما يطلق عليه اسم القوم لغة أكثر من سبعين بأضعاف، وحاصل هذا الوجه أن الآية كقوله:﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[9].وقوله:﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[10]. وهذا لا إشكال فيه لحصر الأمم في سبعين، كما بين في الحديث، فآباء القوم الذين لم ينذروا مثلاً المذكورون في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾[11]

(١) سورة فاطر.
(٢) سورة النحل، الآية: (٣٦).
(٣) سورة يونس، الآية: (٤٧).
(٤) سورة الأعراف، الآية: (٥٩).
(٥) سورة هود، الآية: (٥٠).
(٦) سورة هود، الآية: (٦١).
(٧) سورة الرعد.
(٨) رواه أحمد في مسنده ح/٢٠٠٢٩ (٤٤٧/٤) وح/٣٣ (٣/٥). ، والحاكم في مستدركه ح/٦٩٨٨ (٩٤/٤) وصححه الذهبي . وحسنه شعيب الأرنؤوط
(٩) سورة فاطر.
(١٠) سورة يونس، الآية: (٤٧).
(١١) سورة يس، الآية: (٦).

ليسوا أمة مستقلة، حتى يرد الإشكال في عدم إنذارهم مع قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1]. بل هم بعض أمة، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[2] لا يشكل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾[3]؛ لأن المعنى: أرسلنا إلى جميع القرى، بل إلى الأسود والأحمر رسولاً واحدًا، ولكن لم نفعل ذلك ليكون الإرسال إلى الناس كلهم فيه الإظهار لفضله ﷺ على غيره من الرسل؛ بإعطائه ما لم يعطه أحد قبله من الرسل ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ.

كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من أن عموم رسالته إلى الأسود والأحمر، مما خصه الله به دون غيره[4])[5].

٣ ـ أن الهادي في هذا الموضع هو: الداعي.

وهو مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول جمع من العلماء كالكلبي وقتادة وغيرهم[6].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال: داع[7].

٤ ـ أن الهادي في هذا الموضع هو: القائد.

وهو قول جماعة من العلماء كأبي صالح، وأبي العالية وغيرهم[8].

قال أبو العالية ـ فيما ذكر ابن جرير ـ : (الهادي: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل)[9].

٥ ـ أن الهادي في هذا الموضع هو: الرسول محمد ﷺ .

---

(١) سورة فاطر.
(٢) سورة فاطر.
(٣) سورة الفرقان.
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ح/١٤٣٠٣ (٣٠٤/٣)، الشيخين. والدارمي في سننه ح/٢٤٦٧ (٢٩٥/٢)، وابن حبان في صحيحه ح/٦١٦٠ (٢٩/١٤). وأبو داود الطيالسي ح/٤٧٢ (٦٤/١). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط
(٥) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص١٦٥، ١٦٦).
(٦) انظر: جامع البيان عن، لابن جرير الطبري (١٠٨/١٣). ومعالم التنزيل، للبغوي (٥١٢/٢). وتفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (٣٤٦/٢). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٣٤/٤). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٤/١٩).
(٧) جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠٨/١٣).
(٨) انظر:جامع البيان، لابن جرير الطبري(١٠٨/١٣).
(٩) جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠٨/١٣).

وبهذا قال جماعة من العلماء كقتادة، وأبي الضحى، وعكرمة، وغيرهم[1].

قال ابن عطية: (و ﴿هَادٍ﴾ عطف على ﴿مُنذِرٌ﴾ كأنه قال: إنما أنت مذر وهاد لكل قوم، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام : **((بعثت إلى الأحمر والأسود))**[2][3].

بيان المسألة الثانية: (معنى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾[4]):

لقد اختلف العلماء في معنى "ما" في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

١ ـ إن "ما" في هذه الآية منفية:

ويكون المعنى حينئذ أن آباءهم الأقربين لا الأبعدين لم ينذروا، وبسبب هذا فهم غافلون. وهذا قول جمهور المفسرين[5].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

---

(١) أنظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٠٨/١٣). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٢٦/٨).

(٢) انظر تخريجه: (ص ٩٢).

(٣) المحرر الوجيز، لابن عطية (١٢٦/٨).

(٤) سورة يس.

(٥) انظر: المحرر الوجيز،لابن عطية (٢٧٣/١٢).وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٢/٦). ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٧٨/٤). ومعالم التنزيل للبغوي (٦٣٢/٣). والكشاف، للزمخشري (٣١٤/٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٦/١٥). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٦٣/٦). وتفسير أبي السعود (١٥٩/٧). ومحاسن التأويل للقاسمي (٦٠/١٤). وأضواء البيان، للشنقيطي (٦٤٩/٦).

أ ـ أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾[1].

قال ابن عطية: (وقال قتادة "ما" نافية، أي: أن آباءهم لم ينذروا، فالآباء ـ على هذا ـ هم القريبون منهم، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾. وهذه النذارة المنفية هي نذارة المباشرة والأمر والنهي، وإلا فدعوة الله لم تنقطع من الأرض قط، وقوله ﴿فَهُمۡ﴾ ـ على هذا ـ الفاء واصلة بين الجملتين، ورابطة الثانية بالأولى) [2].

وقال الزجاج: (ودليل النفي قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾[3]ولو كان آباؤهم منذرين لكانوا منذرين دارسين لكتب ـ والله أعلم ـ)[4].

ب ـ أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾[5].

جـ ـ أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾[6] تدل على ذلك. قال الشنقيطي: (وأن مما يدل على ذلك ترتيبه بالفاء عليه قوله بعده: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ لأن كونهم غافلين يناسب عدم الإنذار لا الإنذار)[7].

د ـ أن العرب وقريشا لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ.

قال البغوي:(قيل:"ما" للنفي،أي:لم ينذر آباؤهم؛لأن قريشًا لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ)[8]

وقال ابن كثير: (يعني بهم العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم) [9].

---

(١) سورة سبأ.
(٢) المحرر الوجيز، (٢٧٣/١٢ ـ ٢٧٤).
(٣) سورة سبأ.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، (٢٧٨/٤).
(٥) سورة السجدة، الآية: (٣).
(٦) سورة يس.
(٧) أضواء البيان، (٦٤٩/٦).
(٨) معالم التنزيل، (٦٣٢/٣).
(٩) تفسير القرآن العظيم، (٥٦٣/٦).

وهذه الآيات على هذا المعنى لا تناقض الآيات الأخرى، التي تدل على أنه ما من أمة إلا ولها نذير كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[١].

قال ابن عطية: (وهذه النذارة المنفية هي نذارة المباشرة والأمر والنهي، وإلا فدعوة الله لم تنقطع من الأرض قط)[٢].

وقال الزمخشري: (فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين؟ لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟

قلت: لا مناقضة؛ لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وأباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم. فإن قلت: ففي أحد التفسيرين أن آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر فما تصنع به؟ قلت: أريد به أباؤهم الأدنون دون الأباعد)[٣].

وقال الرازي: (كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي ألا يكون أباؤهم منذرين، والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد؟ نقول: على قولنا "ما" نافية. معناه: ما أنذر آباؤهم، وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين، والمتأخرون غير منذرين)[٤].

وقال الشوكاني: (وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى: ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم، ويجوز أن يراد: ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة)[٥].

وقال الشنقيطي: (فآباء القوم الذين لم ينذروا مثلاً المذكورون في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾[٦] ليسوا أمة مستقلة، حتى يرد الإشكال في عدم إنذارهم، مع قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[٧] بل هم بعض أمة)[٨].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ لا تعارض الآيات الأخرى، التي تبين وتدل على عموم رسالته ﷺ إلى الناس جميعًا. كما فيه قوله سبحانه: ﴿قُلۡ

---

(١) سورة فاطر.
(٢) المحرر الوجيز، (١٢/٢٧٤).
(٣) الكشاف، (٣/٣١٤، ٣١٥).
(٤) مفاتيح الغيب، (٢٦/٤٢).
(٥) فتح القدير، (٤/٣٦٠).
(٦) سورة يس، الآية: (٦).
(٧) سورة فاطر.
(٨) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص١٦٦).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ ﴾جَمِيعًا[1].

قال ابن كثير: (وذكرهم وحدهم ـ أي العرب ـ لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد، لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه عند قوله تعالى: قُلۡ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ ﴾جَمِيعًا)[2].

وقال الرازي: (المسألة الثانية: قوله: لِتُنذِرَ ﴿ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ﴾ءَابَآؤُهُمۡ يقتضي ألا يكون النبي ﷺ مأمورًا بإنذار اليهود؛ لأن آباءهم أنذروا، نقول: ليس كذلك، أما على قولنا: "ما" للإثبات لا للنفي فظاهر. وأما على قولنا هي نافية فكذلك، وقد بينا ذلك في قوله تعالى: بَلۡ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن ﴾قَبۡلِكَ [3].

وقلنا: إن المراد: أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم، وبعد إرسال من تقدم؛ فإن الله إذا أرسل رسولاً فما دام في القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الأمر. فإذا لم يبق فيهم من يبين، ويضل الكل، ويتباعد العهد، ويفشو الكفر، يبعث رسولاً آخر مقررًا لدين من كان قبله، أو واضعًا لشرع آخر، فمعنى قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ﴾ءَابَآؤُهُمۡ[4] أي: ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم. واليهود والنصارى دخلوا فيه؛ لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ما ضلوا، فهذا دليل على كون النبي ﷺ مبعوثًا بالحق إلى الخلق كافة)[5].

٢ ـ أن "ما" موصولة بمعنى: الذي.

فيكون المعنى: الشيء الذي أنذره الآباء من النار والعذاب. وبهذا قال جماعة من العلماء كعكرمة ، والغزنوي[6].

قال الغزنوي: (ويجوز بمعنى: ((الذي)). أي: لنخوفهم الذي خوف آباؤهم، وهذا أولى؛ لأن الأرض لا تخلو من حجة تخوف)[7].

٣ ـ أن "ما" مصدرية.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٥٦٣/٦).
(٣) سورة السجدة، الآية: (٣).
(٤) سورة يس، الآية: (٦).
(٥) مفاتيح الغيب، (٤٣/٢٦).
(٦) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٧٣/١٢). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٦٧/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٢/٦). وباهر البرهان في الغزنوي (١١٧٤/٢).
(٧) باهر البرهان، (١١٧٤/٢).

فيكون المعنى: لتنذر قومًا إنذار آبائهم[١]. هو قول مقاتل[٢].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الثاني من المسألة الأولى: أي أن الهادي في الآية: نبي. أي ولكل قوم نبي. والقول الأول من المسألة الثانية: أي أن "ما" في الآية نافية والمراد بالآباء في الآية: الأقربون، لا الأبعدون. وذلك لما يلي:

١. قوة أدلة القولين وسلامتها من المعارض.
٢. أن فيهما جمع بين الآيات، وإعمال لها كلها.
٣. ترجيح جمهور المفسرين لهما.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٧٣/١٢). والكشاف، للزمخشري (٣١٤/٣). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٢/٦). وباهر البرهان، للغزنوي (١١٧٤/٢).

(٢) أنظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٢/٦).

المبحث السابع

آيات في أن وجود الأنبياء مع أممهم مانع من العذاب

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] **مع قوله تعالى:** ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تشير الآية الأولى إلى أن لكفار مكة أمانين من العذاب:
أحدهما ـ وجود النبي ﷺ بين أظهرهم.
والثاني ـ الاستغفار.
بينما تشير الآية الثانية إلى أن الله سبحانه وتعالى سيعذبهم. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء في تفسير هاتين الآيتين مسلكين:
أحدهما: الجمع بين الآيتين.
والثاني: القول بنسخ إحدهما. وتفصيل هذين المسلكين كالتالي:

المسلك الأول ـ الجمع بين الآيتين:

وقد اختلف العلماء في طريقة الجمع على الأقوال التالية:

القول الأول ـ أن المراد بالعذاب في الآيتين هو العذاب الدنيوي.

وقد اختلفوا في توجيه ذلك على أكثر من وجه:

---

(١) سورة الأنفال.
(٢) سورة الأنفال.

الوجه الأول ـ أن هذه الآية نزلت بمكة، والنبي ﷺ بين أظهر المشركين، ثم خرج فاستغفر من بها من المسلمين، ثم خرج بقية المسلمين من بينهم فعذب الكفار.
وهو قول كثير من العلماء واختاره الطبري، و ابن كثير ، ورجحه الشنقيطي[1].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾[3].

٣ ـ ما رواه البخاري بسنده عن عبد الحميد صاحب الزيادي:سمع أنس بن مالك رضي الله عنه: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾[4])[5].

٤ ـ ما رواه الإمام الترمذي في سننه بسنده عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ الآية. فإذا

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٤/٩ ـ ٢٣٥). وتأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص٧١). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٠/٤). وتفسير القاسمي (٤٦/٨). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٣٨).

(٢) سورة التوبة، الآية: (١٤).

(٣) سورة الفتح.

(٤) سورة الأنفال، الآيتين: (٣٣، ٣٤).

(٥) الصحيح ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآية، ح/٤٦٤٨ و٤٦٤٩ (ص ٧٩٧).
ورواه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، باب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ ح/٢٧٩٦ (ص١٢١٨).

مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة))[1].

٥ ـ ما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ((إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني))[2].

٦ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾[3] يقول: (الذين آمنوا معك يستغفرون بمكة حتى أخرجك والذين آمنوا معك)[4].

٧ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: لم يعذب قرية حتى يخرج النبي والذين آمنوا معه ويلحقه بحيث أمر ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾[5] يعني المؤمنين، ثم أعاد إلى المشركين. فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[6].

وقد اعترض ابن عطية على هذا القول بقوله: (وينفع في صد هذا القول: أن المؤمنين الذين رد الضمير عليهم لم يجر لهم ذكر) [7].

وبين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ ما يبطل هذا الاعتراض فقال: (وعلى هذا القول: فقد أسند الاستغفار إلى مجموع أهل مكة الصادق بخصوص المؤمنين منهم، ونظير الآية عليه قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾[8] مع أن العاقر واحد منهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾[9])[10].

وقال الرازي: (فاللفظ وإن كان عامًا، إلا أن المراد بعضهم)[11].

---

(١) ح/٣٠٨٢ (٢٧٠/٥) وضعفه الألباني في الجامع الصغير وزيادته ح/٣٢٦٥ (٣٢٧/١).

(٢) ح/١١٢٦٢ (٢٩/٢). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ح/٨٧٨٨ (٣٣٣/٨). وأبو يعلى في مسنده ح/١٢٧٣ (٤٥٨/٢). وقال محققه: إسناده صحيح.

(٣) سورة الأنفال.

(٤) (٢٣٥/٩).

(٥) سورة الأنفال.

(٦) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٥/٩). وروى ابن أبي حاتم في تفسيره نحوه (٦٩٣/٥).

(٧) المحرر الوجيز، (٢٨٢/٦).

(٨) سورة الأعراف، الآية: (٧٧).

(٩) سورة القمر.

(١٠) دفع إيهام الاضطراب عن أيات الكتاب (ص ١٣٨).

(١١) مفاتيح الغيب (١٦٣/١٥).

وقد أورد هذا القول جمهور المفسرين[1].

الوجه الثاني - أن معنى الآية: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد، وما كان الله معذب المشركين وهم يستغفرون، أي لو استغفروا. ولكن لم يكونوا يستغفرون. فقال الله تعالى: وَمَا ﴿ لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[2].

وهو قول جمع من العلماء كقتادة، والسدي، وابن جرير، وغيرهم[3].

قال ابن جرير الطبري في ترجيح هذا القول: (وإنما قلنا: هذا القول أولى الأقوال بالصواب؛ لأن القوم - أعني مشركي مكة - كانوا استعجلوا العذاب، فقالوا: وَإِذْ﴿ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ ﴾هَـٰذَا ما جاء به محمد هُوَ﴿ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾﴿٣٢﴾[4] فقال الله لنبيه: ما كنت لأعذبهم وأنت فيهم، وما كنت لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا أعذبهم بعد إخراجك منهم، وهم يصدون عن المسجد الحرام. فأعلمه جل ثناؤه أن الذين استعجلوا العذاب، حائق بهم ونازل وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياه من بين أظهرهم)[5].

وقال الشنقيطي: (فجملة الحال أريد بها أن العذاب لا ينزل بهم في حالة استغفارهم لو استغفروا، ولا في حالة وجود نبيهم فيهم، لكنه خرج من بين أظهرهم، ولم يستغفروا لكفرهم. ومعلوم أن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها، فالاستغفار مثلاً قيد في نفي العذاب لكنهم لم يأتوا بالقيد، فتقرير المعنى: وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون لو استغفروا، وبعد انتفاء الأمرين عذبهم بالقتل والأسر يوم بدر، كما يشير إليه قوله تعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُم﴿ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ﴾ٱلْأَكْبَرِ[6])[7].

---

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦١/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢١٨/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٧/٣ - ٢٣٨). ومفاتيح الغيب (١٦٣/١٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٥٠٧/٩). وتفسير أبي السعود (١٩/٤). وتفسير القاسمي (٤٦/٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٤).

(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٦/٩). وابن أبي حاتم (١٦٩٣/٥). وتفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (١٧٦/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). والكشاف، للزمخشري (١٥٦/٢).

(٤) سورة الأنفال.

(٥) جامع البيان، (٢٣٨/٩).

(٦) سورة السجدة، الآية: (٢١).

(٧) دفع إيهام الاضطراب عن أيات الكتاب، (ص١٣٧).

وذكر هذا القول جمهور المفسرين[١].

الوجه الثالث ـ معنى الآية: وما كان الله ليعذبهم وهم يسلمون، وقيل: يصلون. فالاستغفار في هذا الموضع: هو إسلامهم أو صلاتهم.

وهو مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ و قول كثير من المفسرين كمجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم[٢].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾: (يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة)[٣].

٢ ـ ما رواه ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم بسنديهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾[٤] يقول: (ما كان الله سبحانه يعذب قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾[٥] يقول: ومنهم ما قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار. ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[٦]، فعذبهم يوم بدر بالسيف)[٧].

وحكى هذا القول جمع من العلماء[٨].

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٢١٨/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٨٢/٦). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٨/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٦٣/١٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٠/٤). واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٥٠٨/٩). وتفسير أبي السعود (٢٠/٤).وتفسير القاسمي(٤٦/٨).ودفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب،للشنقيطي (ص١٣٧).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٦/٩ ـ ٢٣٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). وتفسير ابن أبي حاتم (١٦٩٢/٥). وابن كثير (٤٩/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٨٣/٦).

(٣) انظر: جامع البيان، (٢٣٧/٩).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٣٣).

(٥) سورة الأنفال.

(٦) سورة الأنفال، الآية: (٣٤).

(٧) تفسير ابن جرير الطبري (٢٣٧/٩). وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٣/٥). والسيوطي في الدر المنثور (٥٩/٤).

(٨) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦١/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢١٨/٢).

الوجه الرابع ـ أن معنى الآية: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار، وفي علم الله أن يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه.

وهو قول مجاهد[١].

قال ابن عطية: (وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ ذرية المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين، فالمعنى: وما كان الله ليعذبهم وذريتهم يستغفرون ويؤمنون، فنسب الاستغفار إليهم إذ ذريتهم منهم)[٢].

وقد ذكر هذا القول أغلب المفسرين[٣].

الوجه الخامس ـ أن المراد من العذاب الأول الاستئصال. ومن الثاني: العذاب الحاصل بالمحاربة والمقاتلة.

وهو قول الرازي[٤]، وابن عادل الحنبلي[٥]. وذكره غيرهما[٦].

الوجه السادس ـ أن هذه الآية الأولى حكاية عن المشركين أنهم قالوها، وهي متصلة بالآية التي قبلها، وأن الله رد عليهم بالآية الثانية.

وهو قول محمد بن إسحاق، ذكر ذلك البغوي في تفسيره[٧]. وأشار إليه الطبري في تفسيره[٨].

القول الثاني . أن المراد بالعذاب في الآية الأولى: العذاب الدنيوي، وفي الآية الثانية العذاب الأخروي. وأن المراد من الاستغفار من المشركين هو استغفارهم بألسنتهم.

والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٨٣/٦). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٨/٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). وتفسير ابن كثير (٤٩/٤). واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٥٠٨/٩).

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٦٣/١٥).

(٢) انظر: المحرر الوجيز، (٢٨٣/٦).

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٢/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢١٨/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٨٣/٦).ومفاتيح الغيب، للرازي(١٦٣/١٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي (٥٠٨/٩).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، (١٦٣/١٥).

(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، (٥٠٧/٩).

(٦) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٢/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢١٨/٢).

(٧) (٢١٨/٢).

(٨) (٢٣٥/٩).

وهو قول: ابن عباس رضي الله عنهما، ويزيد بن رومان،[1] ومحمد بن قيس[2].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (إن المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون: لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي ﷺ: **((قد قد))**. فيقولون: لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما مالك؟ ويقولون: غفرانك. غفرانك فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3] فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان فيهم أمانان: نبي الله والاستغفار، قال: فذهب نبي الله وبقي الاستغفار. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾[4]. قال: فهذا عذاب الآخرة. قال: وذاك عذاب الدنيا)[5].

٢ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: (قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[6]. فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[7] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[8])[9].

---

(١) يزيد بن رومان الأسدي ، أبوروح المدني ، مولى آل الزبير ، تابعي جليل ، كان عالما كثير الحديث ، ثقة ، توفي سنة ١٣٠هـ . تهذيب التهذيب (٢٨٤/١١) .

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٥/٩).

(٣) سورة الأنفال.

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٣٤).

(٥) جامع البيان، (٢٣٥/٩). وانظر ابن أبي حاتم في تفسيره نحوه (١٦٩١/٥). ورواه البيهقي في سننه، كتاب الحج، باب: ما كان المشركين يقولون في التلبية ح/٨٨١٩ (٤٥/٥).

(٦) سورة الأنفال.

(٧) سورة الأنفال.

(٨) سورة الأنفال.

(٩) جامع البيان (٢٣٥/٩). و انظر ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٠/٥). والسيوطي في الدر المنثور (٥٦/٤). ولباب النقول في أسباب النزول (ص١١١).

وقد ذكر هذا القول جمهور المفسرين [1].

وقد ضعف ابن جرير الطبري هذا القول فقال: (ولا وجه لإيعادهم العذاب في الآخرة، وهم مستعجلوه في العاجل، ولا شك أنهم في الآخرة إلى العذاب صائرون، بل في تعجيل الله لهم ذلك يوم بدر الدليل الواضح على أن القول في ذلك ما قلنا)[2].

وضعفه ابن الجوزي ـ أيضًا فقال ـ : (وفيه ضعف؛ لأن استغفار المشركين لا أثر له في القبول)[3].

المسلك الثاني ـ القول بالنسخ. وأن الآية الثانية ناسخة للآية الأولى.

وهو قول: عكرمة، والحسن البصري.

فقد روى ابن جرير الطبري بسنده عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في الأنفال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4]. فقوتلوا بمكة وأصابهم الجوع والضر) [5].

وقد ذكر هذا القول: البغوي[6]، وابن كثير[7].

وقد ضعف ابن جرير الطبري هذا القول فقال: (وكذلك لا وجه لقول من قال: ذلك منسوخ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[8] الآية؛ لأن قوله ـ جل ثناؤه ـ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[9]

---

(١) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٨/٣). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٢/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢١٨/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٨٢/٦). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٩/٧). وتفسير أبي السعود (١٩/٤). وتفسير القاسمي (٤٦/٨). ودفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب، للشنقيطي (ص١٤٠).

(٢) جامع البيان (٢٣٨/٩).

(٣) زاد المسير، (٢٣٨/٣).

(٤) سورة الأنفال.

(٥) جامع البيان (٢٣٨/٩). وانظر: السيوطي في الدر المنثور (٥٧/٤).

(٦) انظر معالم التنزيل (٢١٨/٢).

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٥٠/٤).

(٨) سورة الأنفال، الآية: (٣٤).

(٩) سورة الأنفال.

خبر، والخبر لا يجوز أن يكون فيه نسخ، وإنما يكون النسخ للأمر والنهي)[1]. وكذلك ضعفه ابن الجوزي فقال: (وفيه بعد؛ لأن النسخ لا يدخل على الأخبار)[2].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول وذلك لما يلي:

١. قوة أدلة هذا القول وسلامتها من المعارض.
٢. دلالة سبب نزول الآية عليه.
٣. أنه قول جمهور المفسرين.
٤. دلالة سياق الآيات عليه.

* * *

المبحث الثامن
آيات في نفي تسلط الشيطان على الأنبياء

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾[3] **مع قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ

---

(١) جامع البيان (٢٣٨/٩).
(٢) زاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٨/٣).
(٣) سورة الحج.

مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1]. **وقوله تعالى:** إِنَّ﴿ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[2]. ونحوها من الآيات التي تنفي تسلط الشيطان على المؤمنين.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآية الأولى إلى أن الشيطان يلقي الشبه والوساوس على الأنبياء، في قراءاتهم وتلاواتهم، بينما الآيات الأخرى تنفي تسلط الشيطان على المؤمنين ومن باب أولى الأنبياء، فهم أول المؤمنين. وهذا ما يتوهم ظاهره التعارض وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يزيل ذلك.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء ـ رحمهم الله ـ في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع. وسيتبين لنا ذلك من خلال ذكر أقوالهم في المسائل التالية:

الأولى ـ سبب نزول آية التمني.

الثانية ـ معنى "التمني" في الآية الأولى.

الثالثة ـ معنى سلطان الشيطان المنفي عن المؤمنين.

المسألة الأولى ـ أقوال العلماء في سبب نزول آية التمني:

ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين سبب نزول الآية باسم قصة الغرانيق. وقد وردت هذه القصة بروايات عديدة، وسأكتفي بذكر أقواها، وهي رواية سعيد بن جبير رحمه الله.

فعن سعيد بن جبير قال: (لما نزلت هذه الآية: أَفَرَءَيۡتُمُ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾[3].

قرأها رسول الله ﷺ: ((تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى)) فسجد رسول الله ﷺ، فقال المشركون: إنه لم يذكر آلهتهم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه، فأنزل الله: وَمَآ﴿ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ...﴾ إلى قوله: عَذَابُ﴿ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾[4].

وفي رواية أخرى: (ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى) الحديث، وفيه: (ثم جاءه جبريل بعد ذلك، قال: اعرض علي ما جئتك به، فلما بلغ: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى. قال جبريل: لم آتك بهذا، هذا من الشيطان. فأنزل الله: وَمَآ﴿

---

(١) سورة النحل.
(٢) سورة الحجر.
(٣) سورة النجم.
(٤) سورة الحج، الآيات: (٥٢ ـ ٥٥).

أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا ﴾نَبِيٍّ الآيات[1])[2].

موقف العلماء من هذه القصة:

للعلماء موقفان متباينان من قصة الغرانيق تفصيلهما كما يلي:

الموقف الأول ـ الذين قبلوا هذه الرواية لم يتفقوا على تفسيرها، ففسروها على عدة أوجه:

الوجه الأول ـ أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ شيئًا من صفة الأصنام، فافتتن بذلك أهل الشقاق والنفاق، ونسخ الله ما ألقى الشيطان على لسان نبيه ﷺ.

وهو قول جمهور المفسرين[3].

قال أبو المظفر السمعاني: (وأما الأكثرون من السلف ذهبوا إلى أن هذا شيء جرى على لسان الرسول ﷺ بإلقاء الشيطان من غير أن يعتقد، وذلك محنة وفتنة من الله، والله تعالى يمتحن عباده بما شاء ويفتنهم بما يريد، وليس عليه اعتراض لأحد. وقالوا: إن هذا وإن كان غلطًا عظيمًا، فالغلط يجوز على الأنبياء إلا أنهم لا يقرون عليه)[4].

وقال البغوي: (والأكثرون قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان، ولم يلبث أن نبه الله عليه)[5].

وقال الزمخشري: (أَلۡقَى﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ ﴾أُمۡنِيَّتِهِۦ التي تمناها: أي وسوس إليه بما شيعها به، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط، إلى أن قال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، وروى الغرانقة ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه)[6].

وقد أبطل ابن العربي هذا القول فقال: (المقام الخامس: أن قول الشيطان: تلك الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن ترتجى للنبي ﷺ قبله منه، فالتبس عليه الشيطان بالملك، واختلط عليه التوحيد بالكفر، حتى لم يفرق بينهما.

وأنا من أدنى المؤمنين منزلة، وأقلهم معرفة بما وفقني الله له، وأتاني من علمه لا

---

(١) سورة الحج، الآيات: (٥٢ ـ ٥٥).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٦/١٧). وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٥٠/٨). والسيوطي (٦٥/١٧، ٦٦). وابن كثير في تفسيره (٤٤٢/٥).
وقد وردت هذه القصة بروايات عديدة، ومن طرق مختلفة، كلها ضعيفة، ومنقطعة، ولم يصح منها شيء موصولاً. وقد اقتصرت على ذكر رواية سعيد بن جبير؛ لأنها أقوى الروايات الموجودة، ومع ذلك فهي لا تصح موصولة. كما سيأتي.
وللاستزادة انظر: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، لمحمد ناصر الدين الألباني. ط: الثالثة. عام ١٤١٧هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٨٦/١٧ ـ ١٨٨). ومعاني القرآن، للزجاج (٤٣٤/٣). والكشاف، للزمخشري (١٩/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٣٠/٢٣).

(٤) تفسير القرآن، (٤٤٩/٣).

(٥) معالم التنزيل، (٢٢٧/٣).

(٦) الكشاف، (١٩/٣).

يخفى عليك وعليكم أن هذا كفر لا يجوز وروده من عند الله. ولو قاله أحد لكم لتبادر الكل إليه قبل التفكير بالإنكار والردع، والتثريب والتشنيع، فضلاً عن أن يجهل النبي ﷺ حال القول، ويخفى عليه قوله، ولا يتفطن لصفة الأصنام بأنها الغرانقة العلى، وأن شفاعتهن ترتجى. وقد علم ضروريًا أنها جمادات لا تسمع ولا تضر، ولا تنفع ولا تنصر ولا تشفع، بهذا كان يأتيه جبريل الصباح والمساء، وعليه انبنى التوحيد، ولا يجوز نسخه من جهة المعقول ولا من جهة المنقول، فكيف يخفى هذا على الرسول؟

ثم لم يكن هذا حتى قالوا: إن جبريل لما عاد إليه بعد ذلك ليعارضه فيما ألقي إليه من الوحي كررها عليه جاهلاً بها ـ تعالى الله عن ذلك ـ فحينئذ أنكرها عليه جبريل، وقال له: ما جئتك بهذه. فحزن النبي ﷺ لذلك، وأنزل عليه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾[1] فيا لله والمتعلمين العالمين من شيخ فاسد وسوس هامد لا يعرف أن هذه الآية نافية لما زعموا، مبطلة لما رووا وتقولوا)[2].

وقال القاضي عياض: (فأما من جهة المعنى: فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه عليه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمدًا، وذلك كفر، أو سهو، وهو معصوم من هذا كله، وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقول على الله لا عمدًا ولا سهوًا ما لم ينزل عليه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤﴾[3] الآية. وقال: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾[4])[5].

وقال الرازي: (وهذا ـ أي الوجه الأول ـ ضعيف أيضًا لوجوه:

أحدها ـ أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع، وحينئذ تزول الثقة عن الشرع.

وثانيها ـ أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة، وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدًا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٧٣).
(٢) أحكام القرآن، (٣/١٣٠١ ـ ١٣٠٢).
(٣) سورة الحاقة.
(٤) سورة الإسراء، الآية: (٧٥).
(٥) الشفا، (٢/١١٠).

وثالثها ـ هب أنه تكلم بذلك سهوًا، فكيف لم يتنبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر)[١].

وقال ابن حجر: (وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى. فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدًا منه، وكذا سهوًا إذا كان مغايرًا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته)[٢].

الوجه الثاني ـ أن الرسول ﷺ أغفى إغفاءة ونعس، فجرى على لسانه هذا، ولم يكن به خبر بإلقاء الشيطان.

أورد ابن كثير عن قتادة القول: (كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نعس، فألقى الشيطان على لسانه: "وإن شفاعتهن لترتجى. وإنها لمع الغرانيق العلى" فحفظها المشركون وأجرى الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فنزلت بها ألسنتهم، فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾[٣] فدحر الله الشيطان)[٤].

الوجه الثالث ـ أن الغرانيق هم الملائكة، وقد كان ذلك قرآنًا منزلاً في وصف الملائكة، فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته[٥].

وقد أبطل الشوكاني هذا القول فقال: (ويرد بقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة)[٦].

وقد نسب القرطبي هذا القول إلى الحسن والكلبي فقال عن الحسن: (أراد بالغرانيق العلا الملائكة، وبهذا فسر الكلبي الغرانقة، أنها الملائكة. وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله تعالى عنهم ورد عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١﴾[٧] فأنكر الله كل هذا من قولهم، ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح؛ فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبس عليهم الشيطان بذلك نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس، كما نسخ كثير من القرآن ورفعت

---

(١) مفاتيح الغيب (٥٣/٢٣ ـ ٥٤).
(٢) فتح الباري، (٢٩٣/٨).
(٣) سورة الحج، الآية: (٥٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم، (٤٤٢/٥). وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٤٩/٣). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٢٧/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٣/٢٣).
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٥٤/٢٣).
(٦) فتح القدير (٤٦٢/٣).
(٧) سورة النجم.

تلاوته)[١].

وقد أبطل هذا القول القشيري والشوكاني[٢].

الوجه الرابع ـ أن النبي ﷺ تكلم بهذا الكلام قسرًا، وأن الشيطان أكرهه حتى قال هذا الكلام[٣].

وقد أبطل هذا القول الرازي. فقال ـ بعد أن حكى هذا القول ـ: (فهذا أيضًا فاسد لوجوه:

أحدها ـ أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي ﷺ لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أنه يزيل الشيطان الناس عن الدين، ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين.

وثانيها ـ أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال.

وثالثها ـ أنه باطل بدلالة قوله تعالى ـ حاكيًا عن الشيطان ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾[٥].. وقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٦] ولا شك أنه ـ عليه السلام كان سيد المخلصين)[٧].

وقال القرطبي ـ مبطلاً هذا القول ـ: (وأما غيره من التأويلات مما حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار؛ قال الله تعالى مخبرًا عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾[٨]، ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحد من بني آدم قوة في طاعة، ومن توهم أن للشيطان هذه القوة فهو قول الثنويه والمجوس في أن الخير من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١٢/٨٥ ـ ٨٦).
(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٣/٤٦٢).
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٣/٥٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢/٨٣).
(٤) سورة إبراهيم، الآية: (٢٢).
(٥) سورة النحل، الآيتان: (٩٩، ١٠٠).
(٦) سورة الحجر.
(٧) مفاتيح الغيب، (٢٣/٥٤).
(٨) سورة إبراهيم، الآية: (٢٢).

الله، والشر من الشيطان)[١].

الوجه الخامس ـ أن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، فكأنه قال: أشفاعتهن ترتجى؟ وقد ذكر هذا القول الرازي، ولم ينسبه إلى أحد[٢].

الوجه السادس ـ أنه ذكر الإثبات، وأراد النفي. فخرج الكلام على زعم المخالف رواية لا على التحقيق والتسليم.

قال الرازي: (الثالث: أن يقال: إنه ذكر الإثبات وأراد النفي؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾[٣]. أي: لا تضلوا)[٤].

وقال الغزنوي: (وما روي في سبب النزول: أن النبي ﷺ وصل ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾[5] بـ "تلك الغرانقة الأولى، وإن شفاعتهن لترتجى" إن ثبت ـ وما ينبغي أن يثبت ـ لم يكن فيه ثناء على أصنامهم؛ لأن مخرج الكلام على زعم المخالف رواية، لا على التحقيق والتسليم، وهو في القرآن، وفي مذهب العرب شائع ذائع.

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾[٦]. أي نزل عليه الذكر على زعمه، وعند من آمن به، ولو كان عند القائل لما كان عنده مجنونًا.

وكقوله تعالى:﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾[٧].أي عند نفسك وفي قولك.

وكما قال بعض شعراء اليمن في هجائه جريرًا:

أبلغ كليبًا وأبلغ عنك شاعرها ... أني الأغر وأني زهـرة اليمـن

فرد عليه جرير بقوله:

ألم يكن في وسوم قد وسمت بها ... من حان موعظة يا زهرة اليمن[٨].

أي: على زعمك)[٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١٢/٨٣ ـ ٨٤).
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٣/٥٤).
(٣) سورة النساء، الآية: (١٧٦).
(٤) مفاتيح الغيب، (٢٣/٥٤).
(٥) سورة النجم.
(٦) سورة الحجر.
(٧) سورة الدخان.
(٨) ديوان جرير (ص٦١٠) وفيه: يا حارث اليمن.
(٩) باهر البرهان، للغزنوي (٢/٩٦٢ ـ ٩٦٣).

وقد أبطل الرازي هذا القول والذي قبله فقال: (وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناءً على هذا التأويل، فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناءً على هذا التأويل، ولكن الأصل في الدين ألا يجوز عليهم شيء من ذلك؛ لأن الله تعالى قد نصبهم حجة، واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر)(1).

الوجه السابع ـ أن الشيطان تكلم بهذا في سكتات النبي ﷺ، وظنها المشركون أنها من قول النبي ﷺ.

وقد ورد هذا القول في وراية لابن شهاب(2)، وهو اختيار جمع من العلماء كالأزهري، وابن حجر، وابن العربي وغيرهم(3).

قال ابن العربي: (المقام العاشر: أن هذه الآية نص في غرضنا، دليل على صحة مذهبنا، أصل في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه أنه قاله عندنا، وذلك أنه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله، وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، كما يفعل سائر المعاصي) ثم قال: (فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ لا أن النبي قاله؟ وذلك أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قرآنًا مقطعًا وسكت في مقاطع الآي سكوتًا محصلاً، وكذلك كان حديثه مترسلاً فيه متأنيًا، فيتبع الشيطان في تلك السكتات التي بين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ وبين قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١﴾(4)، فقال:

ـ يحاكي صوت النبي ﷺ ـ: وإنهن الغرانقة العلا، وإن شفاعتهن لترتجى)(5).

وقال القاضي عياض: (وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح. ـ وقد أعاذنا من صحته ـ ولكن على كل حال فقد أجاب أئمة المسلمين عنه بأجوبة، منها الغث والسمين. والذي يظهر ويترجح في تأويله على تسليمه أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته؛ كما رواه الثقات عنه فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكيًا نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح

---

(1) مفاتيح الغيب، (٥٤/٢٣).
(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٤٢/٥ ـ ٤٤٣).
(3) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٤٩/٣). وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني (٢٩٤/٨). وأحكام القرآن، لابن عربي (١٣٠٢ ـ ١٣٠٣). والشفا، للقاضي عياض (١١٠/٢).
(4) سورة النجم.
(5) أحكام القرآن، (١٣٠٢/٣ ـ ١٣٠٣).

ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه)[1].

وقال ابن حجر بعد أن ساق الأقوال في هذه المسألة: (وقيل: كان النبي ﷺ يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات، ونطق بتلك الكلمات محاكيًا نغمته بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قوله وأشاعها. قال: وهذا أحسن الوجوه ويؤيده ما تقدم في صدر الكلام عن ابن عباس من تفسيره ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بتلا)[2].

وهو يشير ـ رحمه الله ـ إلى ما رواه البخاري في صحيحه معلقًا عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[3]: (إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته)[4].

وقد أبطل أبو السعود هذا القول فقال: (وقد رد بأنه أيضًا يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لأنه أيضًا يحتمله)[5].

وقد صحح ابن حجر ـ رحمه الله ـ هذه القصة بناءً على تعدد طرقها. فقال ـ رحمه الله ـ : (فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به؛ لاعتضاد بعضها ببعض)[6].

وقد رد الألباني ـ رحمه الله ـ على تقوية ابن حجر ـ رحمه الله ـ قصة الغرانيق بكثرة الطرق ردًا طويلاً جاء فيه: (أن قاعدة تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها: والجواب عن ذلك من وجوه:

أولاً ـ أن القاعدة التي أشار إليها، وهي تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها وقد نبه على ذلك غير واحد من علماء الحديث المحققين. منهم الحافظ أبو عمرو بن الصلاح حيث قال رحمه الله ـ: (ليس كل ضعف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه، بل يتفاوت فمنه ما يزيله ذلك بأن يكون ضعفه ناشئًا من ضعف حفظ راويه، ولم يختل فيه ضبط له، وكذلك إذا كان ضعفه من حيث الإرسال زال بنحو ذلك، كما في المرسل الذي يرسله إمام حافظ إذ فيه ضعف قليل يزول بروايته من وجه آخر،

---

(١) الشفا، (١١٠/٢).
(٢) فتح الباري، (٢٩٤/٨).
(٣) سورة الحج، الآية: (٥٢).
(٤) فتح الباري، (٢٩٢/٨).
(٥) تفسير أبو السعود (١١٤/٦).
(٦) فتح الباري، (٢٩٣/٨).

ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لقوة الضعف وتقاعد هذا الجابر عن جبره ومقاومته، وذلك كالضعف الذي ينشأ من كون الراوي متهمًا بالكذب أو كون الحديث شاذًا)[1])[2].

ثم قال الألباني ـ رحمه الله ـ : (لكن يبقى النظر في طرق الحديث الأخرى هل يتقوى الحديث بها، أم لا؟

فاعلم أنها كلها مرسلة، وهي على إرسالها معلة بالضعف، والجهالة كما سبق تفصيلها، سوى الطرق الأربعة الأولى فهي التي تستحق النظر؛ لأن الحافظ ـ رحمه الله ـ جعلها عمدته في تصحيحه هذه القصة، وتقويته لها بها، وهذا مما نخالفه فيه، ولا نوافقه عليه، وبيان ذلك يحتاج إلى مقدمة وجيزة مفيدة ـ إن شاء الله تعالى ـ وهي:

الوجه الثاني ـ وهو يحتوي على تحقيق أمرين أساسين:

الأول ـ أن الحديث المرْسَل، ولو كان المُرْسِلُ ثقة، لا يحتج به عند أئمة الحديث.

الأمر الثاني ـ معرفة سبب عدم احتجاج المحدثين بالمرْسَل من الحديث، فاعلم أن سبب ذلك إنما هو جهالة الواسطة التي روى عنها المرْسِل الحديث)[3].

ثم قال ـ رحمه الله ـ :(وبالجملة فالمانع من الاستدلال بالحديث المرسل الذي تعدد مرسلوه أحد الاحتمالين:

الأول ـ أن يكون مصدر المرْسِلِين واحدًا.

الثاني ـ أن يكونوا جميعًا، ولكنهم جميعًا ضعفاء ضعفًا شديدًا.

وبعد هذه المقدمة نستطيع أن نقول:

إننا لو ألقينا النظر على روايات هذه القصة؛ لألفيناها كلها مرسلة، حاشا حديث ابن عباس ولكن طرقه كلها واهية شديدة الضعف لا تنجبر بها تلك المراسيل، فيبقى النظر في هذه المراسيل، وهي كما علمت سبعة، صح إسناد أربعة منها[4]، وهي: مرسل سعيد بن جبير وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وأبي العالية، ومرسل قتادة، وهي مراسيل يرد عليها أحد الاحتمالين السابقين؛ لأنهم من طبقة واحدة: فوفاة سعيد بن جبير سنة (٩٥) وأبي بكر بن عبد الرحمن (٩٤)، وأبي العالية ـ واسمه رفيع مصغرًا ـ سنة (٩٠)، وقتادة سنة بضع عشرة ومائة، والأول: كوفي، والثاني: مدني، والأخيران: بصريان.

فجائز أن يكون مصدرهم الذي أخذوا منه هذه القصة ورووها عنه واحدًا لا غير، وهو مجهول. وجائز أن يكون جمعًا، ولكنهم ضعفاء جميعًا، فمع هذه الاحتمالات لا يمكن أن تطمئن النفس لقبول حديثهم هذا لاسيما في مثل هذا الحدث العظيم الذي يمس

---

(١) علوم الحديث،لأبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، ط:الأولى، ١٩٨٤م،مكتب الفارابي. ص(٢٠).

(٢) نصب المجانيق، (ص٣٨، ٣٩).

(٣) نصب المجانيق، (ص٤٠، ٤١).

(٤) يعني إلى المُرْسِل ، وإلا فالحديث المرْسَل منقطع الإسناد .

المقام الكريم، فلا جرم تتابع العلماء على إنكارها، بل التنديد ببطلانها)[1].

الوجه الثامن ـ أن هذا ألقاه بعض المنافقين في قراءته، فظن المشركون أن الرسول ﷺ قرأ وسمي ذلك المنافق شيطانًا.

قال ابن حجر رحمه الله: (وقيل: إنه لما وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ (٢٠)[2] خشي المشركون أن يأتي بعدها بشيء يذم آلهتهم به، فبادروا إلى ذلك فخلطوه في تلاوة النبي ﷺ على عادتهم في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾[3] ونسب ذلك للشيطان لكون الحامل لهم على ذلك، أو أن المراد بالشيطان شيطان الإنس)[4].

وقال أبو المظفر السمعاني: (وسمي ذلك المنافق شيطان؛ لأن كل كافر متمرد بمنزلة الشيطان) وقد ضعف أبو المظفر السمعاني هذا الوجه فقال: (وهذا جواب ضعيف)[5].

الموقف الثاني ـ الذين أبطلوا هذه الرواية، ولم يقبلوها:

وهو قول مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ[6] وكثير من أهل العلم من السلف والخلف كمجاهد والضحاك وابن جرير وغيرهم[7].

وقد احتجوا على بطلانها بما يلي:

١ ـ من القرآن الكريم:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥)

---

(١) نصب المجانيق، للألباني (ص ٤٥، ٤٦).
(٢) سورة النجم.
(٣) سورة فصلت، الآية: (٢٦).
(٤) فتح الباري (٢٩٤/٨).
(٥) تفسير القرآن، (٤٤٨/٣).
(٦) كما ثبت عنه في رواية علي بن أبي طلحة،أنه فسر "تمنى" بمعنى:حدث.انظر:جامع البيان،للطبري (١٩٠/١٧).
(٧) انظر:جامع البيان، للطبري (١٩٠/١٧). وأحكام القرآن، لابن العربي (١٣٠١/٣، ١٣٠٢). وباهر البرهان، للغزنوي (٩٦٢/٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥١/٢٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨٤/١٢). والشفا، للقاضي عياض (١١٠/٢)وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٤١/٥). وفتح القدير، للشوكاني (٤٦٢/٣). وأضواء البيان، للشنقيطي (٧٢٩/٥)..

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

ب ـ قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ ﴾[2].

جـ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾[3].

قال القرطبي: (فإنهما ـ أي الآيتان المذكورة أعلاه والتي تليها ـ تردان الخبر الذي رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري وأنه لولا أن ثبته لكان يركن إليهم، فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفتري وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيرًا! وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال عليه الصلاة والسلام: افتريت على الله وقلت ما لم يقل. وهذا ضد مفهوم الآية. وهي تضعف الحديث لو صح؟ فكيف ولا صحة له)[4].

د ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ ﴾[5].

قال القشيري ـ فيما ذكر القرطبي ـ : (ولقد طالبته قريش وثقيف إذا مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها، ووعدوه بالإيمان به إن فعل، فما فعل! ولا كان ليفعل)[6].

هـ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[7].

و ـ قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[8].

---

(١) سورة الحاقة.
(٢) سورة يونس، الآية: (١٥).
(٣) سورة الإسراء.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٨٤/١٢).
(٥) سورة النساء، الآية: (١١٣).
(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨٤/١٢).
(٧) سورة الإسراء.
(٨) سورة الفرقان.

ز ـ قوله تعالى: سَنُقۡرِئُكَ ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[1].

ح ـ قوله تعالى: وَمَآ ﴿ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ ﴾أُمۡنِيَّتِهِۦ[2].

قال ابن العربي: (المقام العاشر: أن هذه الآية نص في غرضنا، دليل على صحة مذهبنا، أصل في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه أنه قاله عندنا، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ ﴾أُمۡنِيَّتِهِۦ[3]. فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل في سائر المعاصي) ثم قال: (فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ قاله)[4].

٢ ـ من السنة:

استدل على بطلان القصة سندًا ومتنًا:

أ ـ القول ببطلانها سندًا:

- قال ابن خزيمة ـ فيما ذكره الشوكاني ـ : (إن هذه القصة من وضع الزنادقة)[5].
- قال البيهقي ـ فيما ذكره الشوكاني ـ : (هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل) ثم تناول رواة القصة بالطعن[6].
- قال البزار ـ فيما أورده القاضي عياض ـ : (هذا لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس)[7]. قال القاضي عياض بعد نقله كلام البزار: (فقد بين لك أبو بكر ـ

رحمه الله ـ أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه من وقوع الشك فيه ـ كما ذكرناه ـ الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه.
أما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره؛ لقوة ضعفه وكذبه، كما

---

(١) سورة الأعلى.
(٢) سورة الحج، الآية: (٥٢).
(٣) سورة الحج، الآية: (٥٢).
(٤) أحكام القرآن، (١٣٠٢/٣ ـ ١٣٠٣).
(٥) فتح القدير، للشوكاني (٤٦٢/٣).
(٦) فتح القدير، للشوكاني (٤٦٢/٣).؟؟٩٢
(٧) الشفا، للقاضي عياض (١١٠/٢).

أشار إليه البزار ـ رحمه الله ـ)[1].

- قال القاضي عياض: (أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم) ثم قال: (ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية.
والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: فما أحسب ـ الشك في الحديث ـ أن النبي ﷺ كان بمكة، وذكر القصة)[2].
- قال ابن كثير: (قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح. والله أعلم) [3].

ب ـ القول ببطلانها متنًا:

- مخالفتها لكثير من النصوص القرآنية، والتي ذكرناها سابقًا.
- اختلاف رواياتها وتناقضها. قال القاضي بكر بن العلاء المالكي: (لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في ناد قومه حين أنزلت عليه السورة وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل، قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: ((والله ما هكذا أنزلت))[4].
- قال القاضي عياض: (أما من جهة المعنى: فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته على مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمدًا وذلك كفر، أو سهوًا وهو معصوم من هذا كله.

---

(١) الشفا، (١١٠/٢).
(٢) الشفا، (١١٠/٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، (٤٤١/٥).
(٤) الشفا، للقاضي عياض (١١٠/٢).

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظرًا وعرفًا. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم. ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان، معرفة فصيح الكلام علمه.

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعيرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة.. ولم يحك أحد في هذه القصة شيئًا سوى هذه الرواية الضعيفة)[١].

- قال الألباني: (ثم إن مما يؤكد ضعفها بل بطلانها، ما فيها من الاختلاف والنكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة) ثم بين تلك الاختلافات بالتفصيل وقال: (فثبت مما تقدم بطلان هذه القصة سندًا ومتنًا. والحمد لله على توفيقه وهدايته)[٢].

- ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس) وفي رواية أخرى بلفظ: (أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً أخذ كفًا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك كافرًا، وهو أمية بن خلف)[٣].

قال ابن عطية: (بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى، ولا يعينون هذا السبب ولا غيره)[٤].

المسألة الثانية ـ أقوال العلماء في معنى "التمني" في الآية الأولى:

للعلماء في معنى "تمنى" قولان:

القول الأول ـ أن معنى ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: إذا قرأ وتلا أو حدث.

وهذا قول جمهور المفسرين[٥]، وقد احتجوا لذلك بما يلي:

---

(١) الشفاء، (١١٠/٢).
(٢) نصب المجانيق، (ص٣٥، ٣٦).
(٣) كتاب التفسير باب: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ ح/٤٨٦٢ ـ ٤٨٦٣. (ص٨٦١).
(٤) المحرر الوجيز، لابن عطية (٣٠٥/١٠).
(٥) انظر: تفسير جامع البيان،لابن جرير الطبري (١٩٠/١٧).والحرر الوجيز، لابن عطية (٣٠٧/١٠). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧٩/١٢). ومعاني القرآن الكريم، للنحاس (٤٢٥/٤). وتفسير القرآن العزيز (١٨٦/٣). وروح المعاني، للألوسي (١٧٣/١٧). وفتح القدير، للشوكاني (٤٦٢/٣).

١ ـ ما رواه البخاري في صحيحه معلقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "في أمنيته" إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته[١].

٢ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه[٢].

٣ ـ أن هذه الأمنية كالأمنية التي في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[٣]. أي: إلا قراءة؛ لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة[٤].

٤ ـ ومن ذلك قول حسان لعثمان بن عفان:

تمنى كتاب الله أول ليلة   وآخره لاقى حمام المقادر[٥].

٥ ـ وقال آخر:

تمنى كتـــاب الله آخر ليله   تمنى داود الزبور على رسل[٦].

فـ "تمنى" في هذين البيتين بمعنى: قرأ.

٦ ـ دلالة قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾[٧].

قال ابن جرير الطبري: (وهذا القول أشبه بتأويل الكلام بدلالة ـ هذه الآية ـ على ذلك؛لأن الآيات التي أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله،ثم أحكمه بنسخه ذلك منه)[٨].

القول الثاني. أن معن "تمنى" ما تهواه نفسه، وتحدثه به.

وبهذا قال جمع من العلماء كمحمد بن كعب القرظي، وأبي العالية، وقتادة،

---

(١) كتاب التفسير، سورة الحج (٨٢٦).
(٢) جامع البيان (١٩٠/١٧).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٧٨).
(٤) انظر : مفاتيح الغيب، للرازي (٥٢/٢٣).
(٥) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر بن الأنباري، ت: حاتم الضامن. ط الأولى ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت. (١٥١/٢).
(٦) انظر: المصدر السابق (١٥١/٢).
(٧) سورة الحج، الآية: (٥٢).
(٨) جامع البيان، (١٩٠/١٧).

وغيرهم[1].

واختلفوا في الذي تمناه النبي ﷺ على الأقوال التالية:

١ ـ أن النبي ﷺ تمنى ألا يأتيه الوحي بما ينفر المشركين عنه.

قال محمد القرظي، ومحمد بن قيس ـ فيما ذكر ابن جرير ـ : (جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش ـ كثير أهله فتمنى ـ يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء، فينفروا عنه). وفي رواية أخرى: (تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه)[2].

وهذا هو قول البغوي والزمخشري أيضًا[3]. وعمدتهم في هذا التفسير هو روايات قصة الغرانيق.

٢ ـ أن النبي ﷺ تمنى إيمان قومه.

قال جعفر الصادق ـ فيما ذكر الغزنوي ـ : (كل نبي يتمنى إيمان قومه، فيلقي الشيطان في أمنيته بما يوسوس إلى قومه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾)[4].

وقال القاسمي: (أي رغب في انتشار دعوته، وسرعة علو شرعته)[5].

وبناءً على هذا المعنى فقد اختلف المفسرون في الكلام الذي ألقاه الشيطان.

٣ ـ أن النبي ﷺ تمنى ما يوجب اشتغاله بالدنيا.

وهو قول أبي السعود[6]. واحتج له بقوله ﷺ: **((وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة))**[7].

٤ ـ أن النبي ﷺ كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير، فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها.

وهو قول مجاهد. حكاه عنه الرازي[8].

٥ ـ أن النبي ﷺ إذا أراد فعلاً مقربًا إلى الله تعالى، ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك.

---

(١) انظر:جامع البيان،لابن جرير الطبري (١٧٦/١٧ ـ ١٧٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٤٩/٣). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٢٦/٣). والكشاف، للزمخشري (١٩/٣). وباهر البرهان، للغزنوي (٩٦١/٢). وتفسير أبي السعود (١١٣/٥).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٨٦/١٧).

(٣) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٢٢٦/٣). والكشاف، للزمخشري (١٩/٣).

(٤) باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، للغزنوي (٩٦١/٢).

(٥) محاسن التأويل، (٣٦/١٢).

(٦) انظر : تفسير أبي السعود (١١٣/٦).

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ح/٦٤٠٧. ص(١٠٩٧) بلفظ: **((والله إني لأستغفر الله))**. ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. ح/٦٨٥٨. ص(١١٧٤) بلفظ: **((مائة مرة))**.

(٨) مفاتيح الغيب، للرازي (٥٥/٢٣).

ذكر ذلك الرازي[1]. ثم قال: (وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾[2]. وكقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾[3].

وقد أبطل القرطبي أن يكون معنى "تمنى" في الآية: ما تهواه النفس وتشتهيه. فقال: (قلت: قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ﴾ الآية[4]. يرد حديث النفس) [5].

وقال الرازي: (ومن الناس من قال: لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله ﷺ فتنة للكفار، وذلك يبطله قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾.

والجواب: لا يبعد أنه إذا قوي التمني، اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه، فيصير فتنة للكفار)[6].

المسألة الثالثة. أقوال العلماء في معنى سلطان الشيطان المنفي عن المؤمنين:

ذكر العلماء في بيان معنى سلطان الشيطان المنفي عن المؤمنين معنيين:

الأول - أن معنى السلطان: الحجة الواضحة، فليس للشيطان حجة على المؤمنين. وهو قول مجاهد والطبري[7].

الثاني - أن معنى السلطان: القدرة والتسلط عليهم بإيقاعهم في ذنب لا يتوبون منه. وهو قول سفيان الثوري[8]، وابن عيينة[9]. ورجحه أبو المظفر السمعاني[10].

قال ابن القيم رحمه الله: (والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطانًا؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلط القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان

---

(١) انظر : المصدر السابق (٥٥/٢٣).
(٢) سورة الأعراف.
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٠).
(٤) سورة الحج، الآية: (٥٣).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، (٨٥/١٢).
(٦) مفاتيح الغيب، (٥٥/٢٣).
(٧) انظر: جامع البيان، للطبري (١٧٤/١٤).
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٠٢/٤). والدر المنثور، للسيوطي (١٦٦/١٤).
(٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٨/١٠).
(١٠) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٠١/٣).

لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين. قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2])[3].

وقال الشنقيطي: (فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء وغيرهما، فإنه ذهب مغفور لوقوع التوبة منه؛ فإلقاء الشيطان في أمنية النبي سواء فسرناها بالقراءة أو التمني لإيمان أمته لا يتضمن سلطانًا للشيطان على النبي، بل من جنس الوسوسة وإلقاء الشبه لصد الناس عن الحق. كقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[4])[5].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ في المسألة الأولى هو: بطلان قصة الغرانيق، وفي المسألة الثانية: أن التسلط المنفي عن الشيطان هو بمعنى الحجة، والقدرة على إيقاع الأنبياء في ذنوب لا يتوبون منها؛ وذلك لما يلي:

١٤- قوة أدلة أصحاب القولين، وسلامتها من المعارض.
١٥- دلالة سياق الآيات عليها.
١٦- أنهما قولان لجمهور العلماء.
١٧- أنهما اللائقان بمقام النبوة.
١٨- أن فيهما جمعا بن النصوص الواردة كلها.

* * *

---

(١) سورة الحجر.
(٢) سورة النحل، الآية: (١٠٠).
(٣) بدائع التفسير، (٥٨/٣).
(٤) سورة النمل.
(٥) دفع إيهام الاضطراب، (ص٢٠٩).

المبحث التاسع

آيات في تعدد شرائع الأنبياء

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[(١)]. **مع قوله تعالى:** ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[(٢)].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تشير الآية الأولى إلى أن شرائع الأنبياء مختلفة وأن لكل نبي شريعة خاصة بقومه، بينما يشير ظاهر الآية الأخرى إلى أننا مأمورون بالاقتداء بشرائع الأنبياء السابقين والاهتداء بهديهم. فكيف يقتدى بها وهي مختلفة؟ وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد بمشيئة الله ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء عند تفسير هاتين الآيتين مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على النحو الآتي:

القول الأول. أن المراد: الاقتداء بهم في التوحيد وأصول الدين، بخلاف الشرائع فإنها مختلفة.

وهو قول جمع من أهل العلم كالشافعي وغيره [(٣)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).

(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٧٤/٥). والكشاف، للزمخشري (٣٤/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٥/٧). ومفاتيح الغيب، للرازي (٧٤/١٣). والروض الريان، لابن ريان

قال ابن عطية: (الظاهر في الإشارة بـ "أولئك" أنها إلى المذكورين قبل من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: إتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه بجميعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال ـ عز وجل ـ: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾[(١)])[(٢)].

ويقول الزمخشري: (والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة، وهي هدى ما لم تنسخ فإذا نسخت لم تبق، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدًا)[(٣)].

ويرى الإمام الشافعي في المشهور من مذهبه أن شرع من قبلنا إذا لم يصرح شرعنا بنسخه ليس شرعًا لنا، يقول الشنقيطي : (وحجته ـ رحمه الله ـ قوله تعالى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾[(٤)]. وحمل ـ رحمه الله ـ الهدى في قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[(٥)] والدين في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾[(٦)] على خصوص التوحيد دون فروعه العملية.

وقال: إن الخطاب الخاص به ﷺ في نحو قوله: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[(٧)] لا يشمل الأمة إلا بدليل منفصل؛ لأنه لا يشملها في الوضع اللغوي، فإدخالها فيه صرف للفظ اللغوي عن ظاهره فيحتاج إلى دليل)[(٨)].

ويقول الرازي: (وقال آخرون: أنه تعالى إنما ذكر الأنبياء في الآية المتقدمة يبين أنهم كانوا محترزين عن الشرك، مجاهدين بإبطاله بدليل أنه ختم الآية بقوله: ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨ ﴾[(٩)]، ثم أكد إصرارهم على التوحيد

(٤٨/١).وفتح القدير للشوكاني (١٣٧/٢). ومذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (ص٢٥١).

(١) سورة المائدة، الآية: (٤٨).
(٢) المحرر الوجيز (٢٧٤/٥).
(٣) الكشاف (٣٤/٢).
(٤) سورة المائدة، الآية: (٤٨).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٦) سورة الشورى، الآية: (١٣).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٨) مذكرة أصول الفقه، (ص ٢٥١). وانظر : الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١٥٤/٤) .
(٩) سورة الأنعام.

وإنكارهم للشرك بقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

ثم قال في هذه الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي هداهم إلى إبطال الشرك، وإثبات التوحيد ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2] أي: اقتد بهم في نفي الشرك وإثبات التوحيد، وتحمل سفاهات الجهال في هذا الباب)[3].

القول الثاني . أن المراد، الاقتداء بهم في الأخلاق الحميدة، والصفات الجميلة، كالصبر ونحوه.

وهو قول لبعض أهل العلم كالزجاج، وابن ريان وغيرهم[4].

يقول الزجاج: (أي الأنبياء الذين ذكرناهم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[5] أي: اصبر كما صبروا، فإن قومهم قد كذبوهم فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، فاقتد بهم)[6].

ويقول ابن ريان: (إن المراد بذلك التوحيد والشرك والأخلاق الحميدة، والصفات الجميلة)[7].

القول الثالث . أن المراد، الاقتداء بهم في التوحيد وأصول الدين، والأخلاق الحميدة، وشرائعهم التي ثبت بشرعنا أنها شرع لمن قبلنا، ولم تنسخ في شرعنا.

وهو قول جمهور المفسرين كابن كثير والقرطبي والشوكاني وغيرهم[8].

---

(١) سورة الأنعام.
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٨٤/١٣).
(٤) انظر: جامع البيان للطبري (٢٦٥/٧). ومعاني القرآن، للزجاج (٢٧٠/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٥٦/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٧٤/١٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٥/٧). وفتح القدير، للشوكاني (١٣٧/٢). والروض الريان، لابن ريان (٤٨/١).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٦) معاني القرآن (٢٧٠/٢).
(٧) الروض الريان (٤٨/١).
(٨) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٥٦/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٧٤/١٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٥/٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٩٩/٣). وفتح القدير، للشوكاني (١٣٧/٢). وأحكام القرآن، لابن العربي (٧٤١/٢). ومذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي (ص٢٥٠، ٢٥١).

قـــال ابــن العربي: (وفيها من الأحكـام العمــل بما ظهر من أفعالهم، وأخبرنا عنهم النبي ﷺ)[1].

ويقول ابن جرير الطبري: (يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ هؤلاء القوم الذين وكلنا بآيتنا، وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من كتابه، والقيام بحدوده وإتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم ـ جل ثناؤه ـ لذلك ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[2]، يقول ـ تعالى ذكره ـ : فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم والتوفيق الذي وفقناهم، اقتده يا محمد، أي: فاعمل وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله في رضا ومنهاج من سلكه اهتدى)[3].

ويقول ابن كثير: (ثم قال تعالى ـ مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ ـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[4] أي: اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمرًا للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه لهم، ويأمرهم به.

قال البخاري عند هذه الآية: (حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هاشم، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني سليمان الأحول، أن مجاهدًا أخبره، أنه سأل ابن عباس: أفي "ص" سجدة؟فقال:نعم،ثم تلا،﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ إلى قوله:﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[5]، ثم قال: هو منهم.

زاد يزيد بن هارون، ومحمد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد قال: قلت لابن عباس فقال: نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم)[6].

ويقول الشنقيطي: (وحاصل المسألة: أن لها واسطة وطرفين، طرف يكون فيه شرعًا إجماعًا، وطرف يكون فيه غير شرع لنا إجماعًا، وواسطة هي محل الخلاف

(١) أحكام القرآن (٢/٧٤١).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٣) جامع البيان (٧/٢٦٥).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٥) سورة الأنعام، الآيات: (٨٤ ـ ٩٠).
(٦) الصحيح كتاب التفسير، باب قوله :(﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾.، ح/٤٦٣٢. ص(٧٩٢).

المذكور)[1].

ثم قال: (والواسطة: هي ما ثبت بشرعنا أنه شرع لمن قبلنا ولم يصرح بنسخه في شرعنا.

وحجة الجمهور: أنه ما ذكر لنا في شرعنا إلا لنعمل به، سواء أكان شرعًا لمن قبلنا أم لا، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة، كتوبيخه تعالى لمن لم يعقل وقائع الأمم الماضية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[2].

وقد صرح تعالى بأن الحكمة في قص أخبارهم إنما هي الاعتبار بأحوالهم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[4])[5].

وقد اعترض الشافعي ـ رحمه الله ـ على هذا القول ـ فيما حكاه الشنقيطي ـ (بحجة قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[6]، وحمل ـ رحمه الله ـ الهدى في قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[7] والدين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾[8] على خصوص التوحيد، دون فروعه العملية.

وقال: إن الخطاب الخاص به ﷺ في نحو قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[9] لا يشمل حكمه الأمة إلا بدليل منفصل؛ لأنه لا يشملها في الوضع اللغوي، فإدخالها فيه صرف للفظ اللغوي من ظاهره، فيحتاج إلى دليل)[10].

وقد رد الشنقيطي على هذا الاعتراض بقوله: (وأجيب عن استدلال الشافعي بأن النصوص دالة على شمول الهدى والدين في الآيتين للأمور العملية.

---

(١) مذكرة أصول الفقه (ص٢٥٠).
(٢) سورة الصافات.
(٣) سورة يوسف، الآية: (١١١).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٥) مذكرة أصول الفقه (ص٢٥٠، ٢٥١).
(٦) سورة المائدة، الآية: (٤٨).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٨) سورة الشورى، الآية: (١٣).
(٩) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(١٠) مذكرة أصول الفقه، للشنقيطي (ص٢٥١).

أما في الأولى: فقد روى البخاري في صحيحه عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في "ص"؟ فقال: (أو ما تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ حتى بلغ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[1]. فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ)[2].

فهو تصريح صريح عن ابن عباس أنه ﷺ قد أدخل سجود التلاوة في الهدى في قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[3]. وسجود التلاوة من الفروع العملية لا من الأصول.

وأما الدين في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾[4] فقد دل الكتاب والسنة على شموله ـ أيضًا ـ للأمور العملية، فقد قال ﷺ في حديث جبريل المشهور: **((هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم))**[5]. يعني الإسلام والإيمان والإحسان مع أنه فسر الإسلام فيه بأنه يشمل الأمور العملية كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

وفي حديث ابن عمر المتفق عليه: **((بني الإسلام على خمس))**[6] الحديث. ومعلوم أن الصلاة والزكاة والصوم والحج أمور عملية لا عقائد.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[7]. وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾[8]. فدل على أن الدين يشمل الأمور العملية كتابًا وسنة.

وبأن الأدلة دلت على أن الخطاب الخاص به ﷺ يشمل الأمة حكمه لا لفظه إلا بدليل على
الخصوص، كقوله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[9]. وقد علمنا من استقراء القرآن أن الله يخاطب نبيه ﷺ بخطاب لفظه خاص، والمقصود منه تعميم الحكم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٨٤ ـ ٩٠).
(٢) كتاب التفسير ،سورة ص ، ح/٤٨٠٧ . ص (٨٤٦) .
(٣) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٤) سورة الشورى، الآية: (١٣).
(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، ح/٩٣. ص(٢٥).
(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم ح/٨. ص(٥).
ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ح/١٦. ص(٢٩).
(٧) سورة آل عمران، الآية: (١٩).
(٨) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).
(٩) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[1] فأفهم شموله حكم الخطاب للجميع.

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ ثم قال: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَـٰنِكُمۡ﴾[2].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾[3].

وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأۡنٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾[4]. فدل التعميم بعد الخطاب الخاص به في الآيات المذكورة، على عموم حكم الخطاب الخاص به)[5].

ثم قال ـ أيضًا ـ: (وبأن قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا ۚ﴾[6] معناه: أن بعض الشرائع ينسخ فيه بعض ما كان في غيره منها، ويزاد فيها أحكام لم تكن مشروعة من قبل، وبهذا الاعتبار يكون لكل شرعة ومنهاج من غير مخالفة لما ذكرنا)[7].

ونقل الرازي اعتراض القاضي على هذا القول فقال: (قال القاضي: يبعد حمل هذه الآية على أمر الرسول بمتابعة الأنبياء عليهم السلام المتقدمين في شرائعهم لوجوه:

أحدها ـ أن شرائعهم مختلفة متناقضة، فلا يصح مع تناقضها أن يكون مأمورًا بالاقتداء بهم في تلك الأحكام المتناقضة.

وثانيها ـ أن الهدى عبارة عن الدليل دون نفس العمل، وإذا ثبت هذا فنقول: دليل ثبات شرعهم كان مخصوصًا بتلك الأوقات، لا في غير تلك الأوقات، فكان الاقتداء بهم في ذلك الهدى هو أن يعلم وجوب تلك الأفعال في تلك الأوقات فقط، وكيف يستدل بذلك على إتباعهم في شرائعهم في كل الأوقات.

وثالثها ـ أن كون ـ عليه الصلاة والسلام ـ متبعًا لهم في شرائعهم يوجب أن يكون منصبه أقل من منصبهم وذلك باطل بالإجماع، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل هذه الآية على وجوب الاقتداء بهم في شرائعهم)[8].

وقد رد الرازي على هذا الاعتراض بقوله: (والجواب عن الأول: أن قوله:

---

(١) سورة الطلاق، الآية: (١).
(٢) سورة التحريم، الآية: (١، ٢).
(٣) سورة الأحزاب.
(٤) سورة يونس، الآية: (٦١).
(٥) مذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي (ص٢٥٢، ٢٥٣).
(٦) سورة المائدة، الآية: (٤٨).
(٧) المرجع السابق (ص٢٥٣).
(٨) مفاتيح الغيب (٧٤/١٣).

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[1] يتناول الكل. فأما ما ذكرتم من كون بعض الأحكام متناقضة بحسب شرائعهم.

فنقول: ذلك العام يجب تخصيصه في هذه الصورة فيبقى فيما عداها حجة.

وعن الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام لو كان مأمورًا بأن يستدل بالدليل الذي استدل به الأنبياء المتقدمون لم يكن ذلك متابعة ؛ لأن المسلمين لما استدلوا بحدوث العالم على وجود الصانع لا يقال: إنهم متبعون لليهود والنصارى في هذا الباب؛ وذلك لأن المستدل بالدليل يكون أصيلاً في ذلك الحكم، ولا تعلق له بمن قبله البتة؛ والاقتداء الإتباع لا يحصل إلا إذا كان فعل الأول سببًا لوجوب الفعل على الثاني، وبهذا التقدير يسقط السؤال.

وعن الثالث: أنه تعالى أمر الرسول بالاقتداء بجميعهم، في جميع الصفات الحميدة، والأخلاق الشريفة، وذلك لا يوجب كونه أقل مرتبة منهم، بل يوجب كونه أعلى مرتبة من الكل)[2].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأخير؛ وذلك لما يلي:

١٩- قوة أدلة أصحابه وسلامتها من المعارض.

٢٠- دخول الأقوال الأخرى ضمنه.

٢١- أنه قول جمهور أهل العلم.

* * *

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/٧٤، ٧٥).

الفصل الثاني

آيات خاصة بالأنبياء عليهم السلام

ويحتوي على خمسة مباحث:

المبحث الأول - آيات خاصة بنوح وإبراهيم . عليهما السلام ..

المبحث الثاني - آيات خاصة بيونس . عليه السلام ..

المبحث الثالث - آيات خاصة بموسى . عليه السلام .

المبحث الرابع - آيات خاصة بعيسى . عليه السلام ..

المبحث الخامس - آيات خاصة بالنبي محمد ﷺ.

المبحث الأول

آيات خاصة بنوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[1]. **مع قوله تعالى** عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تشير الآية الأولى إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ بينما اقتصرت الآية الثانية على ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقط.

لقد دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين بالجمع بينهما :

وذلك على النحو الآتي:

يقول الشنقيطي: (والجواب ـ أن وجه الاقتصار على إبراهيم، أن جميع الرسل بعده من ذريته ، وذِكْرُ نوح معه لأمرين:

أحـدهما ـ أن كل من كان من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهو من ذرية نوح ـ عليه السلام ـ.

والثاني ـ أن بعض الأنبياء من ذرية نوح ولم يكن من ذرية إبراهيم، كهود وصالح ولوط، ويونس ـ عليهم السلام ـ على خلاف فيه، ولا ينافي ذلك الاقتصار على إبراهيم؛ لأن المراد من كان بعد إبراهيم، لا من كان قبله أو في عصره، كلوط ـ عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ)[3].

* * *

---

(١) سورة الحديد، الآية: (٢٦).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: (٢٧).

(٣) دفع إيهام الاضطراب (ص ٢٣١).

المبحث الثاني

آيات خاصة بيونس ـ عليه السلام ـ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾[١] **مع قوله تعالى:** ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾[٢].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تدل الآية الأولى على أن يونس عليه ـ عليه السلام ـ نبذ بالعراء وهو سقيم، بينما تدل الآية الثانية على أن يونس ـ عليه السلام ـ تداركته رحمة الله ـ عز وجل ـ فلم ينبذ في العراء وهو مذموم. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء مسلك الجمع بين الآيات في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين على القول الآتي:

وهو أن يونس ـ عليه السلام ـ نبذ بالعراء وهو غير مذموم، والنفي أن ينبذ وهو مذموم.

وهذا قول جمع من أهل العلم[٣].

قال أبو المظفر السمعاني: (فإن قيل: قال ههنا: ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾[٤] وقال في موضع آخر: ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ ﴾بِٱلْعَرَآءِ[٥].

وهو يدل على أنه لم ينبذ، فكيف وجه التوفيق بين الآيتين؟

---

(١) سورة الصافات.

(٢) سورة القلم.

(٣) انظر:تفسير القرآن،لأبي المظفر السمعاني (٤١٧/٤).ومعالم التنزيل،للبغوي (٦٧٩/٣).الكشاف، للزمخشري (١٤٨/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥٥/١٥). وزاد المسير، لابن الجوزي (٧٧/٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٥٤/١٨). وفتح القدير، للشوكاني (٤١١/٣). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٢٥٠). =

(٤) سورة الصافات.

(٥) سورة القلم، الآية: (٤٩).

والجواب عنه: أن الله تعالى قال في تلك الآية: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٌ ۝٤٩﴾[1]. أي: لولا رحمتنا ونعمتنا لنبذ بالعراء وهو مذموم، ولكن تداركته النعمة، فنبذ وهو غير مذموم)[2].

وقال الشوكاني: (وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: ﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾، وقوله في موضع آخر: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٌ ۝٤٩﴾ فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء. وأجاب النحاس وغيره: بأن الله سبحانه أخبر ههنا أنه نبذ بالعراء، وهو غير مذموم، ولولا رحمته ـ عز وجل ـ لنبذ بالعراء وهو مذموم)[3].

* * *

=

(١) سورة القلم.
(٢) تفسير القرآن، (٤/٤١٧).
(٣) فتح القدير، (٣/٤١١).

المبحث الثالث

آيات خاصة بموسى ـ عليه السلام ـ

المطلب الأول

آيات في عصى موسى ـ عليه السلام ـ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[1] **مع قوله تعالى:** ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[2] **وقوله تعالى:** ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾[3] الآية.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

وصفت عصى موسى في الآية الأولى بالحية وهي الأنثى من الحيات، وفي الآية الثانية وصفت العصا بأنها ثعبان، وهو الذكر الكبير العظيم من الحيات، وفي الآية الثالثة وصفت العصا كأنها جان. والجان: هي الحية الخفيفة الصغيرة في الجسم، السريعة في الحركة.

وبهذا قد يتوهم متوهم بأن بين هذه الآيات تعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء مسلك الجمع بين هذه الآيات، وذلك على الأقوال التالية:

القول الأول ـ أن خَلقها خلق الثعبان، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

والحية: اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والكبير.

وبهذا القول قال جمع من المفسرين المتقدمين والمتأخرين[4].

---

(١) سورة طه.
(٢) سورة الأعراف.
(٣) سورة النمل، الآية: (١٠).
(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٨٨/٤). وانظر: معاني القرآن الكريم، للنحاس (٧٥/٥). وتفسير

قال الزجاج: (فإن قال قائل: فكيف جاء ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾[1]، وفي موضع آخر ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[2]، والجان الصغير من الحيات.

فالجواب: في هذا ما يدل على عظم الآية، وذلك أن خلقها خلق الثعبان، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته)[3].

وقال الشنقيطي: (شبهها بالثعبان في عظم خلقتها، وبالجان في اهتزازها وخفتها وسرعة حركتها، فهي جامعة بين العظم، وخفة الحركة على خلاف العادة)[4].

القول الثاني. أنها كانت وقت انقلابها حية صغير دقيقة، ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانًا، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها.

وهذا قول بعض المفسرين. كالبغوي وابن الجوزي وغيرهم[5].

قال البغوي: (فأما الحية: فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى، وقيل: (الجان) عبارة عن ابتداء حالها، فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانًا، و(الثعبان) عبارة عن انتهاء حالها)[6].

القول الثالث. أنها انقلبت مرة حية صغيرة، ومرة حية تسعى وهي الأنثى، ومرة ثعبانًا وهو الذكر الكبير من الحيات.

وهذا القول حكاه القرطبي في تفسيره[7].

وقال الدكتور عبد الجليل شلبي: (وصف العصا بأنها جان كان عندما كلم الله موسى بجانب الطور، فهي هناك ثعبان صغير، وأمام فرعون وقومه حية تسعى)[8].

الترجيح:

القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤/٤٤). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣/١١٨). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١١/١٧٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٢/٢٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/١٦٠). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/٢٧٩). وفتح القدير، للشوكاني (٤/١٢٧). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. للشنقيطي (ص١٣٤).

(١) سورة الشعراء.
(٢) سورة النمل، الآية: (١٠).
(٣) معاني القرآن وأعرابه، (٤/٨٨).
(٤) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص١٣٤).
(٥) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٣/١١٨). وزاد المسير، لابن الجوزي (٥/١٩٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٢/٢٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/١٦٠). وتفسير أبي السعود (٦/١٠).
(٦) معالم التنزيل، (٣/١١٨).
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (١٣/١٦٠).
(٨) التعليق على كتاب (معاني القرآن وإعرابه) للزجاج (٤/٨٨).

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول ، وهو أن خلقها خلق الثعبان ، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته . وذلك لمايلي :

١ـ أنه الأقرب لظاهر الآيات .

٢ـ أنه قول أكثر المفسرين .

*   *   *

المطلب الثاني

آيات في إحلال عقدة لسان موسى ـ عليه السلام ـ .

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: وَٱحۡلُلۡ ﴿ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ ٢٨[1] **وقوله تعالى:** قَدۡ ﴿ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ ٣٦[2] مع قوله تعالى: أَمۡ ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ ٥٢[3].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآية الأولى إلى أن موسى ـ عليه السلام ـ دعا ربه بأن يحلل عقدة من لسانه، وتشير الآية الثانية إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد استجاب دعاء نبيه موسى ـ عليه السلام ـ في ذلك.

بينما تشير الآية الأخيرة إلى أن فرعون عاب موسى ـ عليه السلام ـ بعقدة لسانه، وأنه لا يكاد يبين الكلام. وذلك حينما دعاه موسى ـ عليه السلام ـ.

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأذكر ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء مسلك الجمع بين هذه الآيات، وذلك على الأقوال التالية:

---

(١) سورة طه.

(٢) سورة طه.

(٣) سورة الزخرف.

القول الأول. أن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من الله حل العقدة قدر أن يفقه قوله فاستجاب الله له ذلك بإزالة بعض آثار العقدة، وبقي القليل.

وهذا مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، والحسن البصري(١)، وهو قول جمع من المفسرين(٢).

قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾(٣): (وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه... وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية)(٤).

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾(٥).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾(٦).

قال الرازي: (وفي ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد في لسانه)(٧).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾(٨).

قال الزمخشري: (وفي تنكير العقدة، وأن لم يقل عقدة لساني، أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهمًا جيدًا، ولم يطلب الفصاحة الكاملة)(٩).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٨٢/٥).

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٠٩/٥). والكشاف، للزمخشري (٥٣٥/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٣/١٠). ومفاتيح الغيب، للرازي (٤٨/٢٢). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٣٢/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩٢/١١). وتفسير أبي السعود (١٢/٦). وفتح القدير، للشوكاني (٣٦٣/٣). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٣) سورة طه.

(٤) تفسير القرآن العظيم، (٢٨٢/٥).

(٥) سورة القصص، الآية: (٣٤).

(٦) سورة الزخرف.

(٧) مفاتيح الغيب، (٤٨/٢٢).

(٨) سورة طه.

(٩) الكشاف، (٥٣٥/٢).

القول الثاني. أن يكون زال الأثر كله، وسبه فرعون بناءً على حالته القديمة قبل الشفاء.

وهذا قول لبعض المفسرين.

قال ابن عطية: (فجائز أن يكون ذلك كله زال، وجائز أن يكون بقي منه القليل، فيجتمع أن يؤتى سؤله وأن يقول فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ ، ولو فرضناه زال جملة لكان قول فرعون سبًا لموسى ـ عليه السلام ـ لحالته القديمة) [1].

واحتج أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾[2].

وأجيب عن استدلالهم بهذه الآية بأنه: (إذا حل عقدة واحدة فقد أتاه الله سؤله).

وقد استجاب الله دعاءه فحل أكثر العقد بقدر ما يفقه قوله، وبقي شيء يسير، لا يؤثر في البيان.

وقد ضعف هذا القول الرازي والقرطبي[3].

قال الرازي بعد أن ذكر هذا القول: (وهو ضعيف؛ لأنه ـ عليه السلام ـ لم يقل واحلل العقدة من لساني، بل قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧﴾[4] فإذا أحل عقدة واحدة فقد أتاه الله سؤله)[5].

وقال القرطبي بعد أن ساق هذا القول: (وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾[6]. حين كلمه موسى بلسان ذلق فصيح) [7].

الترجيح :

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول ، وهو أن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من الله حل العقدة قدر أن يفقه قوله ، فاستجاب الله له ذلك بإزالة بعض آثار العقدة، وبقي القليل . وذلك لمايلي :

١ـ لقوة أدلته ، وسلامتها من المعارض .

٣ ـ دلالة ظاهر الآية عليه ، ودلالة الآيات الأخرى .

٢ ـ أنه قول أكثر المفسرين .

---

(١) المحرر الوجيز (٢٣/١٠).
(٢) سورة طه.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٤٨/٢٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩٣/١١).
(٤) سورة طه.
(٥) مفاتيح الغيب، (٤٨/٢٢).
(٦) سورة الزخرف.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، (١٩٣/١١).

* * *

المبحث الرابع

آيات خاصة بعيسى ـ عليه السلام ـ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: إِذْ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾كَفَرُواْ[1] **وقوله تعالى:** وَمَا ﴿ قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[2] **وقوله تعالى:** وَإِن ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾[3].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآية الأولى إلى وفاة عيسى ـ عليه السلام ـ قبل رفعه، بينما تشير الآيات الأخر إلى أنه لم يمت، ولن يموت إلا بعد نزوله آخر الزمان.

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء عند تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات وذلك على النحو التالي:

القول الأول. أن الوفاة هنا بمعنى: النوم.

وهو قول الربيع بن أنس، والحسن وغيرهم، وعزاه ابن كثير والشوكاني للأكثرين[4].

قال البغوي: (وقال الربيع بن أنس: المراد بالتوفي النوم، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائمًا إلى السماء، معناه: إني منومك ورافعك إلي، كما قال تعالى: وَهُوَ﴿ ٱلَّذِى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٣) سورة النساء، الآية: (١٥٩).

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري (٢٨٩/٣). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٢٤/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٦٠/٣). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٤٢/٣). والكشاف، للزمخشري (٤٣٣/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠٠/٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٧/٢). وتفسير أبي السعود (٤٣/٢). وفتح القدير، للشوكاني (٣٤٥/١).

يَتَوَفَّىٰكُم ﴾بِٱلَّيۡلِ[1] أي: ينيمكم)[2].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: وَهُوَ﴿ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم ﴾بِٱلنَّهَارِ[3].

٢ ـ وقوله سبحانه: ٱللَّهُ﴿ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[4].

٣ ـ وقوله سبحانه: وَقَوۡلِهِمۡ﴿ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ ۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴾﴿١٥٩﴾[5].

قال ابن كثير: (والضمير في قوله: قَبۡلَ﴿ مَوۡتِهِۦ ۖ﴾ عائد على عيسى ـ عليه السلام ـ أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة)[6].

٤ ـ ما رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان يقول إذا قام من النوم: **((الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور))**[7].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٦٠).
(٢) معالم التنزيل، (٣/٣٦٠).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (٦٠).
(٤) سورة الزمر.
(٥) سورة النساء.
(٦) تفسير القرآن العظيم، (٢/٤٧).
(٧) كتاب الدعوات، باب: ما يقول إذا نام، ح/٦٣١٢، ٦٣١٤ ص (١٠٩٨)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب: الدعاء عند النوم ح/٢٧١١ من حديث البراء رضي الله عنه.

٥ ـ ذكر الطبري قول الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: **((إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة))**(١).

القول الثاني ـ أن الوفاة هنا بمعنى: القبض، أي: قابضك من الأرض، فرافعك إلي.

وهو قول جمهور المفسرين(٢)، وهو الصحيح من قول ابن عباس.

قال الحسن البصري ـ فيما ذكر ابن جرير ـ : (معناه: إني قابضك من الأرض)(٣).

وقال أبو المظفر السمعاني:(وهو صحيح عند أهل اللغة، فيقال:توفيت حقي من فلان.أي: قبضت)(٤).

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾(٥).

قال البغوي: (أي قبضتني إلى السماء وأنا حي؛ لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه إلى السماء لا بعد موته)(٦).

٢ ـ ما رواه ابن جرير بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **((الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه خليفتي على أمتي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر كأن شعره يقطر ـ وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين، يدق الصليب ويقتل الخنزير، ويفيض المال، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها، ويهلك الله في زمانه مسيخ الضلالة الكذاب الدجال، وتقع في الأرض الأمنة حتى ترتع الأسود مع**

---

(١) جامع البيان، للطبري (٢٨٩/٣) وقال أحمد شاكر: هو أثر مرسل. وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٧/٢). والسيوطي (٣٦/٢).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٨٩/٣ ـ ٢٩٠). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٢٤/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٥٩/١). والكشاف، للزمخشري (٤٣٢/١). وباهر البرهان، للغزنوي (٢٩٦/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٧/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٤٣/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٧٥/٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠٠/٤). وتفسير أبي السعود (٤٣/٢). وفتح القدير، للشوكاني (٣٤٤/١). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٥٢، ٥٣).

(٣) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٨٧/٣).

(٤) تفسير القرآن، (٣٢٤/١).

(٥) سورة المائدة.

(٦) معالم التنزيل (٣٥٩/١).

الإبل، والنمر مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان بالحيات، لا يضر بعضهم بعضًا، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي المسلمون عليه ويدفنونه))[1].

٣ ـ قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾[2]. قال ابن جرير : (ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله ـ عز وجل ـ لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى، فيجمع عليه ميتتين؛ لأن ـ الله عز وجل ـ إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم) [3].

٤ ـ ما رواه ابن جرير بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **((ليهبطن الله عيسى ابن مريم حكمًا عدلاً، وإمامًا مقسطًا، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يجد من يأخذه، وليسلكن الروحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليُثنين بهما جميعًا))**[4].

القول الثالث ـ أن الوفاة في هذه الآية بمعنى: الموت.

وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[5].

وهذا القول يحتمل وجهين:

الوجه الأول ـ أن ـ الله سبحانه وتعالى ـ توفاه ثم رفعه بعد ذلك إلى السماء[6].

ذكر ابن جرير قول وهب بن منبه: (توفى الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه)[7].

---

(١) جامع البيان (٢٩١/٣) قال أحمد شاكر: إسناده ضعيف وأصل الحديث صحيح. ورواه الإمام أحمد في مسنده ح/٩٢٥٩ (٤٠٦/٢) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، ورواه إسحاق بن راهوية في مسنده، ت: عبد الغفور البلوشي، ط الأولى ١٤١٥هـ، مكتبة الإيمان، المدينة النبوية ح/٤٣ (١٢٤/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ط مكتبة المعارف، الرياض ح/٢١٨٢ (٢١٤/٥).

(٢) سورة الروم. الآية: (٤٠).

(٣) جامع البيان، (٢٩١/٣).

(٤) جامع البيان، (٢٩١/٣).

(٥) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٩٠/٣).

(٦) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٩٠/٣). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٢٤/١). ومعالم التنزيل،للبغوي (٣٦٠/١).ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤٢٠/١). والكشاف، للزمخشري (٤٣٣/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٤٣/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٧٤/٨ ـ ٧٥). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٧/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠٠/٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٧/٢). وتفسير أبي السعود (٤٣/٢). وفتح القدير للشوكاني (٣٤٣/١ ـ ٣٤٤).

(٧) جامع البيان، (٢٩١/٣).

كما ذكر قول ابن إسحاق: (والنصارى يزعمون أنه توفاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه الله)[1].

الوجه الثاني - أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا فيكون المعنى: إني رافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا. وهذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.

وهو قول جمع من العلماء كالزجاج والفراء والضحاك وغيرهم[2].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ - قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾[3].

٢ - ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله: (﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ يقول: إني مميتك)[4].

وقد ضعف الوجه الأول ابن جرير الطبري. فقال: (ومعلوم أنه لو كان قد أماته - الله عز وجل - لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى، فيجمع عليه ميتتين؛ لأن الله - عز وجل - إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم، كما قال - جل ثناؤه - : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ ﴾[5])[6].

وقال القرطبي - بعد أن أورد الوجه الأول -: (وهذا فيه بعد؛ فإنه صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله و قتله الدجال)[7]. وممن صرح بتضعيفه الشوكاني[8].

القول الرابع - أن الوفاة هنا بمعنى: مستوفي أجلك، ومتم عمرك، وذلك بعصمتك من قتل أعدائك، ومؤخرك إلى أجلك المقدر، ومميتك بعد ذلك لا قتلاً بأيديهم.

وهو اختيار الزمخشري، وأبي السعود، والقاسمي، وغيرهم[9].

---

(١) جامع البيان، (٢٩١/٣).
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤٢٠/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٣٧/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٦٠/١). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٦/٢).
(٣) سورة السجدة، الآية: (١١).
(٤) جامع البيان، (٢٩٠/١).
(٥) سورة الروم، الآية: (١١).
(٦) جامع البيان، (٢٩١/٣).
(٧) الجامع لأحكام القرآن، (١٠٠/٤).
(٨) انظر: فتح القدير، (٣٤٥/١).
(٩) انظر:الكشاف، للزمخشري (٤٣٢/١).وتفسير أبي السعود (٤٣/٢).ومحاسن التأويل، للقاسمي

قال القاسمي: (أي: مستوفي مدة إقامتك بين قومك. والتوفي كما يطلق على الإماتة كذلك يطلق على استيفاء الشيء. كما في كتب اللغة. ولو أدعى أن التوفي حقيقة في الأول، والأصل في الإطلاق الحقيقة. فنقول: لا مانع من تشبيه سلب تصرفه ـ عليه السلام ـ بأتباعه، وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسلب الحياة)[١].

القول الخامس. أن الوفاة هنا بمعنى: متقبل عملك.

وقد أورد هذا المعنى ابن عطية وضعفه. فقال: (وهذا ضعيف من جهة اللفظ)[٢].

قال الرازي: (الوجه التاسع: أن يقدر فيه حذف المضاف، والتقدير: متوفي عملك. بمعنى مستوفي عملك، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: ورافع عملك إلي، وهو كقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٣]. والمراد من هذه الآية: أنه

تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه) [٤].

القول السادس. أن الوفاة هنا بمعنى: أخذ الشيء وافيًا.

قال الرازي: (ولما علم الله إن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام؛ ليدل على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده. ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٍ﴾[٥])[٦].

القول السابع. أن الوفاة هنا بمعنى: أجعلك كالمتوفي.

قال الرازي: (لأنه إذا رفع إلى السماء، وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفي، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن)[٧].

وقال القاسمي: (ولو ادعى أن التوفي حقيقة في الأول، والأصل في الإطلاق

(١٠٦/٤). مفاتيح الغيب، للرازي (٧٥/٨). وفتح القدير للشوكاني (٣٤٤/١).

(١) محاسن التأويل، (١٠٧/٤).
(٢) المحرر الوجيز، (١٤٣/٣).
(٣) سورة فاطر، الآية: (١٠).
(٤) مفاتيح الغيب، (٧٥/٨).
(٥) سورة النساء، الآية: (١١٣).
(٦) مفاتيح الغيب، (٧٥/٨).
(٧) مفاتيح الغيب، (٧٥/٨).

الحقيقة. فنقول: لا مانع من تشبيه سلب تصرفه ـ عليه السلام ـ بأتباعه وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسلب الحياة. وهذا الوجه ظاهر جدًا، وله نظائر في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾[(١)].

قال الزمخشري: يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي يتوفاها حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ ﴾[(٢)]؛ حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك)[(٣)].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الثاني والسادس وهو أن المراد بالتوفي هنا: القبض. أي: قابضك من الأرض إلى السماء ،بروحه وجسده؛ وذلك لما يلي:

١ـ قوة أدلة أصحاب هذا القول، وسلامتها من المعارض.
٢ـ دخول كثير من الأقوال المذكورة ضمن هذا القول.
٣ـ أن فيه جمعًا بين الآيات القرآنية المتعلقة بهذه المسألة.
٤ـ أنه قول جمهور أهل العلم.

* * *

المبحث الخامس

آيات خاصة بالنبي محمد ﷺ

المطلب الأول

آيات تتعلق بطاعة الرسول ﷺ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٤٢).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٦٠).
(٣) محاسن التأويل، (٤/١٠٧ ـ ١٠٨).

قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[١]. مع **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٢].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

في الآية الأولى الأمر بطاعة الرسول ﷺ مطلقًا، بينما يشير ظاهر الآية الثانية إلى أن طاعة الرسول ﷺ واستجابته مقيدة بما فيه حياتنا؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾.

وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

القول الأول. استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم للإيمان والإسلام.

وينسب هذا القول للسدي[٣]، ومجاهد[٤].

قال السدي فيما ذكر ابن جرير: (لما يحييكم، فهو الإسلام، أحياهم بعد موتهم، بعد كفرهم)[٥].

وقد ضعف هذا القول ابن جرير الطبري حيث قال: (وأما قول من قال: معناه الإسلام فقول لا معنى له؛ لأن الله قد وصفهم بالإيمان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٦]، فلا وجه لأن يقال للمؤمن: استجب لله وللرسول إذا دعاكم إلى الإسلام والإيمان)[٧].

وقال ابن عطية: (ويضعف من جهة أن من آمن لا يقال له: ادخل في الإسلام) [٨].

---

(١) سورة الحشر، الآية: (٧).
(٢) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١٣/٩).
(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٠/٣).
(٥) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١٣/٩).
(٦) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).
(٧) جامع البيان، (٢١٤/٩).
(٨) المحرر الوجيز، (٢٥٨/٦).

القول الثاني: إذا دعاكم للقرآن وما فيه من علوم الشريعة والأوامر والنواهي، وهو قول كثير من المفسرين[1].

قال قتادة فيما رواه ابن جرير: (﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾: هو هذا القرآن فيه الحياة والعفة والعصمة في الدنيا والآخرة)[2].

وقال الزمخشري: (﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾: من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت)[3].

وقال الشوكاني: (أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة؛ فإن العلم حياة كما أن الجهل موت، فالحياة هنا: مستعارة للعلم. قال الجمهور من المفسرين: المعنى: استجيبوا للطاعة، وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية)[4].

القول الثالث: إذا دعاكم للحرب، وجهاد العدو، وهو قول جمع من العلماء كابن إسحاق، وابن قتيبة، وغيرهم[5].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

١ - ما رواه ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم[6].

٢ - أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار[7]، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[8].

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١٤/٩)؛ زاد المسير، لابن الجوزي (٢٣٠/٣)؛ معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤٠٩/٢)؛ الكشاف، للزمخشري (١٥٢/٢)؛ تفسير أبي السعود (١٦/٤).فتح القدير، للشوكاني (٢٩٩/٢).

(٢) جامع البيان، (٢١٤/٩).

(٣) الكشاف، (١٥٢/٢).

(٤) فتح القدير، (٢٩٩/٢).

(٥) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١٤/٩)؛ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص١٥١)؛ تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٥٧/٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٥/٤).

(٦) الدرر المنثور، للسيوطي (٤٤/٩).

(٧) انظر : مفاتيح الغيب، للرازي (١٥٢/١٥).

(٨) سورة البقرة، الآية: (١٧٩).

٣ ـ أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[(١)].

٤ ـ أن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة معدن الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾[(٢)]، أي: الحياة الدائمة[(٣)].

القول الرابع. إذا دعاكم للشهادة.

ويعزى هذا القول للنقاش[(٤)(٥)]، والقتيبي[(٦)].

واحتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[(٧)].

القول الخامس. إذا دعاكم للحق، وما يصلحكم.

وهو قول مجاهد، واختيار أكثر المفسرين[(٨)].

قال البخاري: (﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾: أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾: لما يصلحكم) واستدل بما رواه بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال: (كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: **((ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾[(٩)] ثم قال: **((لأعلمنك**

---

(١) سورة آل عمران.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: (٦٤).
(٣) مفاتيح الغيب، للرازي (١٥٢/١٥).
(٤) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٥٨/٦).
(٥) هو إبراهيم بن الحسن الأشعري النقاش ،مقرئ مشهور،عاش في القرن الثالث ، انظر غاية النهاية(١٠/١).
(٦) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٢١٠/٢).
(٧) سورة آل عمران.
(٨) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١٤/٩)؛ أحكام القرآن، لابن العربي (٨٤٥/٢)؛ مفاتيح الغيب، للرازي (١٥٢/١٥)؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٩٠/٧)؛ محاسن التأويل؛ للقاسمي (٣٤/٨).
(٩) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).

أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج)) فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له وقال: **((هي** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١) **السبع المثاني))**(٢).

وقال ابن جرير الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق، وذلك أن ذلك إذا كان معناه كان داخلاً فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو، والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا، فيقال: الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة. وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنات والخلود فيها)(٣).

وقال ابن العربي: (وإنما يريد به حياة المعاني والقلوب بالإفهام بدعائه إياهم إلى الإسلام والقرآن والحق والجهاد والطاعة والألفة) (٤).

وقال الرازي: (﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ أي: لكل حق وصواب، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة، والمراد منه قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ الحياة الطيبة الدائمة. قال تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾(٥))(٦).

وقال القرطبي ـ بعد أن حكى الأقوال في معنى الآية ـ: (والصحيح العموم كما قال الجمهور)(٧).

وقال ابن القيم: (والآية تتناول هذا كله؛ فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة)(٨).

وقال القاسمي: (والأظهر أن يعنى بـ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة، فيدخل فيه ما تقدم وغيره)(٩).

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: (٢).
(٢) الصحيح ،كتاب التفسير، باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ ح/٤٦٤٧. (ص٧٩٦).
(٣) جامع البيان، (٩/٢١٤).
(٤) أحكام القرآن، (٩/٨٤٥).
(٥) سورة النحل، الآية: (٩٧).
(٦) مفاتيح الغيب، (١٥/١٥٢).
(٧) الجامع لأحكام القرآن، (٧/٣٩٠).
(٨) بدائع التفسير، (٢/٣٣٢).
(٩) محاسن التأويل، (٨/٣٤).

وقال الشنقيطي ـ مبينًا عدم تعارض الآيتين ـ: (والظاهر أن وجه الجمع ـ والله تعالى أعلم ـ أن آيات الإطلاق مبينة أنه ﷺ لا يدعونا إلا إلى ما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة، فالشرط المذكور في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ متوفر في دعاء النبي ﷺ لمكان عصمته، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1].

والحاصل أن آية: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2] مبينة أنه لا طاعة إلا لمن يدعو إلى ما يرضي الله، وأن الآيات الأخر بينت أن النبي ﷺ لا يدعو أبدًا إلا إلى ذلك ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ)[3].

الترجيح :

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأخير ، وذلك لما يلي :

١ـ قوة أدلته ، وسلامتها من المعارض .
٢ـ دلالة السنة عليه .
٣ـ جمعه للأقوال الأخرى .
٤ـ أنه قول أكثر المفسرين .

* * *

---

(١) سورة النجم.
(٢) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).
(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص١٣٦).

المطلب الثاني

آيات في اجتهاد الرسول ﷺ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: وَمَا ﴿ يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1]. **مع قوله تعالى:** عَفَا ﴿ ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ ﴾لَهُمْ[2]، **وقوله تعالى:** ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾[3].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

يشير ظاهر الآية الأولى إلى أن النبي ﷺ لا يجتهد في شيء، بينما تدل الآيتان الأخريان إلى أن النبي ﷺ، ربما اجتهد في بعض الأمور.

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء مسلك الجمع بين الآيات في تفسيرهم هذه الآيات، وذلك على الأقوال التالية:

القول الأول ـ أن معنى قوله تعالى: وَمَا ﴿ يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾[4] أي: في كل ما يبلغه عن الله، إِنْ﴿ ﴾هُوَ أي: كل ما يبلغه عن الله إِلَّا﴿ ﴾وَحْيٌ من الله؛ لأنه لا يقول على الله شيئًا إلا بوحي منه.

فالآية رد على الكفار الذين قالوا: إن النبي ﷺ افترى هذا القرآن.

---

(١) سورة النجم.

(٢) سورة التوبة، الآيَة: (٤٣).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٦٧).

(٤) سورة النجم.

وهو قول جمهور المفسرين[١].

قال ابن عطية: (يراد به القرآن بإجماع) [٢]. وقال ابن القيم: (ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٣] فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى) [٤].

وقال الزمخشري: (ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء، ويجاب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند إليه كله وحيًا لا نطقًا عن الهوى) [٥].

القول الثاني. أن النبي ﷺ إن اجتهد، فإنه إنما يجتهد بوحي من الله يأذن له به في ذلك الاجتهاد، وعليه فاجتهاده بوحي فلا منافاة.

قال الشنقيطي: (ويدل لهذا الوجه، أن اجتهاده في الإذن للمتخلفين عن غزوة تبوك، أذن الله له فيه حيث قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [٦] فلما أذن للمنافقين عاتبه بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٤٣﴾[٧].

فالاجتهاد في الحقيقة إنما هو الإذن قبل التبين، لا في مطلق الإذن للنص عليه.

ومسألة اجتهاده ﷺ وعدمه من مسائل الخلاف المشهورة عند علماء الأصول، وسبب اختلافهم هو تعارض هذه الآيات في ظاهر الأمر.

والذي يظهر أن التحقيق في هذه المسألة، أنه ﷺ ربما فعل بعض المسائل من غير وحي في خصوصه، كإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم، وكأسره لأسارى بدر، وكأمره بترك تأبير النخل، وكقوله: **((لو استقبلت من أمري ما**

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٤٢/٢٧). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٥٠/٤). والكشاف، للزمخشري (٢٨/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٨٥/١٤). والجامع لأحكام القرآن. للقرطبي (٨٤/١٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٤٢/٧). وبدائع التفسير، لابن القيم (٢٧٦/٤ - ٢٧٧). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٢٢٢/١٥). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٢٧٦).

(٢) المحرر الوجيز، (٨٥/١٤).

(٣) سورة النجم.

(٤) بدائع التفسير، (٢٧٦/٤ - ٢٧٧).

(٥) الكشاف، (٢٨/٤).

(٦) سورة النور، الآية: (٦٢).

(٧) سورة التوبة.

استدبرت))[1] الحديث إلى غير ذلك.

وأن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾[2] لا إشكال فيه؛ لأن النبي ﷺ لا ينطق بشيء من أجل الهوى، ولا يتكلم بالهوى.

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾[3] يعني: أن كل ما يبلغه عن الله فهو وحي من الله لا بهوى، ولا بكذب، ولا افتراء، والعلم عند الله)[4].

الترجيح :

وبعد النظر في القولين السابقين يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول ، وذلك لما يلي :

١ـ دلالة ظاهر الآية عليه .
٢ـ دخول القول الثاني فيه .
٣ـ أنه قول جمهور المفسرين .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه. كتاب التمني، باب: لو استقبلت من أمري ما استدبرت. ح/٧٢٢٩ ـ٧٢٣٠ . ص (١٢٤٥).
(٢) سورة النجم.
(٣) سورة النجم.
(٤) دفع إيهام الاضطراب، (ص٢٧٦ ـ ٢٧٧).

المطلب الثالث

آيات في مغفرة ذنوب النبي ﷺ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾[1] **مع قوله تعالى**: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تشير الآية الأولى إلى أن النبي ﷺ لا يعلم مصير أمره، وما يفعل به، بينما تدل الآية الآخرى على أنه عالم بمصيره، وأن مآله وعاقبة أمره إلى خير، وذلك بمغفرة ذنوبه جميعًا.

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يرفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء عند تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات ، وذلك على النحو الآتي :

القول الأول . أن الخطاب عني به الرسول ﷺ، وقيل له: قل للمؤمنين بك، ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة، وإلى ما نصير هنالك؟ وقالوا: ثم بين الله لنبيه وللمؤمنين به حالهم في الآخرة. فقيل له: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وهو قول ابن عباس، والحسن البصري، وقتادة فيما ذكره ابن جرير[3]، ويعزوه القرطبي إلى أنس بن مالك، وعكرمه، والضحاك[4].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٩).

(٢) سورة الفتح، الآية: (١).

(٣) انظر: جامع البيان، (٦/٢٦).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (١٨٥/١٦).

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾[1]، فأنزل الله بعد هذا: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2])[3].

٢ ـ ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أم العلاء قالت: (طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكن المهاجرين عثمان بن مظعون، فاشتكى عثمان عندنا فمرضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل عليه رسول الله، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: **((وما يدريك أن الله أكرمه؟))** فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي. فقال رسول الله ﷺ: **((أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي))** قالت: فقلت: والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا. وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينًا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: **((ذاك عمله))**[4].

وقد ضعف هذا القول ابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والنحاس.

فقال ابن جرير الطبري: (فمحال أن يقال للنبي ﷺ: قل للمشركين ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب الله عز وجل في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأن المشركين في النار مخلدون، والمؤمنون في الجنات منعمون، وبذلك يرهبهم مرة، ويرغبهم أخرى، ولو قال لهم ذلك لقالوا له: فعلام نتبعك إذن وأنت لا تدري إلى أي حال تصير غدًا في القيامة، إلى خفض ودعة، أم إلى شدة وعذاب...)[5].

وذكر القرطبي قول النحاس: (محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين:

أحدهما: أنه خبر.

والآخر: أنه من أول السورة إلى هذا الموضع خطاب للمشركين كما كان قبله وما بعده، ومحال أن يقول النبي ﷺ للمشركين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ ولم يزل ﷺ من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة)[6].

وقال ابن كثير: (فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد ـ ثم ساق الحديث ـ فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: **((ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي))**

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٩)

(٢) سورة الفتح. الآية: (١)

(٣) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٧/٢٦). وانظر : تفسير القرآن العظيم (٢٧٦/٧). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٣٥/٧) لابن المنذر ، وابن مردويه.

(٤) كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام ح/٧٠١٨. ص (١٢١٠).

(٥) جامع البيان (٨/٢٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨٦/١٦).

وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها: (فأحزنني ذلك))[1].

القول الثاني. أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ﴾[2] أي: في الدنيا، وقد اختلف العلماء في توجيه هذا القول على وجهين:

الوجه الأول. أن قول الرسول ﷺ للمشركين من قومه أنه لا يدري إلى ما يصير أمره وأمرهم في الدنيا، أيصير أمره معهم أن يقتلوه أو يخرجوه من بينهم، أو يؤمنوا به فيتبعوه، وأمرهم إلى الهلاك أو التصديق فيما جاءهم به من عند الله، وهذا ما ذهب إليه جمع من المفسرين كالحسن البصري، والسدي، والنحاس، وغيرهم[3].

قال الحسن البصري فيما ذكر ابن جرير في قوله تعالى:﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ﴾[4]: (أما في الآخرة فمعاذ الله قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أُخرج كما أُخرجت الأنبياء قبلي، أو أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم أمتي المكذبة، أم أمتي المصدقة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفًا، أم مخسوف بها خسفًا. ثم أوحى إليه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾[5] يقول: أحطت لك بالعرب ألا يقتلوك فعرف أنه لا يقتل، ثم أنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾[6]، يقول: أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الأديان، ثم قال له في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[7]، فأخبره الله ما يصنع به، وما يصنع بأمته)[8].

وذكر القرطبي قول النحاس: (فوجب أن يكون هذا أيضًا خطابًا للمشركين كما كان

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٧٧).
(٢) سورة الأحقاف، الآية: (٩).
(٣) انظر:جامع البيان،لابن جرير (٢٦/٨).والجامع لأحكام القرآن،للقرطبي (١٦/١٠).وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/٢٧٦، ٢٧٧).
(٤) سورة الأحقاف، الآية: (٩).
(٥) سورة الإسراء، الآية: (٦٠).
(٦) سورة الفتح.
(٧) سورة الأنفال.
(٨) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٦/٨).

قبله وما بعده)[1] ثم قال: (والصحيح في الآية قول الحسن، كما قرأ علي بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا أبو بكر الهذلي عن الحسن: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا قال أبو جعفر: وهذا أصح قول وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة، ورخص وغلاء، وغنى وفقر، ومثله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[2])[3].

وذكر الواحدي وغيره عن الثعلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجًا مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك. فقالوا: يا رسول الله، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾[4] أي: لا أدري أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا. ثم قال: (**(إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي)**) أي: لم يوح إلي ما أخبرتكم به[5]. قال القشيري: (فعلى هذا لا نسخ في الآية)[6].

وقال ابن جرير الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، وأشبهها بما دل عليه التنزيل، القول الذي قاله الحسن البصري الذي رواه عنه أبو بكر الهذلي.

وإنما قلنا ذلك أولاها بالصواب؛ لأن الخطاب من مبتدأ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله ـ عز وجل ـ خطابًا للمشركين وخبرًا عنهم، وتوبيخًا لهم، واحتجاجًا من الله ـ تعالى ذكره ـ لنبيه ﷺ، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن هذه الآية أيضًا سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم أو خبر عنهم)[7].

وقال ابن كثير: (وهذا القول ـ أي قول الحسن البصري ـ هو الذي عول عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨٦/١٦).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٨٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨٦/١٦).
(٤) سورة الأحقاف، الآية: (٩).
(٥) الناسخ والمنسوخ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ص٢٨٣، ٢٨٤).
(٦) الجامع في أحكام القرآن، للقرطبي (١٨٦/١٦).
(٧) جامع البيان، (٨/٢٦).

فيستأصلون بكفرهم؟)[1].

الوجه الثاني - أن معنى الآية: وما أدري ما يفترض علي وعليكم، أو ينزل من حكم، غير الثواب والعقاب**[2]**.

قال أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡۖ﴾: (أي: أي شيئ يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله، وما يقدره لنا من قضاياه)**[3]**.

الترجيح :

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح - والله أعلم - هو القول الوجه الأول من القول الثاني ، وذلك لما يلي :

١- دلالة سياق الآيات عليه .

٢- معرفة النبي ﷺ بأن مصيره إلى الجنة .

٣- أنه قول كثير من المفسرين .

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٧/٢٧٦).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٦/٨).

(٣) تفسير أبي السعود (٨/٧٩).

المطلب الرابع

آيات تنفي سؤال الرسول ﷺ أمته الأجر الدنيوي على تبليغ الرسالة

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ الآية[1]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]، **وقوله تعالى:** ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[4]، **وقوله تعالى:** ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[5]. **مع قوله تعالى:** ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾[6].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تدل الآيات الأولى على أن النبي ﷺ لا يسأل أمته أجرًا دنيويًا على تبليغ الرسالة، بينما يشير ظاهر الآية الأخيرة إلى أنه ﷺ يسأل أمته المودة في القربى، وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد - بمشيئة الله - من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات على النحو التالي:

---

(١) سورة سبأ، الآية: (٤٧).
(٢) سورة ص، الآية: (٨٦).
(٣) سورة الطور، الآية: (٤٠).
(٤) سورة الفرقان، الآية: (٥٧).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).
(٦) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

١. **تفسير قول الله تعالى:** قُلۡ﴿ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾[1]:

قال ابن كثير: (يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين: مَا﴿ سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ ﴾لَكُمۡ أي: لا أريد منكم جعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله إِنۡ﴿ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله)[2].

فالمراد من قوله تعالى: مَا﴿ سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ ﴾لَكُمۡ: نفي السؤال بالكلية، كما يقول القائل: ما أملكه في هذا فقد وهبته لك، يريد أنه لا ملك له أصلاً، وهذا هو قول جمهور المفسرين[3].

وقيل: إن (ما) موصولة في قوله تعالى: مَا﴿ ﴾سَأَلۡتُكُم أي: أريد بها ما سألهم بقوله تعالى: مَآ﴿ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾سَبِيلاً[4]، وقوله تعا : لَّآ﴿ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾[5] [6].

٢ . **تفسير قوله تعالى:** قُل﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾[7]:

للعلماء في تفسير هذه الآية خمسة أقوال:

القول الأول . أن الآية مكية نزلت في صدر الإسلام، ومعناها استكفاف شر الكفار ودفع أذاهم، ويكون المراد: أي إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني

---

(١) سورة سبأ، الآية: (٤٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٢٦/٦).

(٣) انظر: تفسير القرآن، للزجاج (٢٥٧/٤). تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٤٠/٤). ومعالم التنزيل، للبغوي (٦١٢/٣). والكشاف، للزمخشري (٢٩٥/٣). والمحرر الوجيز لابن عطية (٢٠٣/١٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٤٢/٦). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٧٠/٢٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣١٢/١٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٢٦/٦). والدر المنثور، للسيوطي (٧١٠/٦ـ٧١١). وتفسير أبي السعود (١٣٨/٧). وفتح القدير، للشوكاني (٣٣٤/٤).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (٥٧).

(٥) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

(٦) انظر:الكشاف،للزمخشري (٢٩٥/٣).وتفسير أبي السعود (١٣٨/٧).ومحاسن التأويل،للقاسمي (٣٤/١٤).

(٧) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

أذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم. وعلى هذا فالمراد بالقربى هنا (قرابة الرحم).

وهذا القول مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وبه قال جمع من المفسرين كمجاهد، وقتادة، وعكرمة، وغيرهم[1].

والاستثناء في هذه الآية منقطع، أي: لا أسألكم أجرًا قط، إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني. وقيل: يجوز أن يكون الاستثناء متصلاً، أي: إلا أن تودوني لقرابتي بينكم.

قال الزجاج فيما ذكره القرطبي: (﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ استثناء ليس من الأول، أي إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني)[2].

وقال عكرمة فيما ذكره القرطبي: (وكانت قريش تصل أرحامها، فلما بعث النبي ﷺ قطعته؛ فقال: **((صلوني كما كنتم تفعلون))**. فالمعنى على هذا: قل لا أسألكم عليه أجرًا، لكن أذكركم قرابتي؛ على استثناء ليس من الأول)[3].

وقال الزمخشري: (روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا؟ فنزلت الآية ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4]

يجوز أن يكون استثناء متصلاً: أي لا أسألكم أجرًا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي، ولم يكن هذا أجرًا في الحقيقة لأن قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة.

ويجوز أن يكون منقطعًا: أي: لا أسألكم أجرًا قط، ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذونهم)[5].

وقال البغوي: (وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ليس باستثناء متصل بالأول حتى يكون ذلك أجرًا في مقابلة أداء الرسالة، بل هو منقطع. ومعناه: ولكني أذكركم المودة في القربى وأذكركم قرابتي منكم)[6].

وقال ابن عطية: (وعلى كل قول فالاستثناء منقطع، وإلا بمعنى لكن)[7].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لأبي المظفر السمعاني (٧٣/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٨٠/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢١/١٦). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٩٩/٧). وتفسير أبي السعود (٣٠/٨). والدر المنثور، للسيوطي (٣٥٠/٧). وفتح القدير، للشوكاني (٥٣٤/٤). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٣٠٥/١٤). وأضواء البيان، للشنقيطي (١٩٠/٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٢١/١٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢١/١٦).

(٤) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

(٥) الكشاف، (٤٦٦/٣).

(٦) معالم التنزيل، (٨١/٤).

(٧) المحرر الوجيز، (١٦٤/١٣).

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سئل عن قوله تعالى: إِلَّا﴿ ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[١] فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: **((إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة))**[٢].

٢ـ ما رواه الطبراني بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: **((لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم))**[٣].

٣ ـ أن هذه الآية مكية. قال ابن تيمية: (إن هذه الآية في سورة الشورى، وهي مكية باتفاق أهل السنة)[٤].

القول الثاني ـ أن الآية مدنية نزلت في الأنصار، ومعناها: إلا أن تودوني فتراعوني في قرابتي وتحفظوني فيهم.

وهذا القول مذكور عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسعيد بن جبير، وعمرو ابن شعيب ، والسدي، وهو مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضًا. وإليه مال الزمخشري[٥].

قال ابن كثير: (وقال السدي عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين أسيرًا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام. فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرني الفتنة.فقال له علي بن الحسين:أقرأت القرآن؟قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم! قال: ما قرأت قُل﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[٦]؟ قال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نعم.

---

(١) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

(٢) كتاب التفسير، باب قوله: قُل﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ ، ح/٤٨١٨، (ص ٨٥١).

(٣) المعجم الكبير ح/١٢٢٣٣ (٤٣٥/١١).

(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ت محمد رشاد سالم، ط الأولى ١٤٠٦هـ، مؤسسة قرطبة (٩٩/٧).

(٥) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر المسعاني (٧٤/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٨٠/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٦٢/١٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢١/١٦). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٠٠/٧). والكشاف (٦١٧/٣). وتفسير أبي السعود (٣٠/٨). وفتح القدير للشوكاني (٥٣٤/٣). وأضواء البيان، للشنقيطي (١٩٠/٧).

(٦) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

وقال أبو إسحاق السبيعي: (سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1] فقال: قربى النبي ﷺ) [2].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت الأنصار فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس ـ أو العباس، شك عبد السلام ـ لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: **((يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟))** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **((ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟))** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **((أفلا تجيبوني؟))** قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: **((ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ ألم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟))** قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[3])[4].

٢ ـ ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[5]قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: **((فاطمة وولدها** ـ عليهم السلام ـ**))**[6].

٣ ـ ما ورد من نصوص نبوية تبين فضل آل بيت النبي ﷺ ومنها على سبيل المثال: ما رواه مسلم في صحيحه بسنده أن النبي ﷺ قال في خطبته بغدير خم: **((وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور))** ثم قال: **((وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي))** الحديث[7].

٤ ـ ما ورد من نصوص شرعية توجب المودة والمولاة والمحبة بين المسلمين، ومنها على سبيل المثال:

---

(١) سورة الشورى، الآية: (٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٢٠٠/٧).
(٣) سورة الشورى، الآية: (٢٣).
(٤) جامع البيان (١٦/٢٥).
(٥) سورة الشورى، الآية: (٢٣).
(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير ح/٢٦٤١ (٤٧/٣). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح/٤٩٧٤ (٤٧٨/١٠).
(٧) كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ح/٢٤٠٨ ص (١٠٦١).

أ ـ قوله تعالى: وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ (1).

ب ـ ومنها قوله ﷺ : **((مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))**(2).

ج ـ وقوله ﷺ: **((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))**(3) وغيرها كثير.

وإذا كان هذا في حق المسلمين عمومًا، فإنه في حق آل بيت النبي ﷺ من باب أولى.

وقد ضعف هذا القول جمع من المفسرين، منهم أبو المظفر السمعاني؛ حيث قال ـ بعد حكايته هذا القول ـ: (وهذا أغرب الأقاويل وأضعفها)(4).

وقال ابن كثير ـ بعد أن ذكر رواية ابن جرير الطبري ـ: (وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد ـ وهو ضعيف ـ بإسناده مثله أو قريبًا منه، وفي الصحيحين ـ في قسم غنائم حنين ـ قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكر نزولها في المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم)(5).

ثم قال بعد أن ذكر رواية ابن أبي حاتم: (وهذا إسناد ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي متخرق، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حبر الأمة وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس كما رواه عنه البخاري ـ رحمه الله ـ ، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٧١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والأدب، ح/٢٥٨٦ ص (١١٣١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ح/١٣ ص(٥).

ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، ح/٤٥ (ص٤١).

(٤) تفسير القرآن، (٧٤/٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم، (٢٠/٧ ـ ٢٠١).

وذريته ـ رضي الله عنهم أجمعين)[1].

وقال القاسمي: (وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر العباس من الأنصار فإسناده ضعيف على أن السورة مكية)[2].

القول الثالثـ إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالعمل الصالح.

وهو مروي عن وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، والحسن البصري، وقتادة[3].

قال الحسن البصري ـ فيما ذكر القرطبي ـ :(يتوددون إلى الله ـ عز وجل ـ ويتقربون منه بطاعته)[4].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: **((لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرًا،إلا أن توادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته))**[5].

٢ ـ أن القربى بمعنى القربة، وهي من التقرب؛ كالزلفى والزلفة[6].

القول الرابعـ إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم[7].

وهذا القول مذكور عن عبد الله بن قاسم[8].

القول الخامس: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾[9] ونحوها من الآيات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢٠١/٧).

(٢) محاسن التأويل، (٣٠٦/٨).

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٧٣/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٨٠/٤). والكشاف للزمخشري (٤٦٨/٣). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٦٣/١٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٠٠/٧). وتفسير أبي السعود (٣٠/٨). وفتح القدير، للشوكاني (٥٣٤/٤). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٣٠٦/١٤). وأضواء البيان للشنقيطي (١٩١/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦).

(٥) مسند الإمام أحمد ح/٢٤١٥ (٢٦٨/١). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف. والطبراني في المعجم الكبير ح/١١١٤٤ (٩٠/١١). والحاكم في المستدرك ح/٣٦٥٩ (٤٨١/٢). وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ح/١١٣٢٥ (٢٢٧/٧).: ورجال أحمد فيهم قزعة بن سويد وثقه ابن معين وغيره وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦).

(٧) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٢/٢٥). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٧٣/٥). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٦٣/١٣).

(٨) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٦/٢٥).

(٩) سورة سبأ، الآية: (٤٧).

وهذا القول مروي عن الضحاك، والحسين بن الفضل[1].

وقد احتج أصحاب هذا القول بأن الآية نزلت بمكة، وأن المشركين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية فأمرهم فيها بمودة رسول الله ﷺ وصلة رحمه، فلما هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه، أحب الله ـ عز وجل ـ أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾[2]؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾[3]، فهي منسوخة بهذه الآية وبنحوها من الآيات[4].

وقد ضعف هذا القول جمع من أهل العلم. فقال أبو المظفر السمعاني: (وهذا القول غير مرضي عند أهل المعاني؛ لأن قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ ليس باستثناء صحيح حتى يكون مخالفًا لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾[5]، بل هو استثناء منقطع، ومعناه: قل لا أسألكم عليه أجرًا. أي: مالاً، وتم الكلام. ومعنى قوله ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[6] لكن صلوا قرابتي بالاستجابة لي أو تكفوا أذاكم عني)[7].

وقال البغوي: (وهذا قول غير مرضي؛ لأن مودة النبي ﷺ، وكف الأذى عنه، ومودة أقاربه والتقرب إلى الله بالطاعة، والعمل الصالح من فرائض الدين، وهذه أقاويل السلف في معنى الآية فلا يجوز المصير إلى نسخ شيء من هذه الأشياء) [8].

وقال الثعلبي ـ فيما ذكر القرطبي ـ : (وليس بالقوي، وكفى قبحًا بقول من يقول: إن التقرب إلى الله بطاعته ومودة نبيه ﷺ وأهل بيته منسوخ) [9].

---

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٧٣/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٨١/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦). وفتح القدير، للشوكاني (٥٣٦/٤).

(٢) سورة الشعراء.

(٣) سورة سبأ، الآية: (٤٧).

(٤) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٨١/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦). وفتح القدير، للشوكاني (٥٣٤/٤).

(٥) سورة سبأ، الآية: (٤٧).

(٦) سورة الشورى، الآية: (٢٣).

(٧) تفسير القرآن، (٧٣/٥، ٧٤).

(٨) معالم التنزيل، (٨١/٤).

(٩) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٢/١٦).

وممن ضعف هذا القول الشنقيطي[1] ـ رحمه الله ـ.

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر لي أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول؛ وذلك لما يلي:

١ـ قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٢ـ أنها تفسير ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وتفسير الصحابة مقدم على غيرهم.

٣ـ أنه قول كثير من التابعين.

---

(١) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص٢٤٥).

المطلب الخامس

آيات في تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: مَا ﴿ ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1] **مع قوله تعالى:** وَوَجَدَكَ﴿ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تدل الآية الأولى على أن النبي ﷺ لم يضل، بينما تدل الآية الثانية على أن النبي ﷺ كان ضالاً فهداه الله.

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأذكر ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء في تفسير هاتين الآيتين ما يزيل ذلك التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء في تفسير هاتين الآيتين مسلك الجمع بين الآيات على النحو التالي:

أولاً ـ معاني "الضلال" في القرآن:

قال ابن قتيبة: (الضلال: الحيرة والعدول عن الحق والطريق. يقال: ضل عن الحق، كما يقال: ضل عن الطريق، ومنه قوله تعالى: وَوَجَدَكَ﴿ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾[3].

والضلال: النسيان، والناسي للشيء عادل عنه وعن ذكره، قال الله تعالى: قَالَ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[4]، أي الناسين. وقال: أَن﴿ تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[5] أي: إن نسيت واحدة ذكرت الأخرى.

---

(١) سورة النجم.
(٢) سورة الضحى.
(٣) سورة الضحى.
(٤) سورة الشعراء.
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٢).

والضلال: الهلكة والبطلان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]

أي: بطلنا ولحقنا بالتراب. ويقال: أضل القوم ميتهم، أي: قبروه. قال النابغة:

وآب مُضِلُّوهُ بعين جلية[2]

أي: قابروه) [3].

وقال الشنقيطي: (إن لفظ الضلال يطلق في القرآن وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الإطلاق الأول: يطلق الضلال مرادًا به الذهاب عن حقيقة الشيء. فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء ضل عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين، ومن هذا المعنى قوله هنا[4]: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾[5]

أي: الذاهبين عن علم حقيقة العلوم والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأني في ذلك الوقت لم يوح إلي. ومنه على التحقيق: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾[6] أي: ذاهب عما علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾[7] فقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يذهب عنه علم شيء كائنًا ما كان، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾[8] فقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ أي: أن

---

(١) سورة السجدة، الآية: (١٠).

(٢) انظر: ديوان النابغة (ص٦٦).وتكملة البيت (وغودر بالجولان حزم ونائل) . وهو في الديوان ، وجمهرة اللغة (١٠٧٧/٢) . بلفظ (فآب مصلوه) بالصاد المهملة .قال ابن قتيبة في المعاني الكبير (١٢٠٠/٢) : (قال الأصمعي :قدم الأولون بخبر موته ولم يصدقوا، وجاء المصلون ،وهم الذين جاءوا بعدهم ،من خبر موته بعين جلية ، والمصلى : الثاني من السوابق . ويروى (وآب مضلوه) أي : قابروه) . وفي مقاييس اللغة (٤٩٦/١)، وتهذيب اللغة (٣١٩/١١) ، بلفظ (وآب مضلوه) .

(٣) تأويل مشكل القرآن، (ص٤٥٧). وانظر : المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص (٢٩٧) .

(٤) أي قول موسى ـ عليه السلام ـ في سورة الشعراء: ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾.

(٥) سورة الشعراء.

(٦) سورة الضحى.

(٧) سورة طه.

(٨) سورة البقرة، الآية: (٢٨٢).

تذهب عن علم حقيقة المشهود به، بدليل قوله بعده: فَتُذَكِّرَ﴿ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾،

وقوله تعالى عن أولاد يعقوب: إِنَّ﴿ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] وقوله: قَالُوا۟﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[2] على التحقيق في ذلك كله.

ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغى بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة، وفي القرآن وهو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحق إلى الباطل، وعن طريق الجنة إلى النار. ومنه قوله تعالى: غَيْرِ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3].

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال، تقول العرب: ضل الشيء إذا غاب واضمحل؛ ولأجل هذا سمت العرب الدفن في القبر ضلالاً؛ لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: وَقَالُوٓا۟﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ﴾ٱلْأَرْضِ[4] الآية. يعنون إذا دفنوا وأكلتهم الأرض، فضلوا فيها أي: غابوا فيها واضمحلوا.

ومن إطلاقهم الإضلال على الدفن، قول النابغة ذبيان يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني:

فإن تحيى لا أملَلْ حياتي وإن تمت فما في حياة بعد موتِك طائلُ

فآبَ مُضِلُّوه بِعينٍ جلية وغُودِرَ بالجَوْلان حَزْمٌ ونائلُ[5][6]

ثانيًا: معنى "الضلال" في قوله تعالى: مَا ﴿ ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾.

أي: ما حاد النبي ﷺ عن الحق ولا زال عنه، ولكنه على استقامة وسداد [7].

---

(١) سورة يوسف.
(٢) سورة يوسف.
(٣) سورة الفاتحة.
(٤) سورة السجدة، الآية: (١٠).
(٥) ديوان النابغة (ص٦٦).
(٦) أضواء البيان، (٦/٣٧١ - ٣٧٢).
(٧) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٧/٤١). تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٥/٢٨٤). ومعالم التنزيل، للبغوي (٤/٢٥٠). والكشاف، للزمخشري (٤/٢٨). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٤/٨٤). والجامع في أحكام القرآن، للقرطبي (١٧/٨٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير

قال ابن عطية: (نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ أن يكون ضل في هذه السبيل التي أسلكه الله تعالى إياها، وأثبت الله تعالى في سورة الضحى أنه قد كان قبل النبوة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها)[1].

ثالثا ـ معنى "الضلال" في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾.

للعلماء في تفسير هذه الآية عدة أقوال أبرزها ما يلي:

القول الأول ـ أي: وجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك إليها.

وهو مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول جمهور علماء المفسرين كالحسن، والضحاك، وشهر بن حوشب، وغيرهم[2] نص على ذلك ابن الجوزي.

وقد احتجوا لقولهم بما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَـٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَـٰنُ﴾[3].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾[4].

٣ ـ أن الضلال هنا بمعنى: الغفلة عن النبوة والوحي. كما في قوله تعالى في قصة موسى ـ عليه السلام ـ ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾[5] أي: الغافلين[6]. وكما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[7][8].

القول الثاني ـ أنه كان كافرًا في أول الأمر ثم هداه الله للإسلام.

وهو قول السدي[9] ومجاهد والكلبي[10].

(٤٤٢/٧). وفتح القدير، للشوكاني (١٠١/٤).

(١) المحرر الوجيز، (٨٤/١٤ ـ ٨٥).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨). الجامع في أحكام القرآن، للقرطبي (٩٦/٢٠). مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٦/٣١ ـ ٢١٧). معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٣٩/٥). تفسير القرآن العظيم، لأبي المظفر السمعاني (٢٤٤/٦). معالم التنزيل، للبغوي (٦٣٣/٤). الكشاف، للزمخشري (٢٦٤/٤). المحرر الوجيز، لابن عطية (٤٨٩/١٥). تفسير أبي السعود (١٧٠/٩ ـ ١٧١).

(٣) سورة الشورى، الآية: (٥٢).

(٤) سورة يوسف.

(٥) سورة الشعراء.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، لأبي المظفر السمعاني (٢٤٥/٦). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٦/٢٠).

(٧) سورة طه.

(٨) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٢/٣٠).

(٩) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٦/٣١).

(١٠) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٢/٣٠).

قال السدي ـ فيما ذكر ابن جرير ـ : (كان على أمر قومه أربعين عامًا)[١].

وقد احتجوا:

١ ـ بقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤].

وقد ضعف هذا القول جمع من العلماء.

قال الإمام أحمد: (هذا قول سوء) [٥].

قال الزمخشري: (ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر والجهل بالصانع ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾[٦] وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر) [٧].

وقال ابن عطية: (والضلال مختلف، فمنه البعيد ومنه القريب، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأصنام، ويحتجون لذلك ويغتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبيه ﷺ أقرب ضلال وهو: كونه واقفًا لا يميز المنهج، لا أنه تمسك بطريق آخر؛ بل كان يرتاد وينظر). ثم قال: (ورسول الله ﷺ لم يعبد صنمًا قط، ولكنه أكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أسفل بلدح، وجرى على يسير من أمرهم، وهو مع ذلك ينظر خطأ ما هم عليه، ودفع من عرفات وخالفهم في أشياء) ثم قال أيضًا: (والصواب: أنه ضلال من توقف لا يدري، كما قال عز وجل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[٨][٩].

وقال الرازي: (وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما كفر

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٢/٣٠).
(٢) سورة الشورى، الآية: (٥٢).
(٣) سورة يوسف.
(٤) سورة الزمر، الآية: (٦٥).
(٥) السنة ، للخلال (١٩٩/١).
(٦) سورة يوسف، الآية: (٣٨).
(٧) الكشاف، (٢٦٤/٤).
(٨) سورة الشورى، الآية: (٥٢).
(٩) المحرر الوجيز، (٤٩٠/١٥ ـ ٤٩١).

بالله لحظة واحدة، ثم قالت المعتزلة: هذا غير جائز عقلاً؛ لما فيه من التنفير، وعند أصحابنا هذا غير ممتنع عقلاً؛ لأنه جائز في العقول أن يكون الشخص كافرًا فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾(١))(٢).

وقال القرطبي: (وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه؛ لا يظهر لهم خلافًا على ظاهر الحال؛ فأما الشرك فلا يظن به؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة. وقال الكلبي والسدي: هذا على ظاهره، أي وجدك كافرًا والقوم كفار فهداك) (٣). ثم قال ـ في موضع آخر ـ: (الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنًا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه)(٤).

وقال ابن تيمية ـ بعد أن ذكر قول ابن عطية السابق ـ: (قلت: ما ذكره من حديث زيد بن عمرو بن نفيل، رواه البخاري من حديث موسى بن عقبة، أخبرني سالم أنه سمع ابن عمر يحدث عن رسول الله ﷺ أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل أسفل بلدح(5)، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدم إليه رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها، وقال: لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، أنا لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله ـ عز وجل ـ وأنزل لها من السماء ماءً،وأنبت لها من الأرض،ثم تذبحونها على غير اسم الله انكارًا لذلك، وإعظامًا له)(٦).

والمنقول أنه ـ عليه السلام ـ كان قبل النبوة يبغض عبادة الأصنام، ولكن لم يكن ينهى عنها الناس نهيًا عامًا، وإنما كان ينهى خواصه، كما روى أبو يعلى الموصلي: (حدثنا محمد بن بشار "بندار"، حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد ـ أملاه علينا من كتابه ـ حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة، عن أسامة بن زيد بن حارثة، عن زيد بن حارثة، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا حارًا من أيام مكة ـ وهو مردفي ـ إلى نصب من الأنصاب، قد ذبحنا له شاة، فأنضجناها، قال: فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل، فحيا كل واحد منهما صاحبه بتحية الجاهلية فقال له النبي ﷺ: **((يا زيد، ما لي أرى قومك قد شنؤوك؟))** قال: يا محمد،

---

(١) سورة النجم.
(٢) مفاتيح الغيب، (٢١٦/٣١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، (٩٩/٢٠).
(٤) المرجع السابق (٦٠/١٦).
(٥) واد قبل مكة من جهة المغرب . معجم البلدان لياقوت الحموي (٤٨٠/١)
(٦) رواه البخاري في صحيحه كتاب مناقب الأنصار، باب: حديث زيد بن عمرو بن نفيل ح/٣٨٢٦ . (ص٦٤٢).

والله إن ذلك لبغير نائلة لي فيهم، ولكني خرجت أبتغي هذا الدين حتى أقدم على أحبار فدك، فوجدتهم يعبدون الله سبحانه ويشركون به.

فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، حتى أقدم على أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به. فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى أقدم على أحبار الشام، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به. فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت فقال لي شيخ منهم: إنك تسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخ بالحيرة، قال: فخرجت حتى أقدم عليه، فلما رآني قال: ممن أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله من أهل الشوك والقرظ. قال: إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك، قد بعث نبي طلع نجمه، وجميع من رأيتهم في ضلال، قال: فلم أحس بشيء، قال: فقرب إليه السفرة، فقال: ما هذا يا محمد؟ قال: شاة ذبحت لنصب من هذه الأنصاب. قال: ما كنت لآكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: وتفرقا. قال زيد بن حارثة: فأتى النبي ﷺ البيت فطاف به وأنا معه، وطاف بين الصفا والمروة، وكان عند الصفا والمروة صنمان من نحاس: أحدهما يقال له: إساف والآخر: نائلة، وكان المشركون إذا طافوا بهما تمسحوا بهما. فقال النبي ﷺ: **((لا تمسحهما فإنهما رجس))** فقلت في نفسي:لأمسهما حتى أنظر ما يقول:فمسستهما،فقال لي: **((يا زيد ألم تنه))** قال: ومات زيد بن عمرو بن نفيل، وأنزل الله على رسوله، فقال النبي ﷺ: **((إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده))**(١).

قال أبو عبد الله المقدسي: (هذا حديث حسن له شاهد في الصحيح من حديث ابن عمر)(٢)(٣).

ثم قال ابن تيمية: (قال البيهقي: وزاد فيه غيره عن محمد بن عمرو بإسناده قال زيد: فوالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا قط حتى أكرمه الله بالذي أكرمه).

قال: وروينا في قصة بحيرا الراهب حيث حلف باللات والعزى متابعة لقريش، فقال النبي ﷺ: **((لا تسألني باللات والعزى، فوا الله ما أبغضت بغضهما شيئًا قط))**(٤).

وكان الله قد نزهه عن الأعمال المنكرة ـ أعمال الجاهلية ـ فلم يكن يشهد مجامع لهوهم وكان إذا هم بشيء من ذلك ضرب الله على أذنه فأنامه، وقد روى البيهقي وغيره في ذلك آثارًا.

وكذلك كانت قريش يكشفون عوراتهم لشيل حجر وغيره؛ فنزهه الله عن ذلك، كما

---

(١) مسند أبي يعلى، لأحمد بن علي الموصلي التميمي، ت: حسين سليم أسد، ط الأولى ١٤٠٤هـ، دار المأمون، دمشق، ح/٧٢١٢ (١٣٧/١٣)، وقال محققه: إسناده حسن. وأخرجه الحاكم في المستدرك ح/٤٩٥٦ (٢٣٨/٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والهيثمي في مجمع الزوائد، قال: وفيه المسعودي، وقد اختلط وبقية رجاله ثقات.

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٠٥).

(٣) تفسير آيات أشكلت، لابن تيمية (٢١٢/١ ـ ٢٢١).

(٤) دلائل النبوة، لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، ت عبد المعطي قلعجي، ط الأولى (١٤٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (٣٢/٢ ـ ٣٥).

في الصحيحين من حديث جابر، وفي مسند أحمد من حديث أبي الطفيل: (فنودي لا تكشف عورتك، فألقى الحجر ولبس ثوبه)[١].

وكانوا يسمونه الصادق الأمين، فكان الله قد صانه من قبائحهم، ولم يعرف منه قط كذبة ولا خيانة ولا فاحشة ولا ظلم قبل النبوة، بل شهد مع عمومته حلف المطيبين على نصر المظلوم فقال: **((شهدت مع عمومتي حلفًا في الجاهلية لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت))**[٢].

وأما الإقرار بالصانع وعبادته وتعظيمه، والإقرار بأن السموات والأرض مخلوقة له، محدثة بعد أن لم تكن، وأنه لا خالق غيره، فهذا كان عامتهم يعرفونه ويقرون به، فكيف لا يعرفه ويكون مقرًا به؟

وكانوا يتعبدون بالطواف والحج، وكان هو يتعبد بذلك، وكان أبو طالب قد سن لهم الصعود إلى غار حراء للتعبد فيه، وكان النبي ﷺ قبل النبوة يتعبد فيه، وفيه أنزل عليه الوحي، كما هو في الصحيحين من حديث عائشة[٣].

وكان من حين ولد ظهرت فيه علامات الخير، وتغير العالم لمولده، وظهرت أمور كثيرة من دلائل نبوته. لكن هذا الذي جرى له لا يجب أن يكون مثله لكل نبي، فإنه أفضل الأنبياء، وسيد ولد آدم، والله سبحانه إذ أهل عبده لأعلى المنازل والمراتب ورباه على قدر تلك المرتبة والمنزلة.

فلا يلزم إذا كان نبي قبل النبوة معصومًا من كبائر الإثم والفواحش صغيرها وكبيرها أن يكون كل نبي كذلك، ولا يلزم إذا كان الله قد بغض إليه شرك قومه قبل النبوة أن يكون كل نبي كذلك، فما عرف من حال نبينا وفضائله لا تناقض ما روي من أخبار غيره إذا كان دون ذلك، ولا يمنع كون نبينا بذلك، ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض كما فضلهم في الشرائع والكتب والأمم، فهذا أصل يجب اعتباره.

وقد أخبر الله تعالى أن لوطا كان من أمة إبراهيم وممن آمن له، ثم إن الله أرسله وكذلك يوشع كان من أمة موسى وكان فتاه، ثم إن الله أرسله، وكذلك هارون. لكن هارون ويوشع كانا على دين بني إسرائيل ملة إبراهيم، وأما لوط فلم يكن قبل إبراهيم من قومه ملة نبي يتبعها لوط، بل لما بعث الله إبراهيم آمن له.

والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم، ثم يبعثه الله فيهم يكون أكمل وأعظم ممن كان من قوم يعرفون النبوة، فإنه يكون تأييد الله له أعظم من جهة تأييده

---

(١) ح/٢٣٨٤٥ (٤٥٤/٥) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم فمن رجال مسلم.

(٢) رواه أحمد في المسند ح/١٦٥٥ (١٩٠/١) بنحوه. وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح. وروى ابن حيان نحوه ح/٤٣٧٣ (٢١٦/١٠) والحاكم في المستدرك ح/٢٨٧٠ (٢٣٩/٢) بنحوه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ٦٧)، ط الأولى، المكتبة الإسلامية، عمان.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي، ح/٣ (ص١). وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول ﷺ الله، ح/١٦٠ (ص٨٠).

بالعلم والهدى، ومن جهة تأييده بالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم)[1].

القول الثالث. أن المعنى: وجدك في قوم ضلال فهداك[2].

وهو قول ابن السائب[3][4].

وقال القرطبي: (وقال قوم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاً﴾ أي: ووجد قومك في ضلال، فهداهم الله بك، هذا قول الكلبي والفراء. وعن السدي نحوه؛ أي ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم) [5].

وقال الرازي: (تاسعها: أنه قد يخاطب السيد، ويكون المراد قومه. فقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ۝٧﴾[6] أي: وجد قومك ضلال، فهداهم بك وبشرعك)[7].

القول الرابع. أنه ضل وهو صبي صغير في شعاب مكة، فرده الله إلى جده عبد المطلب[8].

وهذا القول رواه ابن أبي الضحى عن ابن عباس[9] وذكره الضحاك[10] وقد احتجوا لهذا القول بما رواه أبو الضحى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (أن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفًا عن أغنامه فرده إلى عبد المطلب)[11].

---

(١) تفسير آيات أشكلت، لابن تيمية، ت: عبد العزيز بن محمد الخليفة، ط: الأولى، ١٤١٧هـ، مكتبة الرشد، الرياض (٢٢٢/١ - ٢٣٢).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٣٢/٣٠). وتفسير القرآن، لابن المظفر السمعاني (٢٤٥/٦). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١).

(٣) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨).

(٤) هو محمد بن السائب الكلبي ، إمام في الأنساب، شيعي متروك الحديث ،توفي سنة (١٤٦هـ) .السير(٢٨٤/٦)

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٠). وانظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٤٩٠/١٥). وفتح القدير، للشوكاني (٤٥٨/٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١).

(٦) سورة الضحى.

(٧) مفاتيح الغيب، (٢١٧/٣١).

(٨) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٦٣٤/٤). والكشاف، للزمخشري (٢٦٤/٣). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٠). وتفسير أبي السعود (١٧١/٩). وفتح القدير، للشوكاني (٤٥٨/٥). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٤٩٠/١٥).

(٩) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٦٣٤/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨).

(١٠) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١).

(١١) معالم التنزيل، للبغوي (٦٣٤/٤).

القول الخامس. أنه ضل الطريق، وهو مع عمه أبي طالب في طريق الشام، وكان راكبًا ناقة في الليل، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق[1].

وهو قول سعيد بن المسيب. قال البغوي: (قال سعيد بن المسيب: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة - غلام خديجة- فبينما هو راكب ذات ليلة ظلماء ناقة إذ جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الحبشة، ورده إلى القافلة، فمن الله عليه بذلك)[2].

القول السادس. أنه ضل عن مرضعته حليمة، حين أرادت أن ترده إلى جده[3].

وهو قول كعب.

قال القرطبي: (قال كعب: إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله ﷺ لترده على عبد المطلب فسمعت عند باب مكة، هنيئًا لك يا بطحاء مكة، اليوم رد إليك النور والدين والبهاء والجمال.

قالت: فوضعته لأصلح ثيابي، فسمعت هدَّة شديدة، فالتفت فلم أره، فقلت: معشر الناس، أين الصبي؟ فقالوا: لم نر شيئًا. فصحت: وامحمداه! فإذا بشيخ فان يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإن شاء أيرده عليك فعل. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال: يا رب لم تزل منتك على قريش، وهذه السعدية تزعم ان ابنها قد ضل، فرده إن شئت. فانكب (هبل) على وجهه، وتساقطت الأصنام، وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد، فألقى الشيخ عصاه، وارتعد، وقال: إن لابنك ربا لا يضيعه، فاطلبيه على مهل. فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يجدوه، فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعًا، وتضرع إلى الله أن يرده وقال:

يا رب رد ولـدي محمـدًا ... اردده ربي واتخذ عندي يدا

يا رب إن محمدًا لم يوجدًا ... فشمـل قـومي كلهم تبددًا

فسمعوا مناديًا ينادي من السماء: معاشر الناس لا تضجوا، فإن لمحمد ربًا لا يخذله ولا يضيعه، وإن محمدًا بوادي تهامه، عند شجرة السمر. فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا بالنبي ﷺ قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق)[4].

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٦٣٤/٤). والكشاف، للزمخشري (٢٦٤/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٢٦/٨). وتفسير أبي السعود (١٧١/٩).

(٢) معالم التنزيل، (٦٣٤/٤).

(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٤٩٠/١٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١). والكشاف، للزمخشري (٢٦٥/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٠). وتفسير أبي السعود (١٧١/٩). وفتح القدير، للشوكاني (٤٥٨/٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩٧/٢٠ ـ ٩٨).

القول السابع. أنه وجدك نسيًا، فهداك إلى الذكر[1].

وهو قول ثعلب[2].

قال الرازي: (الثامن عشر: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ﴾ أي: ناسيًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾[3] فهديتك، أي: ذكرتك، وذلك أنه ليلة الإسراء والمعارج نسي ما يجب أن يقال بسبب الهيبة، فهداه الله تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: **((لا أحصي ثناءً عليك))**)[4].

وقال القرطبي: (وقيل: ﴿ضَآلاًّ﴾ أي: ناسيًا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين، والروح، فأذكرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾[5])[6].

القول الثامن. ووجدك خاملاً لا تذكر ولا تعرف، فهدى الناس إليك حتى عرفوك.

وهو قول: عبد العزيز بن يحيى، ومحمد بن علي الترمذي[7].

القول التاسع. ووجدك محبًا للهداية، فهداك إليها[8].

قال القرطبي: (وقيل: ووجدك محبًا للهداية، فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾[9] أي: في محبتك. قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا   والعارضين ولم أكن متحـققًا

---

(١) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٠).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٢).

(٤) مفاتيح الغيب، (٢١٨/٣١).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٢).

(٦) الجامع لأحكام القرآن، (٩٧/٢٠).

(٧) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٤٩٠/١٥). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٩/٨ ـ ٢٧٠).

(٨) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٨/٣١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٥). وفتح القدير، للشوكاني (٤٥٨/٥).

(٩) يوسف يوسف.

عجبًا لعزة في اختيار قطيعـتي		بعد الضلال فحبلها قد أخلقا)[1].

القول العاشر. ووجدك ضالاً عن القبلة أو الهجرة فهداك إليهما[٢].

قال القرطبي: (وقيل: ووجدك ضالاً عن الهجرة، فهداك إليها... وقيل: ووجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها، بيانه ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[٣] الآية. ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب) [٤].

وهناك أقوال أخرى ذكرها بعض المفسرين إما داخلة تحت هذه الأقوال أو بعيدة الدلالة[5].

الترجيح :

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول ، أي : وجدك ضالا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك إليها ، وذلك لمايلي :

١ـ قوة أدلته ، وسلامتها من المعارض .

٢ـ أنه مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول الصحابي مقدم على غيره .

٣ـ أنه قول جمهور المفسرين .

٤ـ أنه اللائق بمقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٥ـ أن فيه جمعا بين الآيات ، وإعمالها كلها .

وجه الجمع بين الآيتين:

وبناء على ما سبق يظهر لنا وجه الجمع بين الآيات ، وهو أن آية النجم متعلقة بالقرآن والوحي، أي: أنه عليه الصلاة والسلام لم يضل ويغو في تبليغ الرسالة والوحي عن الله عز وجل كما هو قول جمهور المفسرين[٦]. وبالتالي فهي محمولة على حاله بعد النبوة، بينما آية الضحى محمولة على حاله قبل النبوة. أي: أنه كان غافلاً عما تعلمه من الشرائع وعلوم الدين التي لا تعلم بالفطرة ولا بالعقل، وإنما بالوحي، كما هو قول جمهور المفسرين[٧]. والله أعلم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٩٧/٢٠).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١ ـ ٢١٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٠). وفتح القدير، للشوكاني (٤٥٨/٥).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٤٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩٧/٢٠).

(٥) لمعرفتها، انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١٧/٣١ ـ ٢١٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٢٠ ـ ٩٩).

(٦) انظر : ص (١٧٨) .

(٧) انظر : ص (٢٠٢) .

المطلب السادس

آيات في عموم البعثة المحمدية

المسألة الأولى

آيات في عموم الرسالة

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[1]. مع الآيات التي تدل على عموم بعثته ﷺ **كقوله تعالى:** ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[2] **وقوله تعالى:** ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[3] **وقوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تدل الآية الأولى على أن النبي ﷺ مأمور بإنذار أهل مكة وما حولها، وقد يفهم أن المراد بقوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ الأقطار القريبة من مكة دون الأقطار النائية. بينما تدل الآيات الأخر على أن النبي ﷺ مرسل إلى الناس جميعًا، ومأمور بإنذار العالمين جميعًا.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٩٢).
(٢) سورة الفرقان.
(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).
(٤) سورة سبأ، الآية: (٢٨).

وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض، وسأذكر ـ بمشيئة الله ـ أقوال العلماء في تفسير الآية الأولى مما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء في دفع إيهام هذا التعارض مسلك الجمع بين الآيات، وذلك من وجهين:

الوجه الأول ـ أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في الآية الأولى شامل لجميع الأرض وهذا قول جمهور المفسرين. ومنهم ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم[1].

وقد استدلوا لذلك بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[2].

٢ ـ قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[3].

٣ ـ قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4].

٤ ـ ما رواه البخاري في صحيحه بسنده من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **((أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة))**. وفي رواية: **((بعثت إلى الأسود والأحمر))**[5].

٥ ـ ما رواه ابن جرير بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٧١،٢٧٢/٧).ومعالم التنزيل، للبغوي (٤٥/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٢٨٤/٥). وزاد المسير، لابن الجوزي (٥٩/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٨٦/١٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٨/٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٠١/٣).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).

(٤) سورة سبأ، الآية: (٢٨).

(٥) كتاب التيمم ح/٣٣٥ ص (٨٥). وانظر مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: المساجد ومواضع الصلاة، ح/١١٦٣ ص(٢١٢).

عنهما أنه قال: (قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1] يعني بأم القرى: مكة، ومن حولها من القرى إلى المشرق والمغرب)[2].

الوجه الثاني . (أنا لو سلمنا تسليمًا جدليًا أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ كجزيرة العرب مثلاً، فإن الآيات الأخر نصت على العموم كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ .

وذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه عند عامة العلماء.

وقد ذكر هذا الوجه الشنقيطي[3].

وقال الرازي: (إن تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدل على انتفاء فيما سواها إلا بدلالة المفهوم وهي ضعيفة؛ لاسيما وقد ثبتت بالتواتر الظاهر، المقطوع به من دين محمد ﷺ أنه كان يدعي كونه رسولاً إلى كل العالمين)[4].

الترجيح :

وبعد النظر في القولين السابقين يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو الوجه الأول ، وهو أن المراد بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ شامل لجميع الأرض ، وذلك لما يلي :

١ـ قوة أدلته ، وسلامتها من المعارض .

٢ـ أنه قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول الصحابي مقدم على غيره .

٣ـ دلالة الآيات الأخرى عليه .

٤ـ دلالة السنة عليه .

* * *

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٩٢).

(٢) جامع البيان (٢٧١/٧) .

(٣) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، (ص١١٩).

(٤) مفاتيح الغيب، (٨٦/١٣ ـ ٨٧).

المسألة الثانية

آيات في الإنذار

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قوله تعالى: إِنَّمَا﴿ تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾[1] **وقوله تعالى:** إِنَّمَآ﴿ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾﴿٤٥﴾[2] **مع قوله تعالى:** وَتُنذِرَ﴿ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾﴿٩٧﴾[3]. **وقوله تعالى:** لِيَكُونَ﴿ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾﴿١﴾[4] **وقوله تعالى:** فَأَنذَرۡتُكُمۡ﴿ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴾﴿١٤﴾[5].

ونحوها من الآيات التي تدل على عموم الرسالة.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تدل الآيتان الأوليان على أن الإنذار إنما يكون لمن ينتفع به، بينما تدل الآيات الأخر على أن الإنذار عام لجميع الناس. وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء في تفسير هذه الآيات ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير الآيات مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على الأقوال التالية:

القول الأول ـ أن المراد بالإنذار في الآيتين الأوليين هو الإنذار المفيد. أي: لا يكون الإنذار مفيدًا ونافعًا إلا لمن اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.

وهذا قول جمهور المفسرين[6].

---

(١) سورة يس، الآية: (١١).
(٢) سورة النازعات.
(٣) سورة مريم.
(٤) سورة الفرقان.
(٥) سورة الليل.
(٦) انظر:معالم التنزيل،للبغوي (٦٣٣/٣).الكشاف، للزمخشري(٣١٦/٣).زاد المسير،لابن الجوزي (٢٦٤/٦). مفاتيح الغيب، للرازي (٤٧/٢٦). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٦٥/٦). تفسير أبي السعود (١٦٠/٧). المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٧٩/١٢). محاسن التأويل. للقاسمي (٦٢/١٤). تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي (٣٣٦/٦). دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي

قال ابن عطية: (وقوله: إِنَّمَا﴿ ﴾تُنذِرُ ليس على جهة الحصر بإنما، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإنذار)[1].

وقال ابن كثير: (أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر)[2].

القول الثاني. أن يبدأ الرسول بالإنذار العام، فإذا بلغ وأنذر ثم أوذي واستهزئ به وأعرض عنه فإنه يعرض بعد ذلك، وينذر الذين اتبعوه.

وذكر هذا القول الرازي[3].

القول الثالث. أنك تنذر الكل بالأصول، وإنما تنذر بالفروع من اتبع الذكر.

ذكر هذا القول الرازي[4].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول؛ وذلك لدلالة السياق عليه، وهو اختيار جمهور المفسرين.

(ص٢٤٨).

(١) المحرر الوجيز، (٢٧٩/١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٥٦٥/٦).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، (٤٧/٢٦).

(٤) انظر المرجع السابق.

المطلب السابع

آيات تدل على أفضلية الأمة المحمدية

على سائر الأمم

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾﴿٤٧﴾[1] **مع قوله تعالى:** كُنتُمۡ﴿ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ ﴾لِلنَّاسِ[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

يشير ظاهر الآية الأولى إلى أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين، بينما تشير الآية الثانية إلى أن الأمة المحمدية هي خير وأفضل الأمم على الإطلاق. وهذا ما قد يتوهم من ظاهره التعارض.

وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال أهل العلم ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء مسلك الجمع بين الآيات عند تفسيرهم هاتين الآيتين، وذلك على الأقوال التالية:

القول الأول ـ أن الله فضل بني إسرائيل على عالم زمانهم، بينما الأمة المحمدية مفضلة على سائر الأمم.

وهذا هو قول جمهور المفسرين[3].

قال أبو العالية ـ فيما ذكر ابن جرير ـ : (بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالمًا)[4].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).

(٣) انظر:جامع البيان،للطبري (٢٦٤/١).وتفسير القرآن،لأبي المظفر السمعاني(٤٧/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٤٥/١).والمحرر الوجيز،لابن عطية(٢٨١/١).ومفاتيح الغيب،للرازي(٥٥/٣).والجامع لأحكام القرآن. للقرطبي (٣٧٦/١). وفتح القدير، للشوكاني (٨١/١). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٢١).

(٤) جامع البيان، للطبري (٢٦٤/١).

١ ـ قول الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[١]. قال الشوكاني: (فإن هذه الآية ونحوها مخصصة لتلك الآيات)[٢].

٢ ـ روى الإمام أحمد بسنده عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **((أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأنتم أكرم على الله ـ عز وجل ـ))**[٣].

٣ ـ ما روى الإمام أحمد بسنده عن محمد بن الحنفية أنه سمع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: **((أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء))** فقلنا: يا رسول الله، ما هو: قال: **((نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهورًا، وجعلت أمتي خير الأمم))** [٤].

٤ ـ روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **((يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر))**. فقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ﷺ : **((اللهم اجعله منهم))**. ثم قام رجل من الأنصار. فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: **((سبقك بها عكاشة))**[٥].

٥ ـ قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: (نحن خير الناس للناس، نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام) [٦].

٦ ـ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٧]. قال ابن كثير: (أي: خيارًا)[٨].

٧ ـ قول الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا

(١) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).
(٢) فتح القدير، (٨١/١).
(٣) المسند ، ح/٢٠٠٢٩ (٤٤٧/٤) وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، والحاكم في المستدرك، ح/٦٩٨٧ (٩٤/٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبراني في المعجم الكبير ح/١٠١٢ (٤١٩/١٩).
(٤) المسند، ح/٧٦٣ (٩٧/١)، وحسن إسناده ابن كثير وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد، ح/١٤٠٦ (٥٨٨/١) والأرنؤوط، ورواه البيهقي في السنن ح/٩٦٥ (٢١٣/١)، ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح/٣٩٣٩ (١٧٦/١٠).
(٥) الصحيح، كتاب اللباس، باب: البرود والحبر والشملة، ح/٥٨١١ ص (١٠٢٥).
(٦) رواه النسائي في سننه الكبرى (٣١٣/٦) ، انظر : الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦٦/٤).
(٧) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).
(٨) تفسير القرآن العظيم، (٩٤/٢).

﴾[1] فمن فضائل هذه الأمة أنها تشهد على الأمم الأخرى يوم القيامة .

٨ ـ روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))** [2].

القول الثاني . أن المراد بالعالم الجمع الكثير من الناس، فيكون المعنى: فضلتكم على الكثير من الناس لا الكل.

وهذا قول الزمخشري في الكشاف، فقد قال: (عَلَى﴿ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾﴿٤٧﴾ على الجم الغفير من الناس. كقوله تعالى: ٱلَّتِي﴿ بَـٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَـٰلَمِينَ ﴾﴿٧١﴾ يقال: رأيت عالمًا من الناس يراد الكثرة)[3].

وقد ضعف الرازي هذا القول فقال: (وهذا ضعيف؛ لأن لفظ العالم مشتق من العلم، وهو الدليل، فكل ما كان دليلاً على الله تعالى كان عالمًا فكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين العالم كل موجـود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفـظ العالم ببعض المحدثات)[4].

وقد تعقب الشوكاني الرازي فقال: (وأقول: هذا الاعتراض ساقط؛ أما أولاً: فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانيًا: فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودًا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح اطلاق اسم العلم عليه وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات، وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه، وأما من جعل العالم أهل العصر، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا محمد ﷺ، ولا على ما بعده من العصور.

ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: إِذۡ﴿ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[5]. وعند قوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).
(٢) الصحيح، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذ أشهد، ح/٢٥٠٩ ص(٤٢٩)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ح/٢٥٣٣ (ص١١١٠).
(٣) الكشاف، (٢٧٨/١).
(٤) مفاتيح الغيب، ل (٥٥/٣).
(٥) سورة المائدة.

وَلَقَدِ﴿ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. وعند قوله تعالى: ۞﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾﴿٣٣﴾ [2].

فإن قيل: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم. قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزمًا لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: كُنتُمۡ﴿ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ ﴾لِلنَّاسِ[3]؛ فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات)[4].

القول الثالث. أن بني إسرائيل أفضل من العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء.

وإلى هذا القول أشار الرازي والقرطبي والشوكاني[5].

فقال الرازي: (أن قوله تعالى: وَأَنِّي﴿ فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾﴿٤٧﴾[6] عام في العالمين؛ لكنه مطلق في الفضل، والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة، فالآية تدل على أن بني إسرائيل فضلوا على العالمين في أمر ما، وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الأمور، بل لعلهم وإن كانوا أفضل من العالمين في أمر فغيرهم أفضل منهم في بقية الأمور)[7].

وهذا الأمر الذي فضلوا به على العالمين هو كثرة الأنبياء فيهم. كما قال القرطبي: (وقيل: على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء، وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم)[8].

ويمكن أن يستدل لذلك بما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن فرات القزاز قال سمعت أبا حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي ..) ، يعني أن ملوكهم وحكامهم أنبياء ، وهذا تفضيل عظيم لاشك فيه ؛ لكنهم لم يراعوا هذا الفضل العظيم من الله ـ تعالى ـ[1] .

وقد تعقب ابن كثير هذا القول فقال: (وفيه نظر؛ لأن العالمين عام يشمل من قبلهم

---

(١) سورة الدخان.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).
(٤) فتح القدير، (٨٢/١).
(٥) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٨١/١).
(٦) سورة البقرة.
(٧) مفاتيح الغيب، (٥٥/٣).
(٨) الجامع لأحكام القرآن، (٣٧٦/١).
(١) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرئيل ، ح/٣٤٥٥ ، ص(٥٨١). ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة ..، ح/١٨٤٢ ، ص(٨٢٧) .

ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين)[1].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر لي أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول، وهو أن المراد بتفضيل بني إسرائيل على العالمين، أي عالم زمانهم، بينما الأمة المحمدية هي أفضل الأمم على الإطلاق؛ وذلك لما يلي:

١ـ قوة أدلة هذا القول وسلامته من المعارض.

٢ـ أن فيه الجمع بين الآيات الواردة في هذه المسألة وإعمالها كلها.

٣ـ أنه اختيار جمهور المفسرين.

* * *

الباب الثالث
آيات في الإيمان بالقدر

ويحتوي على ثلاثة فصول:

الفصل الأول ـ آيات في الهدى والضلال.

الفصل الثاني ـ آيات في بيان الإرادة والأمر.

الفصل الثالث ـ آيات في أفعال العباد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢٥٨/١).

الفصل الأول

آيات في الهدى والضلال

ويحتوي على تمهيد، و مبحثين :

التمهيـــــد ـ معاني الهداية ومراتبها في القرآن الكريم.

المبحث الأول ـ آيات في الهدى والضلال.

المبحث الثاني ـ آيات في نفي إيمان الكافر مع إمكانية وقوعه.

تمهيد

معاني الهداية ومراتبها في القرآن الكريم

قال ابن قتيبة رحمه الله: (أصل هدى: أرشد، كقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾[2]. أي: أرشدنا.

ثم يصير الإرشاد بمعان، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾[3]. أي: بينا لهم. وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾[4]، أي: أو لم يبين لهم. وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ﴾[5]، أي: ألم يبين لهم. فالإرشاد في جميع هذه بالبيان.

ومنها: إرشاد بالدعاء، كقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾[6]. أي: نبي يدعوهم. وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[7]. أي: يدعون. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾[8]. أي: تدعو.

ومنها: إرشاد بالإلهام، كقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾[9]، أي: صورته من الإناث ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: ألهمه إتيان الأنثى، ويقال: طلب المرعى، وتوقي المهالك، وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾[1]، أي: هدى الذكر

---

(١) سورة القصص.
(٢) سورة ص.
(٣) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٤) سورة السجدة، الآية: (٢٦).
(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٠٠).
(٦) سورة الرعد.
(٧) سورة الأنبياء، الآية: (٧٣).
(٨) سورة الشورى.
(٩) سورة طه.
(١) سورة الأعلى.

بالإلهام لإتيان الأنثى.

ومنها: إرشاد بالإمضاء؛ كقوله: وَأَنَّ﴿ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾﴿٥٢﴾[1]؛ أي: لا يمضيه ولا ينفذه، ويقال: لا يصلحه. وبعض هذا قريب من بعض)[2].

وقال الراغب الأصفهاني: (الهداية: دلالة بلطف.. ، وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله. كما قال: رَبُّنَا﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾﴿٥٠﴾[3].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك. وهو المقصود بقوله تعالى: وَجَعَلْنَا﴿ مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾بِأَمْرِنَا[4].

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله تعالى: وَٱلَّذِينَ﴿ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾[5]، وقوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[6]

وقوله: إِنَّ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾[7]، وقوله: وَٱلَّذِينَ ﴿ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[8]، وَيَزِيدُ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[9]، ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[10]،وَٱللَّهُ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾﴿٢١٣﴾[1].

---

(١) سورة يوسف.
(٢) تأويل مشكل القرآن، (ص٤٤٣ ـ ٤٤٤).
(٣) سورة طه.
(٤) سورة السجدة، الآية: (٢٤).
(٥) سورة محمد ، الآية :(١٧).
(٦) سورة التغابن ، الآية :(١١).
(٧) سورة يونس ، الآية :(٩).
(٨) سورة العنكبوت، الآية: (٦٩).
(٩) سورة مريم ، الآية :(٧٦).
(١٠) سورة البقرة، الآية :(٢١٣) .
(١) سورة البقرة.

الرابع:الهداية في الآخرة إلى الجنة، المعني بقوله:سَيَهْدِيهِمْ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[1]، وَنَزَعْنَا﴿ مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[2] إلى قوله: ٱلْحَمْدُ﴿ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾[3].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة...

والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء، وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات وإلى الأول أشار بقوله:وَإِنَّكَ﴿ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4]،يَهْدُونَ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾[5]، وَلِكُلِّ﴿ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[6]. أي: داع، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله: إِنَّكَ﴿ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[7].

وكل هداية ذكر الله ـ عز وجل ـ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة وهي: التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة: التي هي: الثواب في الآخرة وإدخال الجنة، نحو قوله ـ عز وجل ـ : كَيْفَ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ ﴾قَوْمًا[8] إلى قوله: وَٱللَّهُ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[9]، وكقوله: ذَٰلِكَ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[10].وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء، وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل، والتوفيق، وإدخال الجنة، كقوله عز ذكره: ۞﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن ﴾يَشَآءُ[1]، وَلَوْ﴿ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ

---

(١) سورة محمد.
(٢) سورة الأعراف ، الآية :(٤٣).
(٣) سورة الأعراف، الآية :(٤٣) .
(٤) سورة الشورى.
(٥) سورة الأنبياء ، الآية :(٧٣) ، وسورة السجدة، الآية: (٢٤).
(٦) سورة الرعد.
(٧) سورة القصص، الآية :(٥٦) .
(٨) سورة آل عمران، الآية: (٨٦).
(٩) سورة آل عمران.
(١٠) سورة النحل.
(١) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).

عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ ﴾[1]، وَمَآ﴿ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ ﴾[2] إِن﴿ تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾[3]، أَفَمَنۡ﴿ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ ﴾هَادٖ[4]، وَمَن﴿ يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾[5]، إِنَّكَ﴿ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[6])[7].

ثم قال ـ رحمه الله ـ: (وعدي الهداية في مواضع بنفسه، وفي مواضع باللام، وفي مواضع بإلى قال تعالى: وَمَن﴿ يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾﴿١٠١﴾[8]، وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾﴿٨٧﴾[9]، وقال: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾﴿٣٥﴾[10]، وقال: هَل﴿ لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾﴿١٩﴾[11].

وما عدي بنفسه نحو: وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴿ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾﴿٦٨﴾[12]، وَهَدَيۡنَٰهُمَا﴿

(١) سورة الأنعام ، الآية :(٣٥).
(٢) سورة الروم ، الآية :(٣٥).
(٣) سورة النحل، الآية :(٣٧) .
(٤) سورة الرعد، الآية: (٣٣).
(٥) سورة الزمر، الآية :(٣٧) .
(٦) سورة القصص، الآية :(٥٦) .
(٧) المفردات في غريب القرآن، (ص٥٣٨ ـ ٥٣٩).
(٨) سورة آل عمران.
(٩) سورة الأنعام.
(١٠) سورة يونس.
(١١) سورة النازعات.
(١٢) سورة النساء.

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾[1]، ٱهۡدِنَا﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾[2]، أَتُرِيدُونَ﴿ أَن تَهۡدُواْ تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾[3]،َ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾[4]، أَفَأَنتَ﴿ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ ﴾[5]، وَيَهۡدِيهِمۡ﴿ إِلَيۡهِ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾[6].

ولما كانت الهداية والتعليم يقتضي شيئين: تعريفًا من المُعَرِّفِ، وتَعَرُّفًا من المُعَرَّفِ وبهما تم الهداية والتعليم، فإنه متى حصل البذل من الهادي والمعلم، ولم يحصل القبول صح أن يقال: لم يهده ولم يعلم. اعتبارًا بعدم القبول، وصح أن يقال: هدى وعلم، اعتبارًا ببذله، فإذا كان كذلك صح أن يقال: إن الله تعالى لم يهد الكافرين والفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصح أن يقال: هداهم وعلمهم من حيث إنه حصل البذل الذي هو مبدأ الهداية.

فعلى الاعتبار الأول يصح أن يحمل قوله: وَٱللَّهُ﴿ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾[7]،

َ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾[8].

وعلى الثاني: قوله عز وجل: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾[9])[10]. ثم قال: (والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد؛ لكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان نحو: هُدًى﴿ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾[11]، أُوْلَٰٓئِكَ﴿ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾[1]، وَهُدًى﴿ لِّلنَّاسِ ﴿٩١﴾[2]،

---

(١) سورة الصافات.
(٢) سورة الفاتحة.
(٣) سورة النساء ، الآية :(٨٨).
(٤) سورة النساء .
(٥) سورة يونس، الآية :(٤٣).
(٦) سورة النساء.
(٧) سورة البقرة.
(٨) سورة البقرة.
(٩) سورة فصلت، الآية :(١٧) .
(١٠) المفردات في غريب القرآن، (ص٥٤٠).
(١١) سورة البقرة.

فَإِمَّا﴿ يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾[٣]، قُلْ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾[٤].والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية أو الأخروية قال تعالى: وَهُوَ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا ﴾[5]، وقال: إِلَّا﴿ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾﴿٩٨﴾[٦].

ويقال ذلك لطلب الهداية نحو: وَإِذْ﴿ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾﴿٥٣﴾[٧]، وقال: فَلَا﴿ تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾﴿١٥٠﴾[٨]، فَإِنْ﴿ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾[٩]، فَإِنْ﴿ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾[١٠]. ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم نحو: أَوَلَوْ﴿ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾﴿١٠٤﴾[11] تنبيهًا أنهم لا يعلمون بأنفسهم، ولا يقتدون بعالم.وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[١٢]، فإن الاهتداء ههنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية، ومن الاقتداء، ومن تحريها) [١٣].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم

---

(١) سورة البقرة، الآية :(٥) .
(٢) سورة الأنعام ، الآية :(٩١).
(٣) سورة البقرة ، الآية :(٣٨).
(٤) سورة البقرة ، الآية :(١٢٠).
(٥) سورة الأنعام ، الآية :(٩٧).
(٦) سورة النساء.
(٧) سورة البقرة.
(٨) سورة البقرة.
(٩) سورة آل عمران.
(١٠) سورة البقرة.
(١١) سورة المائدة.
(١٢) سورة يونس ، الآية :(١٠٨).
(١٣) المفردات في غريب القرآن، (ص٥٤١).

مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوى إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى، وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية لا يقدر عليها إلا الله ـ عز وجل ـ.

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار) [١].

* * *

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق، عمر بن سليمان الحفيان، ط الأولى، الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، مكتبة العبيكان، الرياض (٢٢٩/١).

المبحث الأول

آيات في الهدى والضلال

المطلب الأول

آيات في هداية الله ـ سبحانه وتعالى ـ

المسألة الأولى

آيات في الهداية العامة والخاصة[1]

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[2]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ ﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾[4]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[5]، **وقوله تعالى:** ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[6].

---

(١) وردت هذه الهداية في القرآن الكريم ، بصيغ مختلفة ، أهمها ما يلي : أ – أن تكون الهداية مضافة إلى الله ـ عز وجل ـ ولها وجهان : ١ـ اثبات الهدايتين ـ العامة والخاصة ـ كآيات هذه المسألة .
٢ـ اثبات الهداية العامة لجميع الناس ، ونفي الهداية الخاصة عن الكافرين . كآيات المسألة الثانية .
ب – أن تكون الهداية مضافة إلى الرسول ﷺ ، كآيات المطلب الثاني .
ج – أن تكون الهداية مضافة إلى القرآن ، كآيات المطلب الثالث .
وقد قسمت هذا المبحث بهذا التقسيم مراعاة لهذه الصيغ ، وإن كانت المسألة في حقيقتها مسألة واحدة تتعلق بالهداية العامة والخاصة .

(٢) سورة الكهف.

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٩٧).

(٤) سورة الأعراف.

(٥) سورة الزمر.

(٦) سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1]. ونحوها من الآيات التي تدل على اختصاص الله بعض عباده بالهداية.

مع قوله تعالى: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ﴾ٱلْهُدَىٰ[2]، **وقوله تعالى:** إِنَّا﴿ هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[3]. ونحوها من الآيات التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد هدى جميع الخلق، وأن هدايته سبحانه وتعالى عامة.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيات الأولى إلى أن هداية الله سبحانه وتعالى خاصة ببعض الناس دون بعض، وهم المؤمنون، بينما تشير الآيات الأخرى إلى أن هداية الله سبحانه وتعالى عامة لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم، وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين تلك الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات ويتضح ذلك من خلال بيان الأمور التالية:

الأمر الأول ـ أن المراد "بالهداية" في الآيات الأولى، هو: هداية التوفيق والإلهام والهادي بهذه الهداية هو الله سبحانه وتعالى.

وهو قول جمهور المفسرين، ومحل إجماع عند أهل السنة والجماعة. ووافقهم في ذلك الأشاعرة والماتريدية[4].

---

(١) سورة المائدة.
(٢) سورة فصلت،الآية: (١٧).
(٣) سورة الإنسان.
(٤) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٣٠/٩ ـ ١٣١). والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٥٣٩). والكشاف، للزمخشري (٤٦٧/٢). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥١٢/٣). وتفسير أبي السعود (٢٩٤/٣). وأضواء البيان، للشنقيطي (٤٠/٤).
وكتاب الشريعة، لأبي بكر الأجري، تحقيق د/ عبد الله بن عمر الدميجي، ط الأولى (١٤١٨هـ)، دار الوطن، الرياض (٧٠٨/٢). وعقيدة السلف أصحاب الحديث، لأبي عثمان إسماعيل الصابوني، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، ط الثانية (١٤١٥هـ)، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية (ص٩١).
ومجموع فتاوى ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٠٠/٢٢). وشفاء العليل، لابن القيم (٢٦٦/١). وتأويلات أهل السنة، لأبي منصور الماتريدي، ت: إبراهيم عوضين والسيد عوضين، ط ١٣٩١هـ، القاهرة. (٢٤/١).

قال ابن جرير الطبري: (يقول تعالى ذكره: الهداية والإضلال بيد الله، والمهتدي وهو السالك سبيل الحق، الراكب قصد المحجة في دينه من هداه الله لذلك، فوفقه لإصابته، والضال من خذله الله فلم يوفقه لطاعته) [(١)].

وقال الآجري: (اعلموا يا معشر المسلمين أن مولاكم الكريم يخبركم أنه يهدي من يشاء، فيوصل إلى قلبه محبة الإيمان، فيؤمن ويصدق، ويضل من يشاء فلا يقدر نبي ولا غيره على هدايته بعد أن أضله الله عن الإيمان) [(٢)].

وقال أبو عثمان الصابوني: (ويشهدون أن الله تعالى يهدي من يشاء إلى دينه، ويضل من يشاء عنه ولا حجة لمن أضله الله عليه، ولا عذر له لديه) [(٣)].

ويقول ابن القيم: (وهذه المرتبة تستلزم أمرين:

أحدهما ـ فعل الرب تعالى وهو الهدى.

والثاني ـ فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي، والعبد المهتدي. قال تعالى: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ ﴾ ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾[(٤)]. وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس إليه ﷺ، ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾[(٥)])[(٦)].

ويقول ابن تيمية: (وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهدي الله ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ۝١٧ ﴾[(٧)])[(٨)].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ الآيات الصريحة الدالة على أن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وهي كثيرة جدًا، ومنها:

---

(١) جامع البيان (١٣٠/٩ ـ ١٣١).
(٢) كتاب الشريعة، (٧١٢/٢).
(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث، (ص٩٠).
(٤) سورة النحل ، الآية :(٣٧).
(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٨٦).
(٦) شفاء العليل، (٢٦٦/١).
(٧) سورة الكهف.
(٨) مجموع الفتاوى (٤٠٠/٢٢).

أ- قوله تعالى: قُلْ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾﴿٢٧﴾(١).

ب- قوله تعالى: قُلْ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾﴿١٤٩﴾(٢).

ج- قوله تعالى: أَفَلَمْ﴿ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٣).

﴾(٣).

د- قوله تعالى: وَمَن﴿ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾﴿٣٣﴾(٤).

هـ- قوله تعالى: وَمَن﴿ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾﴿٨٨﴾(٥).

و- قوله تعالى: مَن﴿ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾﴿٣٩﴾(٦).

ز- قوله تعالى: مَن ﴿ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾(٧).

ح- قوله تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾﴿٤﴾(٨).

ط- قوله تعالى: وَعَلَى ﴿ ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾﴿٩﴾(٩).

ي- قوله تعالى: فَمِنْهُم﴿ مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾(١٠).

ك- قوله تعالى: إِن ﴿ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾(١١).

ل- قوله تعالى: وَمَن ﴿ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن

---

(١) سورة الرعد.
(٢) سورة الأنعام.
(٣) سورة الرعد ، الآية :(٢١).
(٤) سورة الرعد.
(٥) سورة النساء.
(٦) سورة الأنعام.
(٧) سورة الأعراف ، الآية :(١٨٦).
(٨) سورة إبراهيم.
(٩) سورة النحل.
(١٠) سورة النحل ، الآية :(٣٦).
(١١) سورة النحل، الآية :(٣٧) .

دُونِهِۦ ﴾[1].

م- قوله تعالى: وَأَنَّ﴿ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴾[2].

ن- قوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[3].

س-قوله تعالى: إِنَّكَ﴿ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[4].

ع- قوله تعالى: فَإِنَّ﴿ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[5].

ف-قوله تعالى: ذَٰلِكَ﴿ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾[6].

ونحوها من الآيات.

٢ ـ ما رواه مسلم بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله)[7].

الأمر الثاني ـ أن المراد بالهداية في قوله تعالى: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ ﴾[8]. هداية البيان والإرشاد، وهو قول جمهور المفسرين[9].

---

(١) سورة الإسراء ، الآية :(٩٧).
(٢) سورة الحج.
(٣) سورة النور ، الآية :(٣٥) .
(٤) سورة القصص.
(٥) سورة فاطر، الآية :(٨) .
(٦) سورة الزمر.
(٧) الصحيح، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، ح/٨٦٨ (ص٣٤٨).
(٨) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٩) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص٤٤٣). معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٨٣/٤). ومعاني القرآن، للنحاس (٢٥٦/٦). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٥/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٦٣/٤). والكشاف، للزمخشري (٤٤٩/٣). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٩٤/١٣). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٤٩/١٥). وتفسير أبي السعود (٩/٨). وفتح القدير، للشوكاني (٥١١/٤). وأضواء البيان، للشنقيطي (١٢٥/٧).

قال أبو المظفر السمعاني: (حكي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: "هديناهم" أي: دللناهم على الهدى) [1]. وقال البغوي: (وقال ابن عباس: بينا لهم سبيل الهدى) [2].
[2].

وقد احتجوا لذلك بما يلي:

١ ـ أن الهداية في هذه الآية كالهداية في قوله تعالى: إِنَّا﴿ هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[3]، وفي قوله تعالى: وَهَدَيْنَٰهُ﴿ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[4][5].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[6]. قال الشنقيطي: (لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى)[7].

٣ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (بينا لهم)[8].

أوجه الجمع بين الآيات:

الوجه الأول ـ أن الهداية في الآيات الأولى هي الهداية الخاصة بالمؤمنين، وهي هداية التوفيق والإلهام، بينما الهداية في الآيات الأخرى كآية فصلت ونحوها هي هداية البيان والإرشاد.

قال ابن حزم: (فأخبر تعالى أن الذين هدى غير الذين أضل، ومثل هذا كثير، وكل هذا كلام الله عز وجل وكله حق، ولا يتعارض، ولا يبطل بعضه بعضًا. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[9]. فصح يقينًا أن كل ما أوردنا من الآيات فكلها متفق لا يختلف، فنظرنا في الآيات المذكورة فوجدناها ظاهرة لائحة، وهو أن الله تعالى أخبر أنه هدى ثمود فلم يهتدوا، وهدى الناس كلهم السبيل ثم

---

(١) تفسير القرآن (٤٥/٥).
(٢) معالم التنزيل (٦٣/٤). وانظر: الجامع لأحام القرآن، للقرطبي (٣٤٩/١٥). ومعاني القرآن، للنحاس للنحاس (٢٥٦/٦). وجامع البيان، لابن جرير الطبري (٩٧/٢٤).
(٣) سورة الإنسان.
(٤) سورة البلد.
(٥) انظر: معاني القرآن، للنحاس (٢٥٦/٦). ومعالم التنزيل للبغوي (٦٣/٤). والكشاف، للزمخشري (٤٤٩/٣).
(٦) سورة فصلت. الآية : (١٧) .
(٧) أضواء البيان، (١٢٥/٧).
(٨) جامع البيان (٩٧/٢٤). والسيوطي في الدر المنثور (٣١٨/٧).
(٩) سورة النساء.

هم بعد هذا إِمَّا﴿ شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[١].

وأخبر تعالى في الآيات الأخر أنه هدى قومًا فاهتدوا، ولم يهد آخرين، فلم يهتدوا فعلمنا ضرورة أن الهدى الذي أعطاه الله تعالى جميع الناس، هو غير الذي أعطاه بعضهم، ومنعه بعضهم فلم يعطهم إياه، هذا أمر معلوم بضرورة الفعل وبديهته فإذ لا شك في ذلك فقد لاح الأمر وهو أن الهدى في اللغة العربية من الأسماء المشتركة فهي التي يقع الاسم منها على مسميين مختلفين بنوعهما فصاعدًا.

فالهدى يكون بمعنى الدلالة، تقول: هديت فلانًا الطريق، بمعنى: أريته إياه، وأوقفته عليه، وأعلمته إياه، سواء سلكه أو تركه، وتقول: فلان هاد للطريق؛ أي: هو دليل فيه، فهذا هو الهدى الذي هدى الله ثمود وجميع الجن والملائكة، وجميع الإنس كافرهم ومؤمنهم؛ لأنه تعالى دلهم على الطاعات والمعاصي وعرفهم ما يسخط مما يرضى فهذا معنى.

ويكون بمعنى التوفيق والعون على الخير، والتيسير له، وخلقه لقبول الخير في النفوس فهذا هو الذي أعطاه الله ـ عز وجل ـ الملائكة كلهم، والمهتدين من الإنس والجن. ومنعه الكفار من الطائفتين، والفاسقين فيما فسقوا فيه، ولو أعطاهم إياه تعالى لما كفروا ولا فسقوا، وبالله التوفيق)[٢].

وقال ابن تيمية: (والهدى يكون بمعنى البيان والدعوة، وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر، كقوله تعالى: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[٣].

ويكون بمعنى جعله مهتديًا، وهذا يختص بالمؤمنين، وهو المطلوب بقوله: اهْدِنَا﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٤]. وبقوله: هُدًى﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٥].

وذلك أن ((هدى)) بمعنى دل وأرشد قد يكون بالقوة، فهذا مشترك، وقد يكون بالفعل فهذا مختص، كما تقول: علمته فتعلم، وعلمته فما تعلم، وكذلك: هديته فاهتدى، وهديته فما اهتدى، فالأول مختص بالمؤمنين، والثاني مشترك)[٦].

وقال الشنقيطي: (ووجه الجمع بينهما: أن الهدى يستعمل في القرآن استعمالين: أحدهما عام، والثاني خاص.

أما الهدى العام فمعناه إبانة طريق الحق، وإيضاح المحجة، سواء سلكها المبين له

---

(١) سورة الإنسان.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٦٤/٣، ٦٥).
(٣) سورة فصلت. الآية : (١٧) .
(٤) سورة الفاتحة.
(٥) سورة البقرة.
(٦) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، ط الأولى (١٤٠٦هـ)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض (٣٠٨/٥).

أم لا. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ ﴾فَهَدَيْنَـٰهُمْ[١]. أي: بينا لهم طريق الحق على لسان نبينا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، مع أنهم لم يسلكوها بدليل قوله عز وجل: فَٱسْتَحَبُّواْ﴿ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ﴾ٱلْهُدَىٰ[٢].

ومنه أيضًا قوله تعالى: إِنَّا﴿ هَدَيْنَـٰهُ ﴾ٱلسَّبِيلَ[٣]. أي بينا له طريق الخير والشر بدليل قوله تعالى: إِمَّا﴿ شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾﴿٣﴾[٤].

وأما الهدى الخاص فهو تفضل الله بالتوفيق على العبد، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: أُوْلَـٰٓئِكَ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾[٥])[٦].

الوجه الثاني ـ أن الذين هداهم الله في قوله تعالى: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ ﴾فَهَدَيْنَـٰهُمْ**[٧]** هم هم المؤمنون الذين أنجاهم الله من قوم صالح عليه السلام.

وهو قول أبي الحسن الأشعري؛ إذ يقول: (إن سأل سائل عن قول الله عز وجل: وَأَمَّا﴿ ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ﴾ٱلْهُدَىٰ**[٨]**. فقال: أليس ثمود كانوا كافرين وقد أخبر الله أنه هداهم؟ قيل له: ليس الأمر كما ظننت والجواب في هذه الآية على وجهين:

أحدهما: أن ثمود على فريقين كافرين ومؤمنين، وهم الذين أخبر الله أنه أنجاهم مع صالح بقوله ـ عز وجل ـ: فَلَمَّا﴿ جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾مَعَهُۥ[٩].

﴾مَعَهُۥ[٩]. فالذين عني الله ـ عز وجل ـ من ثمود أنه هداهم هم المؤمنون دون الكافرين؛

الكافرين؛ لأن الله ـ عز وجل ـ قد بين لنا في القرآن أنه لا يهدي الكافرين، والقرآن لا يتناقض؛بل يصدق بعضه بعضًا.

فإذا أخبرنا في موضع أنه لا يهدي الكافرين، ثم أخبر في موضع أنه هدى ثمود،

---

(١) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٢) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٣) سورة الإنسان، الآية: (٣).
(٤) سورة الإنسان.
(٥) سورة الأنعام. الآية (٩٠) .
(٦) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص ٧، ٨).
(٧) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٨) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٩) سورة هود، الآية: (٦٦).

علمنا أنه إنما أراد المؤمنين من ثمود دون الكافرين.
والوجه الآخر - أن الله عز وجل عني قومًا من ثمود كانوا مؤمنين ثم ارتدوا فأخبر أنه هداهم، فاستحبوا بعد الهداية الكفر على الإيمان، وكانوا في حال هداهم مؤمنين.
فإن قال قائل - معترضًا في الجواب الأول -: كيف يجوز أن يقول: ﴿فهديناهم﴾ ويعني المؤمنين من ثمود، ويقول: ﴿فاستحبوا﴾ يعني الكافرين منهم وهم غير مؤمنين؟
يقال له: هذا جائز في اللغة التي ورد بها القرآن، أن يقول: فهديناهم، ويعني المؤمنين من ثمود، ويقال: فاستحبوا، يعني الكافرين منهم، وقد ورد القول بمثل هذا. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[1]. يعني الكفار. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2]. يعني المؤمنين ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[3]. يعني الكافرين، ولا خلاف عند أهل اللغة في جواز الخطاب بهذا، أن يكون ظاهره الجنس، والمراد به جنسان، فبطل ما اعترض به المعترض، ودل على جهله)[4].
وقد أبطل ابن حزم هذا الوجه فقال: (وقال بعض من يتعسف القول بغير علم: إن قول الله - عز وجل -: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[5]، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[7]. إنما أراد أراد تعالى بكل ذلك المؤمنين خاصة.
قال أبو محمد: وهذا باطل لوجهين:
أحدهما - تخصيص الآيات بلا برهان، وما كان هكذا فهو باطل.
والثاني - أن نص الآيات يمنع من التخصيص ولا بد، وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[8] فرد الضمير في ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى المهديين أنفسهم، فصح أن الذين هدوا لم يهتدوا، وأيضًا فإن

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٣٣).
(٢) سورة الأنفال.
(٣) سورة الأنفال، الآية: (٣٤).
(٤) الإبانة عن أصول الديانة، (ص٢٢٢ - ٢٢٤).
(٥) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٦) سورة الإنسان، الآية: (٣).
(٧) سورة البلد.
(٨) سورة فصلت، الآية: (١٧).

الله تعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[2]. فصح يقينًا أن الهدى الواجب على النبي ﷺ هو الدلالة وتعليم الدين، وهو غير الهدى الذي ليس هو عليه، وإنما هو لله تعالى وحده)[3].

الوجه الثالث - تأويل هداية الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾[4] ونحوها من الآيات التي أضاف الله فيها الهداية والضلال إلى نفسه بالإثابة، والدلالة إلى طريق الجنة، أو تسميتهم بذلك، أو علمهم بذلك، أو وجدهم كذلك.

وهو قول القدرية من المعتزلة ونحوهم.

قال القاضي عبد الجبار: (والجواب عن ذلك: أنا قد بينا وجوه القول في الهدى والضلال وأنه لا يصح التعلق بظاهرها.

والمراد بهذه الآية: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ بالإثابة أو بالأخذ به إلى طريق الجنة فهو المهتد؛ لأنه الناجي الفائز، ومن يضلل عن الثواب بالعقوبة فهو الخاسر.

وإن حمل على أن المراد به الدلالة صح، فكأنه قال: من يهد الله فاهتدى وتمسك بذلك فهو المهتدي، ومن يضلل، بمعنى: يعاقب، أو يذهب عن زيادة الهدى لكفره المتقدم، فهو الخاسر)[5].

وقد زعم القاضي عبد الجبار أنه لا يوجد في اللغة، ولا في القرآن إضافة الهدى بمعنى خلق الإيمان والطاعة، فقال: (فأما إضافة الهدى بمعنى خلق الإيمان والطاعة، فغير موجود في اللغة ولا في الكتاب، وإنما يوصف المؤمن بأنه قد اهتدى، ويوصف تعالى من حيث دله، وسهل سبيله إليه بأنه قد هداه)[6].

وقد فنَّد هذا التأويل ابن القيم وأبطله، فقال: (والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له، كقوله بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله تعالى العبد مهتديًا وضالاً، فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعًا أنه لا يصح حمل

---

(١) سورة البقرة ، الآية :(٢٧٢) .
(٢) سورة الشورى، الآيتان: (٥٢، ٥٣).
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/٦٦).
(٤) سورة الأعراف.
(٥) متشابه القرآن، ، تحقيق عدنان زرزور، ط، بدون، دار التراث القاهرة (١/٣٠٤).
(٦) متشابه القرآن، (١/٦٥).

هذه الآيات عليه، وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه البتة، وليس في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها، هداه بمعنى سماه مهتديًا، وأضله سماه ضالاً، وهل يصح أن يقال: علمه إذا سماه عالمًا، وفهمه إذا سماه فاهمًا!

وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمي من يشاء؟ وهل فهم أحد قط من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2]. تسميه مهتديًا ولكن الله يسميه بهذا الاسم)[3].

وقال أيضًا: (وتأويل بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة، وهذا التأويل من أبطل الباطل؛ فإن الله ـ سبحانه ـ يخبر أنه قسم هدايته للعبد إلى قسمين: قسم لا يقدر عليه غيره، وقسم مقدور للعباد، فقال في القسم المقدور للبشر: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[4]. وقال في غير المقدر للبشر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[5]. وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[6].

ومعلوم قطعًا أن البيان والدلالة قد تحصل له، ولا تنفى عنه، وكذلك قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[7]. لا يصح حمله على هداية الدعوة والبيان؛ فإن هذا يُهدَى ـ وإن أضله الله ـ بالدعوة والبيان، وكذا قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾[8]. هل يجوز حمله على معنى: فمن يدعوه إلى الهدى، ويبين له ما تقوم به حجة الله عليه؟ وكيف يصنع هؤلاء

---

(١) سورة البقرة ، الآية :(٢٧٢).
(٢) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٣) شفاء العليل (٢٦٩/١، ٢٧٠).
(٤) سورة الشورى.
(٥) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٦) سورة الأعراف، الآية: (١٨٦).
(٧) سورة النحل، الآية: (٣٧).
(٨) سورة الجاثية، الآية: (٢٣).

بالنصوص التي فيها أنه سبحانه هو الذي أضلهم، أيجوز لهم حملها على أنه دعاهم إلى الضلال؟

فإن قالوا: ليس ذلك معناها، وإنما معناها ألفاهم ووجدهم كذلك، أو أعلم ملائكته ورسله بضلالهم، أو جعل على قلوبهم علامة تعرف الملائكة بها أنهم ضلال، قيل: هذا من جنس قولكم: إن هداه سبحانه وإضلالهم بتسميتهم مهتدين وضالين، فهذه أربع تحريفات لكم وهي: أنه سماهم بذلك، وعلمهم بعلامة تعرفهم بها الملائكة، وأخبر عنهم بذلك، ووجدهم كذلك.

فالإخبار من جنس التسمية، وقد بينا أن اللغة لا تحتمل ذلك، وأن النصوص إذا تأملها المتأمل، وجدها أبعد شيء عن هذا المعنى.

أما العلامة: فيا عجبًا لفرقة التحريف! وما جنت على القرآن والإيمان، ففي أي لغة وأي لسان يدل على أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1]. أي إنك لا تعلمه بعلامة، ولكن الله هو الذي يعلمه بها؟ وقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾[2]. من يعلمه الله بعلامة الضلال لم يعلمه غيره بعلامة الهدى، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[3]. لعلمناها بعلامة الهدى، الذي خلقته هي لنفسها، وأعطته نفسها...

وأما تحريفهم هذه النصوص وأمثالها بأن المعنى: ألفاهم ووجدهم كذلك، ففي أي لسان، وأي لغة وجدتم: هديت الرجل إذا وجدته مهتديًا؟ وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة وجده كذلك، وهل هذا إلا افتراء محض على القرآن واللغة؟

فإن قالوا: نحن لم نقل هذا في نحو ذلك، وإنما قلنا في نحو: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[4]. أي: وجده ضالاً، كما يقال: أحمدت الرجل وأبخلته وأجبنته، إذا وجدته كذلك، كذلك، أو نسبته إليه.فيقال لفرقة التحريف: هذا إنما ورد في ألفاظ معدودة نادرة، وإلا فوضع هذا البناء على أنك فعلت ذلك به، ولاسيما إذا كانت الهمزة للتعدية من الثلاث كقام وأقمته، بعد وأبعدته، وذهب وأذهبته، وسمع وأسمعته، ونام وأنمته، وكذا ضل وأضله الله، وأسعده وأشقاه، وأعطاه وأخزاه، وأماته وأحياه، وأزاغ قلبه وأقامه إلى طاعته، وأيقظته من غفلته، وأراه آياته، وأنزله منزلاً مباركًا، وأسكنته جنته، إلى أضعاف ذلك هل تجد فيها لفظًا واحدًا معناه أنه وجده كذلك، تعالى الله عما يقول

---

(١) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٨٦).
(٣) سورة السجدة، الآية: (١٣).
(٤) سورة الجاثية، الآية: (٢٣).

المحرفون.

ثم انظر في كتاب "فعل وأفعل" هل تظفر فيه بأفعلته بمعنى وجدته ـ مع سعة الباب ـ إلا في الحرفين أو الثلاثة نقلاً عن أهل اللغة؟ ثم انظر هل قال أحد من الأولين والآخرين من أهل اللغة: إن العرب وضعت أضله الله وهداه، وختم على سمعه وقلبه، وأزاغ قلبه وصرفه على طاعته ونحو ذلك، بمعنى وجده كذلك؟

ولما أراد سبحانه الإبانة عن هذا المعنى قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ۝٧﴾[1].

ولم يقل:

وأضلك، وقال في حق من خالف الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وكفر بما جاء به: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾[2]. ولم يقل: ووجده الله ضالاً.

ثم أي توحيد وتمدح وتعريف للعباد، أن الأمر كله لله وبيده، وأنه ليس لأحد من أمره شيء في مجرد التسمية والعلامة ومصادفة الرب تعالى عباده كذلك، ووجوده لهم على هذه الصفات من غير أن يكون له فيها صنع، أو خلق، أو مشيئة؟ وهل يعجز البشر عن التسمية والمصادفة والوجود كذلك؟ فأي مدحة وأي ثناء يحسن على الرب تعالى بمجرد ذلك؟ فأنتم وإخوانكم من الجبرية لم تمدحوا الرب بما يستحق أن يمدح به، ولم تثنوا عليه بأوصاف كماله، ولم تقدروه حق قدره، وأتباع الرسول وحزبه وخاصته بريئون منكم ومنهم في باطلكم وباطلهم، وهم معكم ومعهم فيما عندكم من الحق، لا يتحيزون إلى فئة غير الرسول وما جاء به، ولا ينحرفون عنه نصرة لآراء الرجال المختلفة، وأهوائهم المتشبثة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[3].

وقد رد عليهم كذلك ابن أبي العز الحنفي بقوله: (قالت المعتزلة: الهدى من الله: بيان طريق الصواب، والإضلال: تسمية العبد ضالاً، أو حكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه، وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم.

والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[4]. ولو كان الهدى بيان الطريق، لما صح هذا النفي عن نبيه؛ لأنه ﷺ بين الطريق لمن أحب وأبغض. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[5]

---

(١) سورة الضحى.
(٢) سورة الجاثية، الآية: (٢٣).
(٣) شفاء العليل، (٢٦٩/١ ـ ٢٧٤).
(٤) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٥) سورة السجدة، الآية: (١٣).

يُضِلُّ﴿ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾(1)، ولو كان الهدى من الله البيان، وهو عام في كل نفس، لما صح التقييد بالمشيئة.وكذا قوله تعالى: وَلَوۡلَا﴿ نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾(2)،وقوله: مَن﴿ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(3))(4).وقال الرازي: (اعلم أنه تعالى لما وصف الضالين بالوصف المذكور، وعرف حالهم بالمثل المذكور بين في هذه الآية(5) أن الهداية من الله، وأن الضلال من الله ـ تعالى ـ، وعند هذه اضطربت المعتزلة وذكروا في التأويل وجوهًا كثيرة:

الأول ـ وهو الذي ذكره الجبائي وارتضاه القاضي، أن المراد من يهده الله إلى الجنة والثواب في الآخرة، فهو المهتدي في الدنيا السالك طريقة الرشد فيما كلف،فبين الله تعالى أنه لا يهدي إلى الثواب في الآخرة إلا من وصفه،ومن يضلله عن طريق الجنة فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴿ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾(6).

والثاني ـ قال بعضهم: إن في الآية حذفًا والتقدير: من يهده الله فقبل وتمسك بهداه فهو المهتدي، ومن يضلل بأن لم يقبل فهو الخاسر.

الثالث ـ أن يكون المراد من يهده الله بمعنى أن من وصفه الله بكونه مهتديًا فهو المهتدي لأن ذلك كالمدح، ومدح الله لا يحصل إلا في حق من كان موصوفًا بذلك الوصف الممدوح، ومن يضلل أي ومن وصفه الله بكونه ضالاً فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴿ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.

والرابع ـ أن يكون المراد من يهده الله بالألطاف وزيادة الهدى، فهو المهتدي، ومن يضلل عن ذلك لما تقدم منه من سوء اختياره، فأخرج لهذا السبب بتلك الألطاف من أن يؤثر فيه فهو من الخاسرين.

ثم أبطل هذه التأويلات فقال: (أما التأويل الأول: فضعيف؛ لأنه حمل قوله: مَن﴿

---

(1) سورة المدثر، الآية: (31).
(2) سورة الصافات، الآية: (57).
(3) سورة الأنعام.
(4) شرح العقيدة الطحاوية (138/1).
(5) أي قوله تعالى: مَن﴿ يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِي ۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف].
(6) سورة الأعراف.

يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾[1] على الهداية في الآخرة إلى الجنة، وقوله: فَهُوَ﴿ ٱلۡمُهۡتَدِي ﴾ على الاهتداء إلى الحق في الدنيا، وذلك يوجب ركاكة في النظم، بل يجب أن تكون الهداية والاهتداء راجعين إلى شيء واحد، حتى يكون الكلام حسن النظم.

وأما الثاني: فإنه التزام لإضمار زائد، وهو خلاف اللفظ، ولو جاز فتح باب أمثال هذه الإضمارات لانقلب النفي إثباتًا، والإثبات نفيًا، ويخرج كلام الله ـ عز وجل ـ من أن يكون حجة، فإن لكل أحد أن يضمر في الآية ما يشاء، وحينئذ يخرج الكل عن الإفادة.

وأما الثالث: فضعيف؛ لأن قول القائل: فلان هدى فلانًا لا يفيد في اللغة البتة أنه وصفه بكونه مهتديًا، وقياس هذا على قوله فلان ضلل فلانًا وكفره، قياس في اللغة وإنه في نهاية الفساد.

والرابع: أيضًا باطل؛ لأن كل ما في مقدور الله تعالى من الألطاف فقد فعله عند المعتزلة في حق جميع الكفار، فحمل الآية على هذا التأويل بعيد. والله أعلم)[2].

وأما ما زعمه القاضي عبد الجبار من أنه لا يوجد في اللغة، ولم يرد في القرآن إضافة الهدى بمعنى خلق الإيمان والطاعة فهو مردود بما ذكره ابن جرير الطبري؛ إذ يقول: (فإن قال قائل: وأنى وجدت الهداية في كلام العرب بمعنى التوفيق.

قيل له: ذلك في كلامها أكثر وأظهر من أن يحصى عدد ما جاء عنهم في ذلك من الشواهد، فمن ذلك قول الشاعر:

لا تحرمني هـــداك الله مسئلتي ... ولا أكونن كمن أودى به السفر

يعني به: وفقك الله لقضاء حاجتي.

ومنه قول الآخر:

ولا تعجلني هداك المليك ... فإن لكل مقام مقـــالا[3]

فمعلوم أنه إنما أراد: وفقك الله لإصابة الحق في أمري.

ومنه قول الله ـ جل ثناؤه ـ: وَٱللَّهُ﴿ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ في غير آية من تنزيله.

وقد علم بذلك أنه لم يعن أنه لا يبين للظالمين الواجب عليهم من فرائضه، وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه! وقد عم بالبيان جميع المكلفين من خلقه، ولكنه عنى ـ جل وعز ـ أنه لا يوفقهم ولا يشرح للحق والإيمان صدورهم)[4].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال والأوجه السابقة، تبين أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو الوجه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٧٨).
(٢) مفاتيح الغيب (٦٢/١٥ ـ ٦٣).
(٣) القائل ابن عبدربه الأندلسي ، انظر : العقد الفريد ، ص (٤٣٨٤) .
(٤) جامع البيان (٧٢/١).

الأول من أوجه الجمع بين الآيات، وذلك أن الهداية العامة هي هداية الدلالة والإرشاد، وأن الهداية الخاصة بالمؤمنين هي هداية التوفيق؛ وذلك لما يلي:

٤- لقوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٥- موافقته لظاهر وسياق الآيات.

٦- موافقته للغة العرب.

٧- أنه محل إجماع أهل السنة والجماعة من السلف والخلف ومن وافقهم.

٨- إن فيه الجمع بين الآيات القرآنية وإعمالها.

* * *

المسألة الثانية

آيات في الهداية المثبتة والمنفية

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾[(١)]. **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾[(٢)]، **وقوله تعالى:** ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾[(٣)]. ونحوها من الآيات التي تثبت هداية الله سبحانه للناس جميعًا.

---

(١) سورة الليل.

(٢) سورة الإنسان.

(٣) سورة البلد

مع **قوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾[1]، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾[2]، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾[4]. ونحوها من الآيات التي تدل على نفي هداية الله للظالمين أو الكافرين أو الفاسقين ونحوهم.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تدل الآيات الأولى، ونحوها من الآيات على أن الله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعًا، بينما تدل الآيات الأخر على عدم هداية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لبعض الناس، كالكافرين والفاسقين والظالمين ونحوهم. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ أن هداية الله سبحانه وتعالى التي أثبتها لجميع الناس، هي هداية البيان والإرشاد والدلالة، وأما الهداية التي نفاها الله عن بعض الناس كالكفار والفساق والظلمة فهي هداية التوفيق والإلهام.

وهذا قول جمهور المفسرين، أهل السنة والجماعة. ووافقهم الأشاعرة والماتريدية[5].

قال العمراني[6]: (فقد ذكر الله الهدى في القرآن في مائتين وستة وثلاثين

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة المائدة.
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة آل عمران، الآية: (٨٦).
(٥) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٣٤٢/٣ ـ ٣٢٦/٣٠). ومعاني القرآن وإعرابه (٣٣٦/٥). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٣٨/١ ـ ٢٣٩/٦). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٧٩/١ ـ ٦٢٩/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١١٧/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٤/٨). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧١/٢ ـ ٤٢١/٨). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٩/٧ ـ ١٣٨/٨ ـ ٢٠٢/٣١). ومنهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٣٠٨/٥). وبدائع التفسير، لابن القيم (٢٤٩/٥). والانتصار، للعمراني (٢٨٦/١).
(٦) هو يحي بن أبي الخير العمراني ، شيخ الشافعية في اليمن ، عالم بالفقه والأصول والكلام والنحو ،ولد في اليمن سنة(٤٨٩هـ) وتوفي بها سنة (٥٥٨هـ) .

موضعًا[1]، وهو على أوجه:

فمنه ما ورد والمراد به التأييد والتوفيق، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2]. أي ليس عليك توفيقهم وتأييدهم، ولكن الله يؤيد ويوفق لذلك من يشاء، فعلقه على من يشاء، فدل على أنه على غير عمل سبق منهم.

ومنه ما ورد والمراد به الدعاء، والدلالة وهو المراد بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[3] أي لتدعوهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾[4]. أي أي دليل، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾[5]، أي دلوهم، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[6] أي: يدل. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾[7]، أي: الدلالة على الحق...)[8].

وقال الشنقيطي: (والجواب هو ما تقدم من أن الهدى يستعمل في القرآن خاصًا وعامًا، فالمثبت العام والمنفي الخاص، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم) [9].

وقال أبو النور الحديدي: (ولا تعارض بين آية الليل، وبين ما في آل عمران والمائدة وغيرها من الآيات.

فإن الهدى في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾[10]. بمعنى الدلالة والبيان، وقد دل الله تعالى عباده وأرشدهم إلى الحق بما أرسل من رسل، وما أنزل من كتب) [11]. ثم

---

(١) وردت كلمة "الهدى" وتعريفاتها في القرآن أكثر مما ذكر المصنف؛ إذ بلغت ثلاثمائة وثمانية مواضع تقريبًا حسب ذكرها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).
(٣) سورة الشورى.
(٤) سورة الرعد.
(٥) سورة الصافات.
(٦) سورة الإسراء، الآية: (٩).
(٧) سورة الليل.
(٨) الانتصار، (٢٨٦/١ ـ ٢٨٧).
(٩) دفع إيهام الاضطراب بين آيات الكتاب (ص ٢٣٣).
(١٠) سورة الليل.
(١١) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن (ص٥٤).

قال: (والآيات الأخرى التي أخبر أن الله لا يهدي الظالمين، ولا يهدي الكافرين، وما إليها من الآيات، الهدى فيها بمعنى التوفيق للإيمان والحق، وهذه التي تفرد بها الله ـ عز وجل ـ ولا يقدر عليها أحد من الخلق)(١).

فالهدى المثبت هنا ، هدى الدلالة، وهو للخق كلهم، والهدى المنفي هنا ـ عن الظالمين والكافرين ـ هدى التوفيق للإيمان والحق، ونفي الثاني لا يستلزم نفي الأول.

القول الثاني ـ تأويل هداية الله التي نفاها عن بعض الناس كالظالمين والكافرين بمعنى: الثواب أو الأخذ بهم في طريق الجنة، أو بمعنى: زيادة الهدى.

وهو قول القدرية من معتزلة ونحوهم.

قال القاضي عبد الجبار: (وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾(٢). يجب أن يحمل على أن المراد به الهداية بمعنى الثواب، والأخذ بهم في طريق الجنة، أو بمعنى زيادة الهدى، وقد بينا من قبل شرح ذلك. وحمله على معنى الدلالة لا يصح؛ لأنه تعالى قد دل الظالم على ما كلفه، كما دل غيره، ولولا ذلك لم يستحق الذم بظلمه)(٣).

وقد ذكر هذه التأويلات الرازي وأبطلها فقال: (قال القاضي: ومنها أنه تعالى لا يهديهم إلى الصواب في الآخرة ولا يهديهم إلى الجنة.

وأقول: هذا أيضًا ضعيف؛ لأن المذكور ههنا أمر الاستدلال وتحصيل المعرفة، ولم يجر للجنة ذكر، فيبعد صرف اللفظ إلى الجنة، بل أقول: اللائق بسياق الآية أن يقال: إنه تعالى لما بين أن الدليل كان قد بلغ في الظهور والحجة إلى حيث صار المبطل كالمبهوت عند سماعه، إلا أن الله تعالى لما لم يقدر له الاهتداء لم ينفعه ذلك الدليل الظاهر، ونظير هذا التفسير قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٤))(٥).

وأما ما زعمه القاضي عبد الجبار من تأويل الهداية المنفية عن الظالمين، بنفي زيادة الهدى فمردود من وجهين:

الأول ـ أن زيادة الهدى والإيمان ونقصانه عندهم ممتنع عقلاً، فكيف يصح تأويل الهداية المنفية عن الظالمين هنا بنفي زيادة الهدى؛ لأن مفهوم ذلك إثبات زيادة الهدى للمؤمنين، وهذا تناقض مع مذهب المعتزلة في زيادة الإيمان ونقصانه.

الثاني ـ أنه لو كان المراد نفي زيادة الهدى عن الظالمين، لصرح المولى عز وجل

---

(١) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن (ص٥٤).
(٢) سورة البقرة.
(٣) متشابه القرآن (ص١٣٥).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١١١).
(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/٧).

بذلك كما صرح بإثبات زيادة الهدى للمؤمنين في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[2] [3].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال والأوجه السابقة، يتجلى أن الصحيح هو القول الأول، وهو أن الهداية المثبتة هي هداية الدلالة والإرشاد، وأن الهداية المنفية هي هداية التوفيق؛ وذلك لما يلي:

٩- قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

١٠- موافقته لظاهر الآيات.

١١- موافقته لغة العرب.

١٢- أنه محل إجماع أهل السنة والجماعة من السلف والخلف ومن وافقهم.

١٣- أن فيه الجمع بين الآيات القرآنية ، وإعمالها كلها.

---

(١) سورة محمد.
(٢) سورة مريم، الآية: (٧٦).
(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٢٩،٣٠/٧).

المطلب الثاني

آيات في هداية الرسول ﷺ

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: إِنَّكَ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[(1)].

وقوله تعالى: وَمَآ﴿ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾[(2)]. ونحوها من الآيات التي تدل على نفي الهداية عن الرسول ﷺ.

مع قوله تعالى: وَإِنَّكَ﴿ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(3)]. ونحوها من الآيات التي تثبت الهداية للرسول ﷺ. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيات الأولى إلى أن النبي ﷺ لا يملك الهداية لأحد من البشر، بينما تدل الآية الأخيرة إلى ثبوت الهداية للنبي ﷺ.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بينها، وذلك على النحو التالي:

أن الهداية التي نفاها الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ﷺ هي هداية التوفيق والإلهام، وأما الهداية التي أثبتها الله عز وجل لرسوله ﷺ فهي هداية الدعوة والبيان.

وهذا هو قول جمهور المفسرين من أئمة أهل السنة والجماعة، ووافقهم في ذلك الأشاعرة والماتريدية[(4)].

---

(١) سورة القصص، الآية: (٥٦).

(٢) سورة النمل، الآية: (٨١).

(٣) سورة الشورى.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري (٩١/٢٠). ومعاني القرآن، للزجاج (١٤٩/٤). ومعالم التنزيل، للبغوي (٩٠/٤). والمفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (ص٥٣٩). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١١٦/١، ١١٧). والانتصار، للعمراني (٢٨٦/١ ـ ٢٨٩). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٥/٣). وشفاء العليل، لابن القيم (٢٦٤/١). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٦٥/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦٠/١). وفتح القدير، للشوكاني (٣٣/١). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص٨).

قال ابن كثير رحمه الله: (ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1]، وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[2]، وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾[3]. وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾[4]. إلى غير ذلك من الآيات.

ويطلق ويراد به: بيان الحق وتوضيحه، والدلالة عليه، والإرشاد إليه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[5]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[7].على تفسير من قال المراد بهما: الخير والشر وهو الأرجح، والله أعلم) [8].

وقال الراغب الأصفهاني: (والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطرق، دون سائر أنواع الهدايات،وإلى الأول أشار بقوله:﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[9]، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[10]، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾[11] أي: داع. ثم قال: (وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة، كقوله عز ذكره:﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ

---

(١) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٨٦).
(٤) سورة الكهف.
(٥) سورة الشورى.
(٦) سورة الرعد.
(٧) سورة البلد.
(٨) تفسير القرآن العظيم، (١٦٥/١).
(٩) سورة الشورى.
(١٠) سورة الأنبياء، الآية: (٧٣).
(١١) سورة الرعد.

﴾(1)، وَلَوۡ ﴿ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾(2)، وَمَآ ﴿ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾(3)، إن ﴿ تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾(4)، وَمَن ﴿ يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾(5)، وَمَن ﴿ يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾(6)، ﴿ إِنَّكَ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ ﴾أَحۡبَبۡتَ(7))(8).

وقال يحيى العمراني: (فقد ذكر الله الهدى في القرآن مائتين وستة وثلاثين موضعًا، وهو على أوجه:

فمنه ما ورد والمراد به التأييد والتوفيق، وهو المراد بقوله تعالى: لَّيۡسَ ﴿ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾(9)، أي: ليس عليك توفيقهم وتأييدهم، ولكن ولكن الله يؤيد ويوفق لذلك من يشاء، فعلقه على من يشاء، فدل على أنه على غير عمل سبق منهم.

ومنه ما ورد والمراد به الدعاء والدلالة وهو المراد بقوله: وَإِنَّكَ ﴿ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(10) أي لتدعوا، ومثله قوله تعالى: وَلِكُلِّ ﴿ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾(11) أي: دليل)(12).

ثم قال: (فالدعوة من الله على ألسنة الرسل، والبيان، والدلالة عامة لجميع الخلق ولم يجعل الله إلى الرسل إلا ذلك، ولا أقدرهم ولا أمرهم إلا بذلك، وأما الهداية الذي هو التأييد والتسديد والتوفيق، وتنوير القلوب فالله يختص به من يشاء من عباده، ولم يجعل

(1) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).
(2) سورة الأنعام، الآية: (٣٥).
(3) سورة الروم، الآية: (٥٣).
(4) سورة النحل، الآية: (٣٧).
(5) سورة الزمر.
(6) سورة الزمر، الآية: (٣٧).
(7) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(8) المفردات في غريب القرآن (ص ٥٣٩).
(9) سورة البقرة، الآية: (٢٧٢).
(10) سورة الشورى.
(11) سورة الرعد.
(12) الانتصار (٢٨٦/١، ٢٨٧).

إلى الرسل منه شيئًا، وهو المراد بإخباره تعالى عن نبيه محمد ﷺ: إِنَّكَ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[١].

وذلك أن أبا طالب بن عبد المطلب قال عند موته: يا معشر بني هاشم أطيعوا محمدًا وصدقوه تصلحوا وترشدوا، فقال له النبي ﷺ: **((يا عم تأمرهم بالنصيحة وتدعها لنفسك))** قال: فما تريد يا ابن أخي، قال: **((أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام حياتك أن تقول: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله))** فقال: يا ابن أخي قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يقال: جزع عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها، ولأقررت عينك عند الفراق؛ لما أرى من شدة وجدك ونصحك، ولكن سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف، فأنزل الله: إِنَّكَ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ ﴾أَحْبَبْتَ[٢]الآية)[٣]، يقول: إنك لا تؤيد ولا توفق إلى الإسلام، خصت أبا طالب وعمت، ولكن الله يوفق ويؤيد إلى الإسلام من يشاء، خصت العباس، وعمت غيره: وَهُوَ﴿ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٤]من قدر له الهدى، ولا يجوز يجوز أن يراد بهدي النبي ﷺ ههنا الدعوة ولا الدلالة لأنه قد دعى الجميع، وبين الله للجميع)[٥].

وقال الرازي: (المسألة الثانية: أنه تعالى قال في هذه الآية: إِنَّكَ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ ﴾أَحْبَبْتَ[٦]، وقال في آية أخرى: وَإِنَّكَ﴿ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٧] ولا تنافي بينهما؛ فإن الذي أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان، والذي نفي عنه هداية التوفيق، وشرح الصدر، وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه: أَوَمَن﴿ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ ﴾نُورًا[٨] الآية)[٩].

---

(١) سورة القصص.
(٢) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٣) لم أجد من ذكر القصة بلفظ المصنف هنا، ولكن أصلها في الصحيحين، فقد أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: قصة أبي طالب ح/٣٨٣٨ (ص٦٥١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت...ح/٢٤ (ص٣٣).
(٤) سورة القصص.
(٥) الانتصار، (ص ٢٨٦ ـ ٢٨٩).
(٦) سورة القصص، الآية: (٥٦).
(٧) سورة الشورى.
(٨) سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).
(٩) مفاتيح الغيب، (٢٥/٣).

ويقول ابن القيم: (وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾[1]. ونفى عنه ملك الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2] ولهذا قال ﷺ: ((**بعثت داعيًا ومبلغًا، وليس إلي من الهداية شيء، وبعث إبليس مزينًا ومغويًا وليس إليه من الضلالة شيء**))[3])[4].

القول الثاني. أن الهداية التي نفاها الله عن النبي ﷺ بمعنى: الثواب.

وهو قول القدرية من المعتزلة ونحوهم.

قال القاضي عبد الجبار: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[5] فغير دال على أن الهدى هو الإيمان الذي لا يصح من الرسول عليه السلام على ما يذكرون وذلك لأن الهدى قد بينا أنه يحتمل، وأن الأصل فيه هو الفوز والنجاة، والدلالة والبيان فيجب أن يحمل على أن المراد بذلك أنه لا يثيب من أحب، وأن ذلك لا يصح ويحصل بحسب محبته. وإنما يحصل بفعل الطاعة والإيمان، وأنه تعالى يهدي من يشاء ممن قد آمن واستحق ذلك ولا يجوز أن يحمل على معنى الدلالة؛ لأنه تعالى وصفه بأنه يهدي وينذر بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾[6]، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾[7]. فيجب أن يكون المنفي غير المثبت وإلا تناقض الكلام، وكلامه يتعالى عن ذلك)[8].

الترجيح:

ويتبين لي مما سبق أن الصحيح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول، وهو أن الهداية

---

(١) سورة الشورى.

(٢) سورة القصص، الآية: (٥٦).

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ومجانبة الفرق المذمومة، ت: د. عثمان عبد الله آدم، ط الثانية ١٤١٨هـ، دار الراية، الرياض، ح/١٢٨٣ (٢٧١/١) وضعفه. وقال الألباني في السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض ح/٢٢٤٩ (٢٧٥/٥): موضوع.

(٤) شفاء العليل، (٢٦٤/١).

(٥) سورة القصص، الآية: (٥٦).

(٦) سورة الرعد.

(٧) سورة الشورى.

(٨) متشابه القرآن، (ص ٥٤٧).

الثابتة للنبي ﷺ هي هداية الدلالة والبيان، والهداية المنفية عنه ﷺ هي هداية التوفيق؛ وذلك لما يلي:

١- قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٢- موافقته لظاهر الآيات.

٣- موافقته لغة العرب.

٤- أنه محل إجماع أهل السنة والجماعة من السلف والخلف ومن وافقهم.

٥- أن فيه الجمع بين الآيات القرآنية في المسألة ، وإعمالها.

* * *

المطلب الثالث

آيات في هداية القرآن

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1] **مع قوله تعالى:** ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2] ونحوها من الآيات.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير هذه الآية إلى أن هداية القرآن خاصة بالمتقين، بينما تشير الآية الثانية ونحوها من الآيات إلى أن هداية القرآن عامة لجميع الناس. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات،وذلك على الأقوال التالية:

القول الأول ـ أن الله سبحانه وتعالى خص المتقين بهداية القرآن في هذه الآية تشريفًا لهم.

وهو قول جمع من أهل العلم المفسرين[3].

قال القرطبي رحمه الله: (خص الله تعالى المتقين بهدايته، وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم؛ لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه، وروي عن أبي روق أنه قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[4] أي كرامة لهم؛ يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً لهم، وكرامة لهم، وبيانًا

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٢/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (١٣/١). وباهر البرهان للغزنوي (٢٢/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٤/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦١/١).

(٤) سورة البقرة.

وبيانًا لفضلهم)[1].

القول الثاني . أن الله تعالى خص المتقين بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بهداية القرآن.

وهو قول جمهور المفسرين[2].

قال أبو المظفر السمعاني: (فإن قال قائل: لم خص المتقين بالذكر، وهو هدى لجميع المؤمنين؟ قيل: إنما خصهم بالذكر تشريفًا، أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى؛ حيث نزلوا منزل التقوى دون غيرهم، فلهذا خصهم به)[3].

وقال يحيى العمراني: (وخص ذكر المتقين: أي إنما ينتفع بالبيان المتقون الذين سبقت لهم من الله الرحمة، وإن كان الخطاب للجميع، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[4]. فعم الناس بالإنذار، وأخبر أنه لا ينتفع بالإنذار إلا البعض، فقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾[5]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾[6]، وكقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾[7])[8].

وقال ابن كثير رحمه الله: (وخصت الهداية للمتقين. كما قال: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾[9]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾[10] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١٦٣/١).
(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٢/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (١٣/١). وباهر البرهان. للغزنوي (٢٢/١). والانتصار. للعمراني (٢٨٧/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (١٩/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٤/٢). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٦١/١ ـ ١٦٤).
(٣) تفسير القرآن (٤٢/١).
(٤) سورة يونس، الآية: (٢).
(٥) سورة يس، الآية: (١١).
(٦) سورة النازعات
(٧) سورة الذاريات.
(٨) الانتصار، (٢٨٧/١ ـ ٢٨٨).
(٩) سورة فصلت.
(١٠) سورة الإسراء.

اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾[1])[2].

القول الثالث. أنه أراد المتقين، والكافرين، فاكتفى بذكر أحد الفريقين.

وهو قول ابن الجوزي؛ إذ يقول: (فإن قيل: فالمتقي مهتد، فما فائدة اختصاص الهداية به؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد المتقين والكافرين، فاكتفى بذكر أحد الفريقين، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[3]. أراد: والبرد.

والثاني: أنه خص المتقين لانتفاعهم به، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾[4]. وكان منذرًا لمن يخشى ولمن لا يخشى)[5].

القول الرابع . أن هداية القرآن الخاصة بالمؤمنين هي هداية التوفيق والإلهام، وهداية القرآن العامة: هي هداية الدلالة والبيان.

وهو قول الشنقيطي وأبوالنور الحديدي.

يقول الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: (ووجه الجمع بينهما أن الهدى يستعمل في القرآن استعمالين: أحدهما عام، والثاني خاص) ثم بينهما وقال: (فإذا علمت ذلك فاعلم أن الهدى الخاص بالمتقين هو الهدى الخاص، وهو التفضل بالتوفيق عليهم، والهدى العام للناس هو الهدى العام، وهو إبانة الطريق، وإيضاح المحجة)[6].

ويقول أبوالنور الحديدي: (وخلاصة الجواب:

أن الهدى في قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾[7] هو الهدى الخاص، الذي هو التفضل التفضل بتوفيقهم، والهدى الذي هو لعموم الناس في قوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾[8] هو

---

(١) سورة يونس.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/١٦٣ ـ ١٦٤).
(٣) سورة النحل، الآية: (٨١).
(٤) سورة النازعات
(٥) زاد المسير، (١/١٩). وانظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لأبي يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق محمد علي الصابوني، ط الأولى ١٤٠٣هـ، دار القرآن الكريم ـ بيروت (ص١٢).
(٦) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص ٧ ـ ٨).
(٧) سورة البقرة.
(٨) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

الهدى العام الذي هو إبانة الطريق وإيضاح المحجة) [1].

القول الخامس. أن قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قد خصص بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وهو ما يذهب إليه أبو الحسن الأشعري يقول: (يقولون: أليس قد قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ﴾[2]. فما أنكرتم أن يكون القرآن هدى للكافرين والمؤمنين؟

قيل لهم: الآية خاصة؛ لأن الله تعالى قد بين لنا أنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وأخبرنا أنه لا يهدي الكافرين، والقرآن لا يتناقض، فوجب أن يكون قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[4] أراد المؤمنين دون الكافرين)[5].

الترجيح:

وبعد النظر في هذه الأقوال، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الثاني، وهو: أن الله خص المتقين بالذكر في هداية القرآن؛ لأنهم هم المنتفعون بهدايته؛ وذلك لما يلي:

١ـ قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٢ـ دلالة الآيات على ذلك.

٣ـ أن فيه الجمع بين الآيات القرآنية في هذه المسألة وإعمالها.

٤ـ أنه قول جمهور المفسرين.

* * *

---

(١) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، (ص٥٦).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).
(٥) الإبانة ، (ص٢١٩).

المبحث الثاني

آيات في نفي إيمان الكافر مع إمكانية وقوعه

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: إِنَّ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ ٦[1]. **مع قوله تعالى**: قُل﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾[2] الآية، **وقوله تعالى**: وَمِنۡ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ ﴾[3]. ونحوها من الآيات التي تدل على إيمان بعض الكفار.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآية الأولى إلى عدم إيمان الكفار، بينما تشير الآيات الأخر إلى أن بعض الكفار يؤمنون بالله ورسوله. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ أن هذه الآية من العام المخصوص؛ لأنها في خصوص الأشقياء الذين سبقت لهم في علم الله الشقاوة[4].

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٨).
(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٤٧).
(٤) **تنبيه:** اختلف المفسرون بالمراد بقوله تعالى:ٱلَّذِينَ﴿ ﴾كَفَرُواْ في قوله تعالى: إِنَّ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ ٦ على ثلاثة أقوال: الأول: أنها نزلت في بعض مشركي العرب كأبي جهل ونحوه الذين قتلوا في بدر. والثاني: أنها نزلت في طائفة من اليهود، ومنهم حي بن أخطب. الثالث: أنها نزلت في قادة الأحزاب.
ولكنهم اتفقوا على أن هذه الآية خاصة بمن مات على الكفر سواء من مشركي العرب أو من أحبار

وهو قول جمهور العلماء[1].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (فأما مذهب من تأول في ذلك ما قاله الربيع بن أنس فهو أن الله تعالى ذكره لما أخبر عن قوم من أهل الكفر بأنهم لا يؤمنون، وأن الإنذار غير نافعهم ثم كان من الكفار من قد نفعه الله بإنذار النبي ﷺ إياه؛ لإيمانه بالله وبالنبي ﷺ وما جاء به من عند الله بعد نزول هذه السورة، لم يجز أن تكون الآية نزلت إلا في خاص من الكفار وإذ كان ذلك كذلك، وكانت قادة الأحزاب لا شك أنهم ممن لم ينفعه الله عز وجل بإنذار النبي ﷺ إياه حتى قتلهم الله ـ تبارك وتعالى ـ بأيدي المؤمنين يوم بدر علم أنهم ممن عني الله ـ جل ثناؤه ـ بهذه الآية)[2].

وقال النحاس: (هم الكفار الذين ثبت في علم الله تعالى أنهم كفار، وهو لفظ عام يراد به الخاص)[3].

وقد استدل أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾[4].

٢ ـ قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾[5].

قال ابن كثير ـ مستدلاً له بهاتين الآيتين ـ : (أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له، ومن أضله الله فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم، ولا يهمنك ذلك)[6].

اليهود.

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١/١٠٩ ـ ١١٠) ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/٧٩). ومعاني القرآن، للنحاس (١/٨٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٤٦). ومعالم التنزيل، للبغوي (١/١٧) والمحرر الوجيز، لابن عطية (١/١٥٣). وزاد المسير، لابن الجوزي (١/٢٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (١/٤٥). وباهر البرهان، للغزنوي (١/٢٣). وتنزيه المطاعن عن القرآن، للقاضي عبد الجبار (ص١٣) . وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/١٧٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١/١٨٤). وفتح القدير، للشوكاني (١/٣٩). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٩).

(٢) جامع البيان (١/١٠٩).

(٣) معاني القرآن، (١/٨٧).

(٤) سورة يونس.

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٤٥).

(٦) تفسير القرآن العظيم (١/١٧٤).

٣ ـ أن هذه الآية نزلت في قوم أخبر الله أنهم لا يؤمنون، كما في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾[1]. وكما أخبر نوحًا عليه السلام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[2][3].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[4] الآية.يقول الشنقيطي:(في هذه الآية دليل على التخصيص)[5].

٥ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾[6] قال: كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله ـ جل ثناؤه ـ أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول)[7].

يقول ابن القيم: (ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال على الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذل)[8].

القول الثاني ـ أن المعنى: لا يؤمنون ما دام الطبع على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة على أبصارهم فإن أزال الله عنهم ذلك بفضله آمنوا[9].

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: (وآية البقرة مطلقة عامة فإنه

---

(١) سورة الكافرون.
(٢) سورة هود، الآية: (٣٦).
(٣) انظر: معاني القرآن، للزجاج (٧٩/١).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٧).
(٥) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، (ص ٩).
(٦) سورة البقرة.
(٧) جامع البيان (١٠٩/١).
(٨) بدائع التفسير (٢٦٥/١).
(٩) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص ٩).

ذكر في أول السورة أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكفار، وبضع عشرة آية في المنافقين.

فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره وليس قال: إن الله لا يهدي أحدًا من هؤلاء، فيسمع ويقبل. ولكن هو حين يكون كافرًا لا تتناوله الآية. وهذا كما يقال في الكافر الحربي: لا يجوز أن تعقد له الذمة، ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربيًا.

فالكفار ما داموا كفارًا هم بهذه المثابة، لهم موانع تمنعهم من الإيمان، كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك، وإن أنذروا. وهذا كقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[1]. فهذا مثل كل كافر ما دام كافرًا.

وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فإنهم لا يسمعون، لذلك المعنى المشتق منه، وهو الكفر. فما داموا هذه حالهم فهم كذلك ولكن تغير الحال ممكن، كما قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2]. وكما هو الواقع.

ثم بين أن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل، وقبول القابل، وأن إنذار الكافر من هذا الجنس،ثم قال:(فقوله:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3]من هذا الباب.والتقدير:من ختم على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشاوة، فسواء عليك أنذرته أم لم تنذره هو لا يؤمن أي ما دام كذلك، ولكن هذا قد يزول، وفي صفة النبي ﷺ: ((﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾[4] **وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسوله، سميتك المتوكل، المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا))**[5].

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة الأنعام، الآية: (١١١).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٦).
(٤) سورة الفتح.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب: كراهية السخب في الأسواق، ح/٢١٢٥ (ص٣٤١). (ص٣٤١).

وقد قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[1]. فدل على أن بعضهم يؤمنون. ثم قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾[2] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[3]، هذا هو الإنذار التام، وهو الإنذار الذي يقبله المنذر وينتفع به.

وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾[4] هو أصل الإنذار، كما يقال في البليد والمشغول الذهن بأمور الدنيا والشهوات، سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم ولا يقبل الهدى، ويقال في الذكي الفارغ: إنما يتعلم مثل هذا، ثم المشغول قد يتفرغ وقد يصلح ذهنه بعد فساده، ويفسد بعد صلاحه لفساد قلبه وصلاحه.

وعلى هذا القول أكثر تفسير السلف، كما ذكره ابن إسحاق، وقد رواه ابن أبي حاتم وغيره.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5]. أي: بما أنزل إليك، وإن قالوا قد آمنا بما جاءنا من قبلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾[6]. أي: إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاء به غيرك[7].

فكيف يسمعون منك إنذارًا وتحذيرًا؟!

فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم وما جاءهم من الحق، ومعلوم أن منهم خلقًا تابوا بعد ذلك وآمنوا)[8].

ثم قال: (والمقصود أن قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) سورة يس.
(٢) سورة يس، الآية: (٨).
(٣) سورة يس، الآية: (١١).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٦).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٦).
(٦) سورة البقرة
(٧) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (١٠٩/١). وذكره ابن كثير في تفسيره (١٧٤/١). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٩/١) لابن إسحاق ، وابن أبي حاتم .
(٨) مجموع الفتاوى (٥٨٦/١٦ ـ ٥٩٢).

﴾(١) كقوله: إِنَّكَ﴿ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾(٢)، وقوله: أَفَأَنتَ﴿ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾(٣).

وكل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك وتبليغك وحرصك على هداهم ليس موجب ذلك، وإنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم للإسلام، كما قال تعالى: إِن﴿ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾(٤).ففيه تعزية لرسوله ﷺ وبينت الآية له أن تبليغك وإن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك)(٥).

الترجيح :

وبعد النظر في القولين السابقين ، وأدلتهما ، يظهر أن الراجح والله أعلم ، القول الأول ؛ وذلك لمايلي :

١- دلالة ظاهر الآية عليه .

٢-أنه قول ابن عباس – رضي الله عنه - .

٣- قوة أدلته ، وسلامتها من المعارض .

٤- أنه قول جمهور المفسرين .

* * *

---

(١) سورة البقرة

(٢) سورة النمل، الآيتان: (٨٠، ٨١).

(٣) سورة يونس.

(٤) سورة النحل، الآية: (٣٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٥٨٦/١٦ - ٥٩٢).

الفصل الثاني

آيات في بيان الإرادة والأمر

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول - آيات في الإرادة الشرعية والكونية.

المبحث الثاني - آيات في الأمر الكوني والشرعي.

المبحث الأول

آيات في الإرادة الشرعية والكونية

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[1]، **وقوله تعالى:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[2]. **وقوله تعالى:** ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[3].

مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[4].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيات الأولى ونحوها من النصوص إلى أن الله تعالى خلق الخلق فريقين، فريق للجنة وفريق للسعير، وأنه سبحانه وتعالى أراد هذا الاختلاف وقدره عليهم، بينما تدل الآية الأخرى على أن الله تعالى خلقهم وأراد منهم العبادة. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء عند تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على النحو التالي:

القول الأول ـ أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[5]. أي: ما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي. وعلى هذا القول فالمراد بهذه الآية المؤمنين بالله ـ تعالى ـ وأهل طاعته.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).
(٢) سورة التغابن، الآية: (٢).
(٣) سورة هود، الآيتان: (١١٨، ١١٩).
(٤) سورة الذاريات.
(٥) سورة الذاريات.

وهو قول طائفة من السلف والخلف[1]، وهو قول الكرامية ونفاه الحكمة من الأشاعرة ونحوهم[٢].

وقد روى ابن جرير الطبري بسنده عن زيد بن أسلم في قوله: وَمَا﴿ خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[٣]. قال: (ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة) [٤].

وحكى الإمام ابن جرير قول سفيان: (من خلق للعبادة)[5]. وذكر الإمام ابن تيمية أن سعيد بن المسيب قال: (ما خلقت من يعبدني إلا ليعبدون)[٦]. وقال الضحاك فيما ذكره أبو المظفر السمعاني: (الآية عامة أريد بها الخاص، وهم المؤمنون)[٧].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قراءة أبي بن كعب: (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون)[٨]. وقد نسب البغوي هذه القراءة لابن عباس[9]. وقيل: ابن مسعود[١٠].

٢ ـ قول الله تعالى: وَلَقَدۡ﴿ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾[١١].

فدلت هذه الآية على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق لجهنم كثيرًا من الجن والإنس، وفي هذا دليل على أنهم لم يعبدوه ولو عبدوه حق عبادته لما أدخلهم النار. أورد القرطبي قول القشيري: (ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١١/٢٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٤/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٣٥/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٤٠/١٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥٥/١٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٢٥/٧). وتفسير أبي السعود (١٤٥/٨). وفتح القدير، للشوكاني (٩٢/٥). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص١٥٩). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٠/٨ ـ ٤٥). والانتصار، للعمراني (٤٣٦/٢). والإبانة، للأشعري (١٩٢/٢). وفوائد في مشكل القرآن، للعز بن عبد السلام (ص٢٣٧). وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لزكريا الأنصاري (ص٥٣٥). والبيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، للحديدي (ص١٥٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٠/٨ ـ ٤٤).

(٣) سورة الذاريات.

(٤) جامع البيان (١١/٢٧).

(٥) جامع البيان (١٢/٢٧).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٠/٨).

(٧) انظر: تفسير القرآن، (٢٦٤/٥).

(٨) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٤/٥). وفتح القدير، للشوكاني (٩٢/٥).

(٩) انظر: معالم التنزيل، (٢٣٥/٤).

(١٠) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٩٢/٥).

(١١) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).

المؤمنين منهم)[1].

٣ ـ أن في الجن والإنس الأطفال والمجانين، من خرج من عموم الآية[2].

٤ ـ أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ لام العاقبة، فيكون المعنى: أن عاقبة المؤمنين العبادة، وهو قول الأشاعرة[3].

وقد ضعف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا القول للوجوه التالية:

١ ـ أن قصد العموم ظاهر في الآية، وبَيَّن بيانًا لا يحتمل النقيض؛ إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة؛ فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له، ولم تذكر الملائكة مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الجن والإنس.

٢ ـ أن سياق الآية يقتضي أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم؛ لأن الله خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له؛ولهذا عقبها بقوله:﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾[4]؛ فإثبات العبادة ونفي هذا يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾ أي نصيبًا ﴿مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾[5]. أي: المتقدمين من الكفار. أي نصيبًا من العذاب، وهذا وعيد لمن لم يعبده من الإنس والجن؛ فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآية من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبده.

٣ ـ أن قول بعض الأشاعرة بأن اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ هي لام العاقبة ضعيف لوجهين:

الأول ــ أن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما يكون من جاهل أو عاجز فالجاهل كقوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾[6]. لم يعلم فرعون بهذه العاقبة. والعاجز كقولهم:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٥٥).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥٥/١٧). وفتح القدير، للشوكاني (٩٢/٥). والانتصار، للعمراني (٤٣٦/٢). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٤/٨).
(٣) انظر: الانتصار، للعمراني (٤٣٣/٢). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٤/٨).
(٤) سورة الذاريات.
(٥) سورة الذاريات، الآية: (٥٩).
(٦) سورة القصص، الآية: (٨).

لدوا للموت، وابنوا للخراب [١]

فإنهم يعلمون هذه العاقبة؛ لكنهم عاجزون عن دفعها، والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل العاجز.

الثاني ـ أن الله أراد هذه الغاية بالاتفاق. فالعبادة التي خلق الخلق لأجلها هي مرادة له بالاتفاق، وهم يعلمون أن الله أرادها، وحيث تكون اللام للعاقبة لا يكون الفاعل أراد العاقبة وهؤلاء يقولون: خلقهم وأراد أفعالهم، وأراد عقابهم عليها فكلما وقع فهو مراد له؛ ولكنه عندهم لا يفعل مراد لمراد أصلاً؛ لأن الفعل للعلة يستلزم الحاجة، وهذا ضعيف بيِّن الضعف[٢].

القول الثاني . أن المراد بالعبادة في الآية هو المعنى اللغوي. أي التذلل والخضوع والإذعان طوعًا أو كرهًا.

وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما واختيار جماعة من المفسرين [٣].

قال ابن جرير الطبري: (وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس وهو: ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا.

فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم؛ لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه) [٤].

وقال ابن حزم: (وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٥] فهكذا نقول ما خلقهم الله تعالى إلا ليكونوا له عبادًا مصرفين بحكمه فيهم، منقادين لتدبيره إياهم، وهذه حقيقة العبادة والطاعة أيضًا عبادة)[٦].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

---

(١) القائل أبوالعتاهية ، انظر : ديوانه ص (٢٠)
(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٠/٨ ـ ٤٥).
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٢/٢٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٤/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٣٥/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٤٠/١٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥٥/١٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٢٥/٧). وفتح القدير، للشوكاني (٩٢/٥). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٥٩). والفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (١٧٦/٣). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤٠/٨ ـ ٤٥). والانتصار للعمراني (٤٣٥/٢). والبيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن (ص١٥٨).
(٤) جامع البيان (١٢/٢٧).
(٥) سورة الذاريات.
(٦) الفصل (١٧٨/٣).

١ ـ ما رواه ابن جرير بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥٦][(1)]: إلا ليقروا بالعبودية طوعًا وكرهًا[(٢)].

٢ ـ أن العبودية في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[(٣)]. وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[(٤)].

٣ ـ أن معنى العبادة في اللغة التذلل والانقياد، وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله تعالى، متذلل لمشيئته، لا يملك أحد لنفسه خروجًا عما خُلق له.

٤ ـ قول الله تعالى ـ حاكيًا عن القائلين ـ: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [٤٧][(5)]. قال ابن حزم: (وقد علم كل أحد أن قوم موسى عليه السلام لم يعبدوا يعبدوا قط فرعون عبادة تدين، لكن عبدوه عبادة تذلل، فكانوا له عبيدًا، فهم له عابدون)[(٦)].

٥ ـ قول الله تعالى: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾[(٧)].قال ابن حزم: (وقد علم كل أحد أحد أنهم لم يعبدوا الجن عبادة تدين، لكن عبدوهم عبادة تصرف لأمرهم، وإغوائهم، فكانوا لهم بذلك عبيدًا، فصح القول بأنهم يعبدونهم، وهذا بيِّن)[(٨)].

وقد تعقب شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول فقال: (ولكن قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥٦][(٩)] لم يرد به هذا المعنى الذي ذهبوا إليه، وحاموا حوله، من أن المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره وحكمه، فالمخلوقات كلها داخلة في هذا لا

---

(١) سورة الذاريات.
(٢) جامع البيان (١٢/٢٧).
(٣) سورة آل عمران، الآية: (٨٣).
(٤) سورة الرعد، الآية: (١٥).
(٥) سورة المؤمنون.
(٦) الفصل (١٧٨/٣).
(٧) سورة سبأ، الآية: (٤١).
(٨) الفصل (١٧٨/٣).
(٩) سورة الذاريات.

يشذ منها شيء عن هذا.

وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ ﴾ الآية[1].وقوله:﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[2]. وَٱلَّذِينَ﴿ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ﴾ٱللَّهِ[3]، وَٱلَّذِينَ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾زُلْفَىٰٓ[4]، وقال: وَيَعْبُدُونَ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[5].

فهذا ونحوه كثير في القرآن. لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التي أمرت بها الرسل، وهي عبادته وحده لا شريك له، والمشركون لا يعبدون الله، بل يعبدون الشيطان وما يدعونه من دون الله. سواء عبدوا الملائكة أو الأنبياء، والصالحين، أو التماثيل والأصنام المصنوعة؛ فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى، كما أخبر الله بذلك. فكيف يقال: إن جميع الإنس والجن عبدوا الله؟ لكون قدر الله جاريًا عليهم، والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التي تحصل بإرادتهم واختيارهم وإخلاصهم الدين له وطاعة رسوله، وبين أن يعبدهم هو وينفذ فيهم مشيئته وتكون عبادتهم لغيره: للشيطان وللأصنام من المقدور)[6].

وقال القاضي عبد الجبار: (ولا يمكن حمله على أن المراد الانقياد بما يريده من الخضوع والخشوع، على ما زعمه بعض من يقول في المعارف إنها ضرورية، وذلك ظاهر العبادة هو ما يختاره العبد من الفرائض التي يقوم بها، ومن النوافل، دونه ما ذكروه)[7].

القول الثالث. أن المراد بقوله تعالى: إِلَّا﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾۝٥٦ إلا ليعرفون.

وهو قول مجاهد، واختيار البغوي، وذكره ابن أبي حاتم عن ابن جريج، وقال: وروي عن قتادة[8].

---

(١) سورة يس، الآيتان: (٦٠، ٦١).
(٢) سورة النساء، الآية: (٣٦).
(٣) سورة الزمر، الآية: (١٧).
(٤) سورة الزمر، الآية: (٣).
(٥) سورة يونس، الآية: (١٨).
(٦) مجموع الفتاوى (٤٦/٨، ٤٧).
(٧) متشابه القرآن (ص٦٢٩).
(٨) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٢٣٥/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥٥/١٧، ٥٦). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٢٥/٧). وتفسير أبي السعود (١٤٥/٨). وفتح القدير، للشوكاني

قال البغوي: (وهذا أحسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾[1])[2].

وقد تعقب شيخ الإسلام هذا القول بقوله: (هذا المعنى صحيح؛ وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضي أن خلقهم شرط في معرفتهم، لا يقتضي أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التي خلقوا لها، وهذا من جنس قول السدي، فإن هذا الإقرار العام هم مشركون فيه، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[3] لكن ليس هذا هو العبادة)[4].

القول الرابع . أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يوحدون. فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء.

وهذا قول مروي عن الكلبي[5]، ومثله قول السدي فيما ذكره ابن كثير: (خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع ومن العبادة عبادة لا تنفع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾[6]. هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع شركهم)[7].

وقد استدل الكلبي لقوله بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[8].

وتعقب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا القول بقوله: (وهذا المعنى صحيح لكن المشرك يعبد الشيطان، وما عدل به الله لا يعبد، ولا يسمى مجرد الإقرار بالصانع

(٩٢/٥). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥٠/٨).

(١) سورة العنكبوت.
(٢) معالم التنزيل، (٢٣٥/٤).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٧٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٥٠/٨، ٥١).
(٥) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٢٣٥/٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥٦/١٧). وفتح القدير للشوكاني (٩٢/٥). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥٠/٨). والروض الريان في أسئلة القرآن، لابن ريان (٤٤٥/٢).
(٦) سورة لقمان، الآية: (٢٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤٢٥/٧). وانظر : مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥٠/٨).
(٨) سورة العنكبوت، الآية: (٦٥).

عبادة لله مع الشرك بالله، ولكن يقال كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[1]. فإيمانهم بالخالق مقرون بشركهم به، وأما العبادة ففي الحديث: **((يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك))**[2]. فعبادة المشركين، وإن جعلوا بعضها لله لا يقبل منها منها شيئًا، بل كلها لمن أشركوه، فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه، ومثل هذا قول من قال: إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3])[4].

القول الخامس. أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ إلا معدين لعبادتي.

وهذا القول ذكره ابن عطية، واختاره أبو السعود.

قال ابن عطية: (وتحتمل الآية أن يكون المعنى: وما خلقت الجن والإنس إلا معدين ليعبدوني وكأن الآية تعديد نعمه، أي: خلقت لهم حواسًّا وعقولاً وأجسامًا منقادة لحق العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوق للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحرث وما لا يحارب به أصلًا، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة،لكن بعضهم تكسَّب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي ﷺ: **((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))**[5]، وقوله: **((كل مولد يولد على الفطرة))**[6] الحديث)[7].

وقال أبو السعود: (ومعنى خلقهم لعبادته تعالى، خلقهم مستعدين لها ومتمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له؛ فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة مما لا نزاع فيه قطعًا كيف لا! وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده. وإنما الذي لا

---

(١) سورة يوسف.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب: تحريم الرياء ح/٢٩٨٥ (ص١٢٩٢) بلفظ: **((تركته وشركه))**. وابن ماجه ح/٣٣٨٧ (٤٠٩/٢) بلفظ: **((وهو للذي أشرك))** وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠/٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾، ح/٤٩٤٩ (ص٨٨٥) من حديث علي ﷺ.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، ح/١٣٨٥ (ص٢٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٧) المحرر الوجيز (٤٠/١٤).

يليق بجنابه ـ عز وجل ـ تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لافضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل من كل وجه)[1].

القول السادس ـ أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ أي: إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وأنا مريد العبادة منهم.

وهذا القول هو المأثور عن علي بن أبي طالب، واختاره الزجاج، وابن تيمية وابن كثير وغيرهم[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهو الذي عليه جمهور المسلمين... ولهذا يوجد المسلمون قديمًا وحديثًا يحتجون بهذه الآية على هذا المعنى حتى في وعظهم وتذكيرهم وحكاياتهم)[3].

قال البغوي:(وقال علي بن أبي طالب:﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ أي:إلا لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي)[4].

وقال الزجاج: (الله عز وجل قد علم من قبل أن يخلق الجن والإنس من يعبده ممن يكفر به، فلو كان إنما خلقهم ليجبرهم على عبادته لكانوا كلهم عبادًا مؤمنين، ولم يكن منهم ضلال كافرون، فالمعنى وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وأنا مريد العبادة منهم، يعني من أهلها)[5].

وقال مجاهد ـ فيما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عنه ـ: (لآمرهم وأنهاهم)[6].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) تفسير أبي السعود (١٤٤/٨).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥٨/٥). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٤/٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٣٥/٤). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٤٠/١٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥٥/١٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٢٥/٧). وفتح القدير، للشوكاني (٩٢/٥). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥١/٨ ـ ٥٣). والانتصار، للعمراني (٤٣٦/٢). والكشاف، للزمخشري (٢١/٤). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص١٥٩). ومتشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (ص٦٢٩). وتنزيه المطاعن عن القرآن، للقاضي عبد الجبار (ص٤٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٠/٨، ٥١).

(٤) معالم التنزيل (٢٣٥/٤).

(٥) معاني القرآن وإعرابه (٥٨/٥).

(٦) مجموع الفتاوى (٥١/٨).

(٧) سورة التوبة، الآية: (٣١).

أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ﴾ٱلدِّينَ[١].

٢ ـ قوله تعالى: أَيَحۡسَبُ﴿ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾﴿٣٦﴾[٢]. يقول الإمام ابن (يعني: لا يؤمر ولا ينهى) [٣].

٣ ـ قوله تعالى: قُلۡ﴿ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ ﴾ۖ[٤]. يقول الإمام ابن تيمية: (أي: لولا عبادتكم)[٥].

٤ ـ قوله تعالى: يَٰمَعۡشَرَ﴿ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ۚ إلى قوله: وَأَهۡلُهَا﴿ غَٰفِلُونَ ﴾﴿١٣١﴾[٦].

٥ ـ قوله تعالى: ۞﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾[٧] الآيات.

٦ ـ قوله تعالى عن الجن: قَالُواْ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ ﴾بِهِۦ[٨] الآية.

٧ ـ قوله تعالى عن الجن: وَأَنَّا﴿ مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴾﴿١٤﴾[٩] الآيات.

---

(١) سورة البينة، الآية: (٥).
(٢) سورة القيامة.
(٣) مجموع الفتاوى (٥٢/٨).
(٤) سورة الفرقان، الآية: (٧٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٥٢/٨).
(٦) سورة الأنعام، الآيتان: (١٣٠، ١٣١).
(٧) سورة يس.
(٨) سورة الأحقاف، الآيتان: (٣٠، ٣١).
(٩) سورة الجن.

٨ ـ قوله تعالى في القرآن في غير موضع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فقد أمرهم بما خلقهم له، وأرسل الرسل إلى الإنس والجن، ومحمد أرسل إلى الثقلين، وقرأ القرآن على الجن، وقد روي أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن. وجعل يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾[(٣)]. يقولون: (ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد). فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعًا، وهو الذي تفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه، ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه، لا ليضيعوا حقه)[(٤)].

٩ ـ ما روى الإمام البخاري بسنده عن معاذ بن جبل ﵁ أن النبي ﷺ قال له: **((هل تدري ما حق الله على عباده؟))** قالت: الله ورسوله أعلم. قال: **((فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا))** ثم سار ساعة، ثم قال: **((يا معاذ بن جبل))** قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: **((هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟))** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **((حق العباد على الله أن لا يعذبهم))**[(٥)].

١٠ ـ ما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: **((بعثت بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم))**[(٦)].

١١ ـ ما رواه الإمام أحمد ـ أيضًا ـ بسنده عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **((قال الله: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك))**[(٧)].

وقد تعقب ابن حزم ـ رحمه الله ـ هذا القول بقوله: (وقال بعض أصحابنا معنى هذه الآية: أنه تعالى خلقهم ليأمرهم بعبادته، ولسنا نقول بهذا؛ لأن فيهم من لم يأمره الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢١).
(٢) سورة النساء، الآية: (١).
(٣) سورة الرحمن.
(٤) مجموع الفتاوى (٥٣/٨).
(٥) الصحيح كتاب اللباس، باب: إرداف الرجل خلف الرجل، ح ٥٩٩٧ (ص١٠٤٤، ١٠٤٥) . وانظر: وانظر: صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ح/ ٣٠ (ص٣٦).
(٦) ح/٨٦٨١ (٣٥٨/٢) وقال الأرنؤوط: إسناده محتمل للتحسين؛ لأجل زائدة بن نشيط.
(٧) المسند (٢ /٣٨٥).وقال الأرنؤوط : إسناده قابل للتحسين ؛لأجل زائدة بن نشيط ، ورواه الحاكم في المستدرك ح/٣٦٥٧ (٤٨١/٢) وقال :هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

تعالى قط بعبادته، كالأطفال والمجانين، فصار تخصيصًا للآية بلا برهان)[1].

وذكر القاضي عبد الجبار ردًا على هذا الاعتراض بقوله: (فبين في الدلالة على أنه خلق جميعهم للعبادة، وأنه أراد منهم ذلك إذا بلغهم حد التكليف، فأما المجنون ومن لم يبلغ هذا الحد، فلا يجوز دخوله في الكلام؛ لأنه تضمن أنه أراد العبادة ممن تصح منه)[2].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر لي أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول السادس، أي أن المراد: إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وآمرهم وأنهاهم؛ وذلك لما يلي:

٦ـ قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٧ـ دلالة كثير من الآيات والأحاديث عليه.

٨ـ أنه قول لبعض الصحابة، وأقوال الصحابة مقدمة على غيرها.

٩ـ موافقته اللغة.

١٠ـ أنه المعنى الظاهر من الآية.

١١ـ أن فيه الجمع بين الآيات وإعمالها كلها.

---

(١) الفصل (١٧٩/٣).

(٢) متشابه القرآن (ص٦٢٩).

المبحث الثاني

آيات في الأمر الكوني والشرعي

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ۖ﴾[1]. **مع قوله تعالى:** ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تدل الآية الأولى على أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بالفحشاء، بينما يتوهم من ظاهر الآية الثانية أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أمر المترفين بالفسق في القرية والفسق من الفحشاء.

وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض. وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء عند تفسير هذه الآية مسلك الجمع بين الآيات وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي: أمرناهم بالطاعة ففسقوا فيها بمعصية الله ومخالفة أمره.

وهو قول مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وسعيد بن جبير واختيار جمع من المفسرين[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).

(٢) سورة الإسراء.

(٣) انظر: جامع البيان؛ لابن جرير الطبري (٥٤/١٥، ٥٥). ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٣١/٣، ٢٣٢). ومعاني القرآن، للنحاس (١٣٣/٤، ١٣٤). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٢٧/٣). ومعالم التنزيل، للبغوي (٦٧٣/٢). والمحرر الوجيز (٣٩/٩). وأحكام القرآن، لابن العربي (١١٩٦/٣). ومتشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (ص٤٦١). وتنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبد الجبار (ص٢٢٧). وزاد المسير، لابن الجوزي (١٤/٥، ١٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٧٥/٢٠). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٣٤/١٠). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير

قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ فيما ذكر ابن جرير : (أمرنا بالطاعة فعصوا)[1].

وقال ابن جرير الطبري: (فأولى التأويلات به تأويل من تأوله: أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، فحق عليهم القول؛ لأن الأغلب من معنى أمرنا: الأمر، الذي هو خلاف النهي دون غيره، وتوجيه معاني كلام الله جل ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره)[2].

ويقول القاضي عبد الجبار من المعتزلة: (فالمراد بالآية: أنه أمرهم بالطاعة ففسقوا بالخروج عن ذلك، فحق عليهم القول والوعيد؛ لأنه تعالى كان خبر عنهم أنهم سيهلكون بسوء اختيارهم)[3].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ موافقة هذا المعنى للقراءة المشهورة ﴿أمَرْنا﴾ بقصر الألف وتخفيف الميم وفتحها، وهي قراءة عامة قراء الحجاز والعراق[٤]. يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب، قراءة من قرأ ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ بقصر الألف، وتخفيف الميم منها؛ لإجماع الحجة من القراء على تصويبها دون غيرها)[٥].

٢ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن جريج قال: قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾[٦] قال: (بطاعة الله، فعصوا)[٧].

٣ ـ أن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقًا ينافي كونه مأمورًا به. قال الزجاج: (فأما من قرأ بالتخفيف، فهو من الأمر، المعنى: أمرناهم بالطاعة ففسقوا، فإن قال قائل: ألست تقول: أمرت زيدًا فضرب عمرًا، فالمعنى أنك أمرته أن يضرب عمرًا فضربه فهذا اللفظ لا يدل على غير الضرب، ومثل قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[٨] من الكلام: أمرتك فعصيتني، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر،

(٦١/٥). وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لزكريا الأنصاري (ص٣٢١).وتفسير أبي السعود (١٦٢/٦). وفتح القدير، للشوكاني (٢١٤/٣). ومحاسن التأويل، للقاسمي (٢١٤/١٠). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (١٣٣).

(١) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٥/١٥).
(٢) المرجع السابق.
(٣) متشابه القرآن، (ص٤٦١).
(٤) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٤/١٥).
(٥) جامع البيان (٥٧/١٥).
(٦) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٧) جامع البيان (٥٥/١٥).
(٨) سورة الإسراء، الآية: (١٦).

وكذلك الفسق مخالفة أمر الله جل ثناؤه)[١].

وقال الشوكاني: (وعلى هذا اختلفوا في المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة والخير، وقال في الكشاف: معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا، وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير، وما ذكره هو معارض بمثل قول القائل: أمرته فعصاني، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية؛ لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقًا ينافي كونه مأمورًا به ويناقضه)[٢].

٤ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخبر أنه لا يأمر بالفحشاء، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإحسان كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾[٣]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[٤]. والفسق من الفحشاء وليس من العدل والإحسان، فالله لا يأمر به، بل أمر بالخير والطاعة الذي هو من العدل والإحسان، وليس من الفحشاء.

قال محمد بن يزيد ـ فيما ذكر النحاس ـ : (قد علم أن الله عز وجل لا يأمر إلا بالعدل والإحسان، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[٥]. فقد علم أن المعنى: أمرنا مترفيها بالطاعة، فعصوا)[٦].

وبين أصحاب هذا القول أن حذف المأمور به من الآية يرجع إلى سببين:

أحدهما ـ لظهور أن المراد به الحق والخير والطاعة؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء.

والثاني ـ لأن المراد وجد منا الأمر، كما يقال: فلان يعطي ويمنع. وأما تخصيص الأمر بالمترفين؛ فلأن غيرهم تبع لهم[٧].

وقد ضعف الزمخشري هذا القول فقال: (فإن قلت: هلا زعمت أن معناه: أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه، وذلك أن المأمور به إنما حذف؛ لأن "فسقوا" يدل عليه، وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢٣١/٣، ٢٣٢).
(٢) فتح القدير (٢١٤/٣).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(٤) سورة النحل، الآية: (٩٠).
(٥) سورة النحل، الآية: (٩٠).
(٦) معاني القرآن، للنحاس (١٣٤/٤).
(٧) انظر: تفسير أبي السعود (١٦٢/٥ ـ ١٦٣).

ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم: أمرته فعصاني، أو فلم يمتثل أمري؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورًا به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا مَنْوِي؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورًا به، وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى غير قاصد إلى مفعول.

فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير دليلاً أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ قلت: لا يصح ذلك؛ لأن قوله: ﴿فَفَسَقُوا﴾ يدافعه، فكأنك أظهرت شيئًا وأنت تدعي إضمار خلافه...)[1].

وقد رد الرازي على قول الزمخشري هذا بقوله: (إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له فكذلكم أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق؛ لأن الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به، فكونه فسقًا ينافي كونه مأمورًا به، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأمورًا بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق، وهذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده، فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى: أمرناهم بالأعمال الصالحة، وهي الإيمان والطاعة، والقوم خالفوا ذلك الأمر عنادًا وأقدموا على الفسق)[2].

ورد عليه كذلك الشوكاني بالقول السابق الذي ذكرته آنفًا في الأدلة[3].

وممن ضعف هذا القول أيضًا ابن القيم رحمه الله، فقال: (وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[4]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه، وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها ـ أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني ـ أن ذلك يستلزم إضمارين: أحدهما: أمرناهم بطاعتنا. الثاني: فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث ـ أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه. كقولك: أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

---

(١) الكشاف (٢/٤٤٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٧٥ ـ ١٧٦).
(٣) انظر: (ص ٣٠١).
(٤) سورة الإسراء، الآية: (١٦).

الرابع ـ أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سببًا للهلاك، بل هو سبب النجاة والفوز، فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك. قيل: هذا يبطل بالوجه الخامس.

الوجه الخامس ـ وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين. يوضحه:-

الوجه السادس ـ أن الأمر لو كان بالطاعة، لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

السابع ـ أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم وإلا فقبل ذلك هو لا ير إهلاكهم؛ لأنهم معذورون بغفلتهم، وعدم بلوغ الرسالة إليهم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾(١٣١)[(١)] فإذا أرسل الرسل إليهم فكذبوهم أراد إهلاكها، فأمر رؤساءها ومترفيها أمرًا كونيًا قدريًا ـ لا شرعيًا دينيًا ـ بالفسق في القرية فاجتمع على أهلها تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله، وحق عليها قوله بالإهلاك)[(٢)].

القول الثاني ـ أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أكثرنا مترفيها.

وهو قول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والحسن وقتادة، واختاره بعض المفسرين[(٣)].

روى ابن جـرير الطبري بسنده عن الحسن في قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال: (أكثرناهم)[(٤)].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ موافقة هذا المعنى للقراءة الواردة بمد الهمزة ﴿آمرنا﴾ . قال ابن عطية: (وقرأ نافع، وابن كثير في بعض ما روي عنهما ﴿آمرنا﴾ بمد الهمزة، بمعنى: كثرنا، ورويت

---

(١) سورة الأنعام.
(٢) شفاء العليل (٧٦٩/٢ ـ ٧٧١).
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٥/١٥). ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٣٢/٣). ومعاني القرآن، للنحاس (١٣٥/٤). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٢٧/٣). ومعالم التنزيل، للبغوي (٦٧٧/٢). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٣٩/٩). وزاد المسير، لابن الجوزي (١٥/٥). وأحكام القرآن، لابن العربي (١١٩٦/٣). وباهر البرهان، للغزنوي (٨٢٥/٢). ومفاتيح الغيب (٢٠/ ١٧٧). والجامع لأحكام القرآن (٢٣٣/١٠). وتفسير القرآن العظيم (٦٢/٥). وتفسير أبي السعود (١٦٣/٥). وفتح القدير، للشوكاني (٢١٤/٣).
(٤) جامع البيان (٥٦/١٥).

عن الحسن، وهي قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس بخلاف عنه، وعن الأعرج وقرأ بها ابن أبي إسحاق)[1].

وقال القرطبي: (وقرأ الحسن أيضًا وقتادة وأبو حيوة الشامي[2] ويعقوب[3] وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعلي وابن عباس ـ باختلاف عنهما ـ: ﴿آمرنا﴾ بالمد والتخفيف، أي: أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائي)[4].

ويقول الزجاج: (ومن قرأ ﴿آمرنا﴾ فتأويله أكثرنا، والكثرة ههنا يصلح أن يكون شيئين:

أحدهما: أن يكثر عدد المترفين، والآخر: أن تكثر جدتهم ويسارهم)[5].

٢ ـ موافقة هذا المعنى للقراءة الواردة بالقصر وكسر الميم: ﴿أَمِرْنا﴾ . قال ابن الجوزي: (وقرأ أبو المتوكل[6]، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: ﴿أَمِرْنا﴾ بفتح الهمزة، مكسورة الميم مخففة)[7][8]. وقال القرطبي: (وعن الحسن أيضًا ويحيى بن يعمر﴿أَمِرْنا﴾ بالقصر وكسر الميم على فعلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا ﴿آمرْنا﴾ بالمد قال: وأصلها "أأمرنا" فخفف، حكاه المهدوي)[9].

وقال أبو المظفر السمعاني: (وأما ﴿أَمِرْنا﴾ ـ بكسر الميم ـ فقد ذكروا أنه ضعيف في اللغة)[10].

ويقول ابن عطية: (ولا تحقق وجهًا لهذه القراءة؛ إلا إن كان (أمر القوم يتعدى بلفظه، فإن العرب تقول: (أمر بنو فلان) إذا كثروا. ومنه: (لقد أمر أمر ابن أبي

---

(١) المحرر الوجيز (٣٩/٩). وهي قراءة يعقوب الحضرمي وإحدى القراءات العشر المتواترة .

(٢) شريح بن يزيد الحضرمي ، أبوحيوة الحمصي ، المؤذن ، ثقة ، مات سنة(٢٠٣هـ) . انظر التقريب (٢٦٦) .

(٣) يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي ، مولاهم ،أبو محمد المقرئ ، النحوي ، أحد القراء العشرة ، صدوق ، مات سنة (٢٠٥هـ) . انظر التقريب (٦٠٧) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٣/١٠).

(٥) معاني القرآن وإعرابه (٢٣٢/٣).

(٦) علي بن داود ، وقيل ابن دؤاد ، أبو المتوكل الناجي ، البصري ، ثقة ، مات سنة (١٠٨هـ) وقيل قبل قبل ذلك . انظر التقريب (٤٠١) .

(٧) زاد المسير (١٥/٥).

(٨) وهي قراءة شاذة، وليست من القراءات العشر المتواترة. انظر: القراءات العشر المتواترة في هامش هامش القرآن الكريم، للشيخ محمد كريم راجح، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ، دار المهاجر للنشر، المدينة النبوية (ص٢٨٣).

(٩) الجامع لأحكام القرآن، (٢٣٣/١٠).

(١٠) تفسير القرآن (٢٢٨/٣).

كبشة)[١]، ورد الفراء هذه القراءة، وقد حكى (أَمِرَ) متعديًا عن أبي زيد الأنصاري)[٢].
الأنصاري)[٢].

٣ ـ ما رواه الإمام أحمد بسنده عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: **((خير مال امرئ له مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة))**[٣].

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: (المأمورة: كثيرة النسل، والسكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: من التأبير)[٤].

وأنكر الكسائي أن يكون (أَمَرْنَا) بمعنى أكثرنا، وقال: هو (أَمِرْنا) بمعنى أكثرنا، وهذا هو اللغة الغالبة)[5]. ويقول ابن جرير الطبري: (وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين ينكر ذلك من قيله، ولا يجيز أمرنا، بمعنى أكثرنا إلا بمد الألف من أمرنا، ويقول في قوله: **((مهرة مأمورة))**: إنما قيل ذلك على الاتباع لمجيء مأبورة بعدها، كما قيل: (ارجعن مأزروات غير مأجورات) فهمز مأزورات لهمز مأجورات، وهي من وزرت اتباعًا لبعض الكلام بعضًا)[٦].

وقد رد أبو جعفر النحاس على الكسائي قوله فقال: (وهذا القول الثالث ـ أعني قول الكسائي ـ ينكره أهل اللغة.وقد حكى أبو زيد وأبو عبيدة أنه يقال: (أَمَرْنَا) بمعنى: أكثرنا)[٧].

٤ ـ ورود (أمر) في لغة العرب بمعنى: كثر.

قال ابن زيد ـ فيما ذكر ابن جرير ـ في قوله تعالى: وَإِذَآ﴿ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ ﴾فِيهَا[٨]. قال: ذكر بعض أهل العلم أن أمرنا: أكثرنا. قال: والعرب تقول للشيء الكثير "أَمِرَ" لكثرته. فأما إذا وصف القوم بأنهم كثروا، فإنه يقال: أمر بنو فلان، وأمر القوم يأمرون أمرًا. وذلك إذا كثروا وعظم أمرهم، كما قال لبيد:

إن يُغْبَطوا يهبطُوا وإن أَمِرُوا يومًا يصيروا للقل والنفد[٩].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ح/٧ (ص ٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما عنهما ـ.
(٢) المحرر الوجيز (٤٢/٩).
(٣) المسند، ح/١٥٨٨٣ (٤٦٨/٣)، وضعف إسناده الأرنؤوط. وكذلك الألباني في الجامع الصغير، ح/٦٦٧١ (٦٦٨/١).
(٤) غريب الحديث، لابن سلام (٢٢٧/٣).
(٥) تفسير القرآن، لأبي المظفر (٢٢٧/٣).
(٦) جامع البيان (٥٥/١٥).
(٧) معاني القرآن (١٣٥/٤).
(٨) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٩) ديوان لبيد بن أبي ربيعة العامري (ص٢٠). وعجز البيت: يومًا يصيروا للهلك والنكد

والأمر المصدر، والاسم الإمر، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾[1]. قال: عظيمًا وحكى في مثل شر إمر. أي: كثير)[2].

وقال القرطبي: (وفي الصحاح: وقال أبو الحسن (أمِر ماله) بالكسر أي: أكثره. وأمر القوم. أي: كثروا؛ قال الشاعر:

أمِرون لا يرثون سَهْم القُعْدَدِ[3]

وآمر الله ماله ـ بالمد ـ، وقال الثعلبي: ويقال للشيء الكثير: أَمِرٌ، والفعل منه: أمر القوم يأمرون أمرًا إذا كثروا. قال ابن مسعود ﷺ : (كنا نقول في الجاهلية للحي إذا كثروا: أمر أمر بني فلان)[4])[5].

القول الثالث. أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا﴾ أمَّرْنا. أي: جعلناهم أمراء ففسقوا فيها. وسلطنا شرارها ففسقوا فيها.

وهو قول مروي عن ابن عباس، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وأبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس وهو اختيار بعض المفسرين[6].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ موافقة هذا المعنى للقراءة الواردة بالتشديد ﴿أمَّرنا﴾ .

قال القرطبي: (قرأ أبو عثمان النهدي[7] ، وأبو رجاء[8]، وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن ﴿أمَّرنا﴾ بالتشديد، وهي قراءة علي ﷺ؛ أي: سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهدي ﴿أمَّرنا﴾ بتشديد الميم، جعلناهم

---

(١) سورة الكهف.

(٢) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٦/١٥).

(٣) ديوان الأعشى. (ص٦٨) .

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ (ح٤٧١١).

(ح٤٧١١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٣/١٠).

(٦) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٥/١٥). ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٣٢/٣). ومعاني القرآن، للنحاس (١٣٦/٤). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٢٨/٣). ومعالم التنزيل (٦٧٣/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (١٥/٥). وأحكام القرآن، لابن العربي (١١٩٦/٣). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٣٢/١٠). وتفسير أبي السعود (١٦٣/٥). وفتح القدير، للشوكاني (٢١٤/٣). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٣٩/٩). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٢/٥).

(٧) عبدالرحمن بن مُلّ ، أبو عثمان النهدي ، مشهور بكنيته ، ثقة ثبت عابد ، مات سنة (٩٥هـ) ، وقيل بعدها ، انظر التقريب (٣٥١) .

(٨) عمران بن تيم البصري ، أبو رجاء العطاردي ، أخذ القراءة عرضا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مات سنة (١٠٥هـ) انظر معرفة القراء (٥٨/١) .

أمراء مسلطين؛ وقال ابن عزيز: تأمر عليهم تسلط عليهم)[1].

وقال ابن عطية: (وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ ﴿أمَّرنا﴾ بتشديد الميم. وهي قراءة أبي عثمان النهدي وأبي العالية، وابن عباس رضي الله عنهم، ورويت عن علي بن أبي طالب ﷺ)[2].

وقال الزجاج: (ومن قرأ ﴿أمَّرنا﴾ بالتشديد فمعناه سلطنا مترفيها. أي: جعلنا لهم إمرة وسلطانًا)[3].

٢ ـ موافقة هذا المعنى لقوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ﴿ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا ﴾ۖ[4][5].

٣ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: أَمَرۡنَا﴿ ﴾مُتۡرَفِيهَا يقول:سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: وَكَذَٰلِكَ﴿ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا ﴾ۖ[6])[7].

وقد اعترض أبو جعفر النحاس على هذا المعنى فقال: (قال ـ جل وعزـ : فَفَسَقُواْ﴿ ﴾فِيهَا[8]. فوصف أنهم جماعة، والقرية الواحدة لا توصف إن فيها جماعة أمراء)[9].

وممن ضعف هذا القول أبو علي الفارسي ـ فيما ذكر ابن عطية ـ فقال: (ولا وجه لكون "أمَّرۡنَا" من الإمارة؛ لأن رياستهم لا تكون إلا واحدًا بعد واحد، والإهلاك إنما يكون في مدة واحد منهم)[10].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/١٠). وهذه القراءة شاذة ؛ ليست من القراءات العشر المتواترة . انظر البدور الزاهرة (٢٢٩) .
(٢) المحرر الوجيز (٣٩/٩).
(٣) معاني القرآن وإعرابه (٣٢/٣).
(٤) سورة الأنعام (١٢٣).
(٥) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٥/١٥). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٢/٥).
(٦) سورة الأنعام (١٢٣).
(٧) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٥٥/١٥).
(٨) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٩) معاني القرآن (١٣٦/٤).
(١٠) المحرر الوجيز، لابن عطية (٤٠/٩).

وقد رد ابن عطية على هذا الاعتراض فقال:(وأما "أمَّرْنَا" من الإمارة فمتوجه على وجهين:

أحدهما ـ ألا يريد إمارة الملك، بل كونهم يأمرون ويؤتمر لهم؛ فإن العرب تقول لمن يأمر الإنسان ـ وإن لم يكن ملكًا ـ هو أمير، ومنه قول الأعشى:

إذا كان هادي الفتى في البلا د صدر القناة أطاع الأميرا[1]

ومنه قول معاوية لعمر ـ رضي الله عنهم ـ حين أمره بالاستقادة من لطمة عمرو بن العاص رضي الله عنه: إن علي أميرًا لا أقطع أمرًا دونه أراد معاوية أباه، وأراد الأعشى أنه إذا شاخ الإنسان وعمي واهتدى بالعصى أطاع كل من يأمره.

ومنه قول الآخر:

والناس يلحون الأمير إذا هم خطئوا الصواب ولا يلام المرشد

وأيضًا فلو أراد إمارة الملك في الآية لحسن المعنى؛ لأن الأمة إذا ملك الله تعالى عليها مترفًا ففسق ثم ولى مثله بعده، ثم كذلك، عظم الفساد، وتوالى الكفر، واستحقوا العذاب فنزل بهم على رجل الأخير من ملوكهم)[2].

القول الرابع. أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: بعثنا.

وهذا القول مروي عن مجاهد[3]،وحكاه بعض المفسرين كالسمعاني والنحاس،والقرطبي وغيرهم[4].

قال أبو المظفر السمعاني: (وفي الآية قول وهو أن معنى قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: بعثنا وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا مترفيها﴾)[5].

القول الخامس. أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: الأمر الكوني القدري. بمعنى: قضينا ذلك وقدرناه.

وهذا القول يجمع الأقوال السابقة ما عدا الأول. وهو قول جمع من أهل العلم، كابن تيمية وابن القيم، وابن كثير، والسيوطي. وغيرهم[6].

---

(١) ديوان الأعشى (ص٩٦).

(٢) المحرر الوجيز (٩/٤٠ ـ ٤٢).

(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٥/٥٥).

(٤) انظر: معاني القرآن، للنحاس (٤/١٣٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣/٢٢٨). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٩/٣٩). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠/٢٣٤).

(٥) تفسير القرآن (٣/٢٢٨) بتصرف. وهذه القراءة شاذة ؛ ليست من القراءات العشر المتواترة . انظر البدور الزاهرة (٢٢٩) .

(٦) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢/٤١١). وشفاء العليل، لابن القيم (ص٧٦٩، ٧٧١). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/٦١). والإتقان، للسيوطي (٢/٧٨). والبرهان في علوم القرآن (٢/٥٩).

يقول ابن تيمية رحمه الله: (وقد فرق الله في كتابه بين القسمين: بين من قام بكلماته الكونية، وبين من اتبع كلماته الدينيات، وذلك في أمره وإرادته وقضائه، وحكمه وإذنه وبعثه وإرساله. فقال في الأمر الديني الشرعي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[1]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[2]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾[3].

وقال في الأمر الكوني القدري: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4]. ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾[5] وكذلك قوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾[6] على أحد الأقوال)[7].

وقال ابن القيم: (وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾[8]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه)[9].

ثم قال أيضًا: (فإذا أرسل الرسل إليهم فكذبوهم، أراد إهلاكها، فأمر رؤساءها ومترفيها أمرًا كونيًا قدريًا ـ لا شرعيًا دينيًا ـ بالفسق في القرية، فاجتمع على أهلها تكذيبهم وفسق رؤسائهم فحينئذ جاءها أمر الله، وحق عليها قوله بالإهلاك)[10].

وقال ابن كثير: (اختلف القراء في قراءة قوله: "أمرنا" فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها. فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرًا قدريًا،

ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٣٣). ومعارج القبول، للحكمي. وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (٦٥٧/٢).

(١) سورة النحل، الآية: (٩٠).
(٢) سورة النساء، الآية: (٥٨).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٦٧).
(٤) سورة يس.
(٥) سورة النحل، الآية: (١).
(٦) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٧) مجموع الفتاوى (٤١١/٢).
(٨) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٩) شفاء العليل (٧٦٩/٢).
(١٠) شفاء العليل (٧٧١/٢).

كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾[1].فإن الله لا يأمر بالفحشاء،قالوا:معناها:أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب)[2].

وقال السيوطي: (وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[3] مع قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[4]. فالأولى في الأمر الشرعي، والثانية: في الأمر الكوني بمعنى بمعنى القضاء والتقدير)[5].

وقال بدر الدين الزركشي: (وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[6]. مع مع قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[7]. والمعنى: أمرناهم وملكناهم وأردنا منهم الصلاح فأفسدوا. والمراد بالأمر في الأولى أنه لا يأمر به شرعًا ولكن قضاء، لاستحالة أن يجري في ملكه ما لا يريد، وفرق بين الأمر الكوني والديني)[8].

وقال الشنقيطي:(الثاني: أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾[9]. أمر كوني قدري، لا لا أمر شرعي. أي: قدرنا عليهم الفسق بمشيئتنا. والأمر الكوني القدري. كقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾[10]. ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[11].والأمر في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[12] أمر شرعي ديني. فظهر أن الأمر المنفي غير المثبت)[13].

وقال حافظ الحكمي: (إن الإرادة والقضاء والأمر كل منها ينقسم إلى كوني

(١) سورة يونس، الآية: (٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦١/٥).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(٤) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٥) الإتقان (٧٨/٢).
(٦) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(٧) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(٨) البرهان في علوم القرآن (٥٩/٢).
(٩) سورة الإسراء، الآية: (١٦).
(١٠) سورة الأعراف.
(١١) سورة يس. الآية: (٨٢).
(١٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(١٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص١٣٣).

وشرعي)[١].

ثم قال: (ومثال الأمر الكوني قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[٢]. فهذا القسم من الإرادة والقضاء والأمر هو مشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة، وليس لأحد الخروج منها، ولا محيد عنها. ولا ملازمة بينها وبين المحبة والرضا، بل يدخل فيها الكفر والإيمان والسيئات والطاعات، والمحبوب المرضي له، والمكروه المبغض، كل ذلك بمشيئته وقدره وتكوينه، ولا سبيل إلى مخالفتها، ولا يخرج عنها مثقال ذرة)[٣].

ثم قال: (ومثال الأمر الشرعي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾[٤]. وهذه الإرادة والقضاء والأمر الشرعي هو المستلزم لمحبة الله تعالى ورضاه، فلا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه، ولا ينهى إلا عما يكرهه ويأباه. ولا ملازمة بين هذا القسم وما قبله إلا في حق المؤمن المطيع، وأما الكافر فينفرد في حقه الإرادة والقضاء والأمر الكوني القدري)[5].

الترجيح:

ويظهر من خلال الأقوال السابقة، أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأخير، وأن المراد بالأمر في هذه الآية هو الأمر القدري، وليس الشرعي؛ وذلك لما يلي:

١٢- قوة أدلته وسلامتها من المعارض.
١٣- دلالة ظاهر الآية عليه.
١٤- جمعه الأقوال السابقة، ما عدا القول الأول.

* * *

---

(١) معارج القبول (١٥٦/١).
(٢) سورة الإسراء.
(٣) معارج القبول (١٥٦/١).
(٤) سورة النحل.
(٥) معارج القبول (١٥٧/١).

الفصل الثالث

آيات في أفعال العباد

ويحتوي على ستة مباحث:

المبحث الأول - آيات في القدر السابق مع إثبات المشيئة للعبد.

المبحث الثاني - آيات في التكليف بما لا يطاق.

المبحث الثالث - آيات في أفعال العباد.

المبحث الرابع - آيات في احتجاج المشركين بالقدر.

المبحث الخامس - آيات في قيام الحجة.

المبحث السادس - آيات في الدعاء بحصول الشيء مع عدم توفر أسباب حصوله.

المبحث الأول

آيات في القدر السابق مع إثبات المشيئة للعبد

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾(1) ونحوها من الآيات.

مع قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾(2). **وقوله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾(3). **وقوله تعالى:** ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾(4). ونحوها من الآيات الدالة على اختيار العبد ومشيئته.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

يشير ظاهر الآية الأولى ونحوها من الآيات إلى أن الكفار مجبورون؛ لأن من ختم على قلبه، وجعلت الغشاوة على بصره سلبت منه القدرة على الإيمان. بينما يشير ظاهر الآيات الأخر إلى أن كفرهم واقع بمشيئتهم وإرادتهم(5). وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقول العلماء ما يزيل هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ يقول الشيخ الشنقيطي: (إن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم كل ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر، وتكذيب

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة فصلت، الآية: (١٧).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٦).
(٤) سورة الكهف، الآية: (٢٩).
(٥) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص٩).

الرسل باختيارهم ومشيئتهم. فعاقبهم الله بعدم التوفيق جزاءً وفاقًا)[١].

وهو قول جمهور المفسرين والعلماء من أهل السنة والجماعة[٢].

أورد ابن جرير قول مجاهد: (نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم)[٣].

وقال النحاس: (أي: طبع الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وغطى عليها على جهة الجزاء بكفرهم وصدهم الناس عن دين الله)[٤].

ويقول ابن القيم: (والقرآن من أوله إلى آخره، إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان وبينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرر الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية، فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾[٥].

ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وأسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، فهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك)[٦].

وقال ـ أيضًا ـ: (ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن أيات الكتاب (ص ١٠).
(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١/١١٢، ١١٣). ومعاني القرآن، للنحاس (١/٨٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٤٦). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١/١٥٥). وباهر البرهان، للغزنوي (١/٢٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/١٧٦).
(٣) جامع البيان (١/١١٢). وانظر : تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/١٧٥).
(٤) معاني القرآن الكريم (١/٨٧).
(٥) سورة البقرة.
(٦) شفاء العليل (١/٢٩٠ ـ ٢٩١).

الإيمان، بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلالته، ويعمله بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر، لم يمتنع أن يمحوها، ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1]. وعنده شاب فقال: (اللهم عليها أقفالها، ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك) فعرفها له عمر وزادته عنده خيرًا.

وكان عمر رضي الله عنه يقول في دعائه: (اللهم إن كنت كتبتني شقيًا فامحني، واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت)[2]. فالرب تعالى فعال لما يريد، لا حجر عليه)[3].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[4].

يقول القرطبي: (ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم)[5]. واستدل بهذه الآية.

٢ ـ قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[6].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[7].

قال القرطبي: (فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم؛ وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به)[8].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[9].

---

(١) سورة محمد.
(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ح/١٢٠٦، ١٢٠٧ (٦٦٤/٤).
(٣) شفاء العليل (٢٨٨/١، ٢٨٩).
(٤) سورة النساء، الآية: (١٥٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٨٧/١).
(٦) سورة الحجر، الآيتان: (١٢، ١٣).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (٢٥).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٨٧/١).
(٩) سورة الصف، الآية: (٥).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[1].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[2].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[3]. ونحو ذلك من الآيات.

٨ ـ ما روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا))**[4].

٩ ـ ما روى ابن ماجة في سننه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **((إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[5]))[6].

يقول ابن جرير الطبري: (والحق في ذلك عندي ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ ثم ذكر هذا الحديث بإسناده، وقال: فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغفلتها، وإذا أغفلتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾[7]. نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية الظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها

---

(١) سورة الأنعام.
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٠).
(٣) سورة المطففين، الآية: (١٤).
(٤) كتاب الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، ح/١٤٤ (ص٧٤).
(٥) سورة المطففين، الآية: (١٤).
(٦) رواه ابن ماجة في سننه، ح/٤٢٤٤ (١٤١٨/٢). والحاكم في المستدرك، ح/٣٩٠٨ (٥٦٢/٢). وقال: وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، ح/٣٤٢٢ (٤١٧/٢).
(٧) سورة البقرة، الآية: (٧).

ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضه خاتمه، وحله رباطه عنها)[١].

القول الثاني. أن الله ختم على قلوبهم بالكفر لما سبق من علمه الأزلي فيهم.

وهو اختيار بعض المفسرين كأبي المظفر السمعاني، والبغوي وغيرهم[٢].

قال النحاس: (وهؤلاء الكفار هم الذي سبق في علمه من أنهم لا يؤمنون، ويكون مثل قولهم: أهلكه المال، وذهب المال بعقله أي هلك فيه، وبسببه، فهو كقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾[٣]. فإن ذلك من الله عن فعلهم في أمره)[٤].

ويقول أبو المظفر السمعاني: (والثاني وهو قول أهل السنة أي: ختم على قلوبهم بالكفر؛ لما سبق من علمه الأزلي فيهم)[٥].

وقال البغوي: (قال أهل السنة: أي حكم على قلوبهم بالكفر؛ لما سبق من علمه الأزلي فيهم)[٦].

وقد استدل الجبرية على مذهبهم بهذه الآية.

يقول ابن القيم: (وقد ضل بهذه الآيات ونحوها طائفتا القدرية والجبرية، فحرفها القدرية بأنواع من التحريف المبطل لمعانيها، وما أريد منها. وزعمت الجبرية أن الله أكرهها على ذلك، وقهرها عليه، وأجبرها من غير فعل منها، ولا إرادة ولا اختيار ولا كسب البتة، بل حال بينها وبين الهدى ابتداء، من غير ذنب ولا سبب من العبد يقتضي ذلك بل أمره وحال ـ مع أمره ـ بينه وبين الهدى، فلم ييسر له إليه سبيلاً، ولا أعطاه عليه قدرة ولا مكنه منه بوجه.

وزاد بعضهم: بل أحب له الضلال، والكفر والمعاصي ورضيه منه، وهدى الله أهل السنة والحديث، وأتباع الرسول لما اختلف فيه هاتان الطائفتان من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[٧].

والصواب ـ كما يقول المحمود ـ : (أنه لا دليل للجبرية فيها؛ لأنه لا يمكن حمل معناها على أن الله منعهم من الإيمان وحال بينهم وبينه، ثم يأمرهم به، وإنما معناها: أن

---

(١) جامع البيان (١/١١٣).
(٢) انظر: معاني القرآن، للنحاس (١/٨٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٤٧). ومعالم التنزيل، للبغوي (١/١٨).
(٣) سورة الليل.
(٤) معاني القرآن (١/٨٧).
(٥) تفسير القرآن (١/٤٧).
(٦) معالم التنزيل (١/ ١٨).
(٧) شفاء العليل (١/٢٧٧).

الله جعل ذلك عقوبة لهم، وجزاء على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه، ولهذا قال تعالى في الآية الأولى: إِنَّ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾۝٧[١].

فالله تعالى يفعل الختم والطبع بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم)[٢].

القول الثالث. أن الختم في هذه الآية من باب المجاز وليس على الحقيقة.

وهو قول المعتزلة[٣] ومن وافقهم. ولهم في تأويلها وجوهٌ كثيرة منها:

الوجه الأول ـ أن المراد بالختم في هذه الآية هو العلامة والحكم والسمة.

وهو قول القاضي عبد الجبار، واختيار الغزنوي[٤].

يقول القاضي عبد الجبار: (والجواب في ذلك أن الختم في اللغة لا يعقل منه القدرة على الكفر، ولا الكفر وإنما يستعمل في العلامة الحاصلة بنقش الخاتم وما شاكلها، وإن كان يراد به انتهاء الشيء وقد يراد به الحكم عليه بأنه لا ينتفع بما سمعه، كما يقال فيمن نوظر كثيرًا وبين له طويلاً ختمت عليك أنك لا تفهم.. إلى ما يشاكله، وحقيقته ما ذكرناه أولاً، فإذا صح ذلك لم يكن لهم فيما أوردوه ظاهر يصح التعلق به.

ويجب أن يحمل على أن المراد به أنه علم على قلوبهم بعلامة تعرف بها الملائكة أنهم من أهل الذم، كما كتب في قلوب المؤمنين الإيمان؛ لكي تعلم الملائكة أنهم من أهل المدح، وعرفنا أن ذلك لطف؛ لأن أحدنا إذا علم مع عظم حال الملائكة عنده، أنه إن أقدم على المعاصي ذموه فيما بينهم، وفضحوه بكثرة اللوم، كان إلى أن ينصرف عن المعصية أقرب)[٥].

---

(١) سورة البقرة.

(٢) القضاء والقدر، للمحمود (ص٣٤٩).

(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١١٢/١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٧/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (١٨/١). والانتصار، للعمراني (٣٦١/٢). ومتشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (٥١/٢، ٥٢). وتنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبد الجبار (ص١٤). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٥/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١/ ١٧٨). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٧٥/١، ١٧٦). والكشاف للزمخشري (١٥٥/١). وشفاء العليل، لابن القيم (٢٧٨/١). وتفسير أبي السعود (٣٧/١).

(٤) انظر: متشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (٥١/٢، ٥٢). وتنزيه القرآن عن المطاعن له أيضًا (ص١٤). وباهر البرهان، للغزنوي (٢٤/١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٧/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (١٨/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٤/١، ٥٥).

(٥) متشابه القرآن (٥١/١، ٥٢).

وقال في موطن آخر: (والجواب الثاني: أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلبهم لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون، فتجتمع على ذمهم، ويكون ذلك لطفًا لهم، ولطفًا لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر) [1].

وقال الغزنوي: (﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[2] وسمهم بسمة تعرفها الملائكة.

وفائدتها: الوضع منهم والتبكيت، كما أنه لما كتب الإيمان في قلوب المؤمنين كان تحلية لهم بما يرفعهم . آية على التشبيه لحالهم بحال المطبوع على قلبه، المضروب على سمعه وبصره كما قال:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي[3])[4]

وقد أبطل القرطبي هذا القول بقوله: (في هذه الآية أول دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان، فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛ وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون؟ أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٣٣﴾[5].وكان فعل الله ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله، وخذله، إذا لم يمنعه حقًا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم.

فإن قالوا: إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون الفعل. قلنا: هذا فاسد؛ لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعًا مختومًا؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيل: فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعًا ومختومًا، لا التسمية والحكم، هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة؛ ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[6]. وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن (ص١٤).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٧).
(٣) هذا البيت لبشار بن برد ، انظر ديوانه ، (ص٦٩٢).
(٤) باهر البرهان، للغزنوي (٢٤/١).
(٥) سورة غافر.
(٦) سورة النساء، الآية: (١٥٥).

والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء، والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك. فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم، وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾[(١)]. وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾[(٢)]. أي: لئلا يفقهوه، وما كان مثله)[(٣)].

وكذلك بين ابن القيم ـ رحمه الله ـ بطلان هذا القول فيما نقلته عنه في الفصل السابق[(٤)] مما يغني عن إعادته هنا.

وقد أبطل العمراني هذا القول بقوله: (والجواب: أن حمل الطبع والختم على القلوب على العلامة عليها من التأويل الذي قال الله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾[(٥)]. ومن الجدل في الدين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ لأنه لا دليل على ذلك في لغة العرب ولا في الشرع، ولا يقبل ذلك إلا من أعدمه الله العقل، وأغفله عن ذكره. والدليل على بطلانه أن العلامة في اللغة تسمى السيما، ولهذا قال الله في علامة المؤمنين: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٦)]. وقال سبحانه في علامة الكفار يوم القيامة: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾[(٧)].

وسيماهم اسوداد في وجوههم، وزرق في أعينهم، وقال في علامة الفقير: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافًا﴾[(٨)].

يعني بعلامة الفقر، فإذا صح في السيما وهي العلامة أن تسمى بهذه المعاني مع اختلافها فيجوز على مقتضى هذا أن يسمى أثر السجود في وجوه المؤمنين طبعًا

---

(١) سورة الحجر.
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٢٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨٧/١).
(٤) انظر: (ص٢٥٠).
(٥) سورة آل عمران، الآية: (٧).
(٦) سورة الفتح، الآية: (٢٩).
(٧) سورة الرحمن.
(٨) سورة البقرة، الآية: (٢٧٣).

وختمًا؛ لأن حقيقة الاسم لا يتغير ولا يختلف لاختلاف المحل المسمى به، وهذا لا يقوله أحد.

ويقال لهم: إذا صح في اللغة والشرع أن يحمل الختم والطبع على قلوب الكافرين على علامة على قلوبهم يعرفهم بذلك الملائكة ليستعملوا فيهم ما هم له أهل من اللعن والذم وينزلونهم بمنزلتهم التي يستحقونها فما المانع أن تسمى الهداية والتنوير في قلوب المؤمنين طبعًا وختمًا، ويحمل ذلك على أن الله جعل ذلك علامة على قلوبهم ليعرفهم بها الملائكة ليستعملوا بهم ما ندبوا إليه من الصلاة عليهم، والدعاء لهم، ويستوي المسلم والكافر في هذه التسمية كما استويا في اسم السيما وهي العلامة على ما مضى، وهذا لا يقبله عاقل.

وأما استدلال المخالف على تأويله هذا بقوله: طبع الدينار والدرهم إذا جعل عليه علامة فلا يسلم له، بل يقال: طبع الدينار والدرهم إذا ختم عليه بالطابع المنقوش عليه، ويسمى الطابع والخاتم والطبع والختم معنى واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه يسمى ختام الكتاب: خاتمة لتغطيته ما في باطنه وصيانته عن نظر الناظرين إلى باطنه.

والدليل على أن الطبع يستعمل في معنى الختم أن النبي ﷺ قال: **((من توضأ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رق ثم طبع عليه بطابع فلا يكسر إلى يوم القيامة))**[(١)].

ومعناه ختم على الكتاب بخاتم.

والطبع في اللغة: الوسخ والدنس يغشيان السيف ثم يستعمل فيما يشبه الوسخ من الآثام والأوزار، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: **((استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع))**[(٢)] أي: إلى دنس.

وفي الحديث عن ﷺ: **((كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب))**[(٣)]. أي: يخلق عليها، ويدل على أن الختم هو التغطية والسد على الشيء قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾[(٤)]. أي تغطي أفواههم ويسد

(١) رواه النسائي في سننه الكبرى ح/٩٩٠٩ (٢٥/٦). والطبراني في المعجم الأوسط، ح/١٤٥٥ (١٢٣/٢) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح/١١١٥، والسلسلة الصحيحة ح/٢٦٥١، وأصله في مسلم كتاب الطهارة، باب: الذكر المستحب عقب الوضوء ح/٢٣٤ (ص ١١٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، ح/١٩٥٦ (٧١٦/١) وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد ولم يخرجاه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ح/٨١٥.

(٣) رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية ح/١١٧٥، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ح/٤٢٢٦، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ح/٨٩٠٩ (١٨٤/٩) موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه، وكذلك الهيثمي في مجمع الزوائد ح/٣٣١ (٢٧٤/١). وقال: رجاله ثقات.

(٤) سورة يس، الآية: (٦٥).

عليها، ولو كان الختم في اللغة هو العلامة لكانت العلامة على أفواههم ههنا لا تمنعهم عن الكلام ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[1]. أفترى يحسن استعمال العلامة على الختم على قلوبهم ههنا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2] أي: يربط على قلبك فلا تدخله المشقة لأنه شق على النبي ﷺ تكذيب قومه وهو قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[3] حين زعم أن القرآن من عند الله، فهل يحسن استعمال العلامة في شيء من هذا أو يقبله عقل؟

ويدل على أن المراد بالطبع على قلوبهم هو سدها وتغطيتها عن الهداية والإسلام قوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾[4]. فأخبر أن الطبع أورثهم عدم الفهم، وهذا المعنى لا يوجد في العلامة على القلوب.

ويدل على صحة قولنا: ما روى أن قومًا من المنافقين حضروا خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة فلما خرجوا من المسجد قالوا للذين أتوا العلم: ماذا قال آنفًا؟ يعنون الساعة، وقد سمعوا قول النبي ﷺ ولم يفقهوه فأخبر الله عن أن المعنى الذي أورثهم عدم تفقههم قول النبي ﷺ فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦﴾[5]. أي: في الكفر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[6].

فنسب إغفال قلوبهم إليه، كما نسب الطبع على قلوبهم إليه، واتبعوا لذلك أهواءهم ونسب اتباعهم أهواءهم إليهم لأنه كسبهم، ولأنهم محل لخلق الله ذلك فيهم.

ويدل على صحة قولنا قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[7]. وقد قرأ بعض القراء: "غشاوة" بالنصب فيكون تأويل الآية

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٤٦).
(٢) سورة الشورى، الآية: (٢٤).
(٣) سورة الشورى، الآية: (٢٤).
(٤) سورة المنافقون.
(٥) سورة محمد.
(٦) سورة الكهف، الآية: (٢٨).
(٧) سورة البقرة، الآية: (٧).

غطاءً على قلوبهم فلا تفقه، وعلى أسماعهم فلا تسمع، وعلى أبصارهم غشاوة فلا تبصر، ولو كان المراد بالختم ههنا: العلامة لكانت العلامة على آذانهم، وعلى أعينهم مشاهدة يدركها كل أحد كما يدرك العلامة على وجوههم وعلى أبصارهم يوم القيامة، ويشاهدها كل أحد. فبطل أن يكون الختم والطبع هو العلامة.

واستدل المخالف على تأويله بقوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1].فأخبر أن الإيمان بعد الطبع يحصل من قليل منهم.

والجواب: أن هذه الآية حجة عليه، وأن الطبع: هو السد والتغطية؛ لأن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾[2]. يعنون قلوبنا في أكنة: أي عليها الغطاء فلا نفقه ولا نفهم ما يقول محمد ﷺ فقال الله:﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا﴾[3].أي ختم عليها بكفرهم:أي جعل ذلك مجازاة لهم على كفرهم، وقيل: لما سبق في علمه بكفرهم، وأما قوله ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[4]. يقول: ما أقل ما يؤمنون فإنهم لا يؤمنون البتة، ويجوز أن يكون المراد: فلا يؤمنون إلا قليلاً ممن أراد الله منه الإيمان، فأزال الطبع عن قلبه لأنه قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾[5])[6].

الوجه الثاني - أن لفظ الختم استعير من ضرب الخاتم، لإحداث هيئة في القلب والسمع تمنع من وصول الحق إليهما، بسبب استكبارهم وإعراضهم، فتكون استعارة محسوس لمعقول بجامع عقلي. وهو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله[7].

وهذا اختيار الزمخشري؛ إذ يقول: (فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع، وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل، أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرهم من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم؛ لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة،

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة النساء، الآية: (١٥٥).
(٣) سورة النساء، الآية: (١٥٥).
(٤) سورة النساء.
(٥) سورة التوبة، الآية: (١٥).
(٦) الانتصار، للعمراني (١/٣٦٢ - ٣٦٨).
(٧) انظر:جامع البيان،لابن جرير الطبري (١/١١٣).والكشاف، للزمخشري(١/١٥٥).ومفاتيح الغيب، للرازي (٢/٥٥ - ٥٦). وتفسير أبي السعود (١/٣٧).

ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها، وحجبت وحيل بينها وبين الإدارك)[1].

الوجه الثالث. أن الختم على القلوب والأسماع عبارة عن تمثيل وتشبيه لحال الكفار بحال الممنوع المطبوع والمختوم على قلبه، والمضروب على سمعه وبصره.

وهذا الوجه أحد اختيارات القاضي عبد الجبار والزمخشري[2].

يقول القاضي عبد الجبار: (وجوابنا أن للعلماء في ذلك جوابين: أحدهما: أنه تعالى شبه حالهم بحال الممنوع الذي على بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم، فلم يقبلوا كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه، فإذا لم يقبل صح أن تقول: إنه حمار قد طبع الله على قلبه.

وربما تقول: إنه ميت، وقد قال تعالى للرسول: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[3].وكانوا أحياء فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى. كقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ولكن لا حيــاة لمن تنادي[4]

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتًا لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين)[5].

مكلفين)[5].

ويقول الزمخشري: (وأما التمثيل فإن تمثل؛ حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها، وخلقوا من أجلها، بأشياء ضرب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية. وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختمًا عليه فقال:

ختم الإله على لسان عذافر ختمًا فليس على الكلام بقادر

وإذا أراد النطق خلت لسانه لحمًا يحــــركه لصقـــر نافر

فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح، والله يتعالى عن القبيح علوًا كبيرًا، لعلمه بقبحه، وعلمه بغناه عنه، وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾[6].

---

(١) الكشاف (١/١٥٥ ، ١٥٦).
(٢) انظر: تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبد الجبار (ص١٤). والكشاف، للزمخشري (١/١٥٦). وباهر البرهان، للغزنوي (١/٢٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢/٥٥). وتفسير أبي السعود (١/٣٧).
(٣) سورة النمل، الآية: (٨٠).
(٤) هذا البيت لبشار بن برد ، انظر ديوانه ، (ص٦٩٢).
(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن (ص١٤).
(٦) سورة ق.

وَمَا﴿ ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]. إِنَّ﴿ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾[2]. ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل.

قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا، ومفطور عليه. يريدون أنه بليغ في الثبات عليه وكيف تتخيل ما خيل إليك، وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم)[3].

وقد أبطل ابن جرير الطبري هذا الوجه، والوجه الذي قبله بقوله: (ويقال لقائلي القول الثاني الزاعمين أن معنى قوله جل ثناؤه: خَتَمَ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ ﴾[4].هو وصفهم بالاستكبار والإعراض عن الذي دعوا إليه من الإقرار بالحق تكبرًا،

أخبرونا عن استكبار الذين وصفهم الله ـ جل ثناؤه ـ بهذه الصفة، وإعراضهم عن الإقرار بما دعوا إليه من الإيمان وسائر المعاني اللواحق به. أفعل منهم، أم فعل من الله ـ تعالى ذكره ـ بهم؟

فإن زعموا أن ذلك فعل منهم ـ وذلك قولهم ـ قيل لهم: فإن الله تبارك وتعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وسمعهم، وكيف يجوز أن يكون إعراض الكافر عن الإيمان، وتكبره عن الإقرار به، وهو فعله عندكم ختمًا من الله على قلبه وسمعه، وختمه على قلبه وسمعه، فعل الله عز وجل دون فعل الكافر، فإن زعموا أن ذلك جائز أن يكون كذلك؛ لأن تكبره وإعراضه كان عن ختم الله على قلبه وسمعه، فلما كان الختم سببًا لذلك جاز أن يسمى مسببه به تركوا قولهم وأوجبوا أن الختم من الله على قلوب الكفار وأسماعهم معنى غير كفر الكافر، وغير تكبره وإعراضه عن قبول الإيمان والإقرار به، وذلك دخول فيما أنكروه)[5].

وقد رد كذلك ابن القيم على هذين الوجهين بعد إيرادهما فقال: (ولعمر الله، إن الذي قاله هؤلاء حقه أكثر من باطله، وصحيحه أكثر من سقيمه، ولكن لم يوفوه حقه، وعظموه من جهة، وأخلوا بتعظيمه من جهة، فعظموه بتنزيهه عن الظلم، وخلاف الحكمة، وأخلوا بتعظيمه من جهة التوحيد، وكمال القدرة، ونفوذ المشيئة.

---

(١) سورة الزخرف.
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(٣) الكشاف (١٥٦/١ ـ ١٥٩).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٧).
(٥) جامع البيان (١١٣/١).

والقرآن يدل على صحة ما قالوه في الران، والطبع والختم من وجه، وعلى بطلانه من وجه.

فأما صحته: فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبة لهم، وجزاء على كفرهم، وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه، كما قال تعالى: فَلَمَّا﴿ زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾(٥)[1]. وقال: كَلَّاۖ﴿ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾(١٤)[2].وقال:وَنُقَلِّبُ﴿ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾(١١٠)[3]. وقال: ثُمَّ﴿ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ ﴾قُلُوبَهُم[4].

وقد اعترف بعض القدرية بأن ذلك خلق الله تعالى ولكنه عقوبة على كفرهم وإعراضهم السابق فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقدور بإضلال بعده، ويثيب عن الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها، ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها، قال تعالى: وَٱلَّذِينَ﴿ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾(١٧)[5]. وقال: يَٰٓأَيُّهَا﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا (٧٠) يُصۡلِحۡ لَكُمۡ ﴾أَعۡمَٰلَكُمۡ[6]. وقال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ ﴾فُرۡقَانٗا[7]. ومن الفرقان الهدى الذي يفرق بين الحق والباطل، وقال في ضد ذلك: ۞﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ ﴾[8]. وقال: فِي﴿ قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ ﴾[9]. وقال: ثُمَّ﴿ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ ﴾قُلُوبَهُم[10].

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء حق، والقرآن دل عليه، وهو موجب العدل، والله سبحانه ماض في العبد حكمه، عدل في عبده قضاؤه، فإنه إذا دعا عبده إلى معرفته ومحبته

---

(١) سورة الصف.
(٢) سورة المطففين.
(٣) سورة الأنعام.
(٤) سورة التوبة، الآية: (١٢٧).
(٥) سورة محمد.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: (٧٠، ٧١).
(٧) سورة الأنفال، الآية: (٢٩).
(٨) سورة النساء، الآية: (٨٨).
(٩) سورة البقرة، الآية: (١٠).
(١٠) سورة التوبة، الآية: (١٢٧).

وذكره وشكره فأبى العبد إلا إعراضًا وكفرًا، قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره، وصده عن الإيمان به وحال بين قلبه وبين قبول الهدى، وذلك عدل منه فيه، وتكون عقوبته بالختم والطبع والصد عن الإيمان، كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾[1]. فحجابهم عنه إضلال لهم،

وصد عن رؤيته وكمال معرفته، كما عاقب قلوبهم في هذه الدار بصدها عن الإيمان، وكذلك عقوبته لهم بصدهم عن السجود له يوم القيامة مع الساجدين هو جزاء امتناعهم من السجود له في الدنيا وكذلك عماهم عن الهدى في الآخرة، عقوبة لهم على عماهم في الدنيا عنه.

ولكن إن أسباب هذه الجرائم في الدنيا كانت مقدورة لهم واقعة باختيارهم وإرادتهم وفعلهم، فإذا وقعت عقوبات لم تكن مقدورة، بل قضاء جار عليهم ماض عدل فيهم، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾[2].

ومن ههنا ينفتح للعبد باب واسع، عظيم النفع جدًا في إمضاء الله المعصية والكفر والفسوق على العبد وأن ذلك محض عدله فيه.

وليس المراد بالعدل ما يقوله الجبرية أنه الممكن، وكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل والظلم هو الممتنع لذاته، فهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الكلام في الأسباب والحكم.

ولا المراد به ما تقوله القدرية النفاة أنه إنكار عموم قدرة الله ومشيئته على أفعال عباده وهدايتهم وإضلالهم، وعموم مشيئته لذلك، وأن الأمر إليهم لا إليه، فتأمل قول النبي ﷺ: **((ماض في حكمك، عدل في قضاؤك))**[3]. كيف ذكر العدل في القضاء مع الحكم النافذ، النافذ، وفي ذلك رد لقول الطائفتين الجبرية والقدرية، فإن العدل الذي أثبتته القدرية مناف للتوحيد معطل لكمال قدرة الرب، وعموم مشيئته.

والعدل الذي أثبتته الجبرية مناف للحكمة والرحمة، ولحقيقة العدل، والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم تعرفنا إلا الرسل وأتباعهم؛ ولهذا قال هو ﷺ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ

---

(١) سورة المطففين.
(٢) سورة الإسراء.
(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ح/٣٧١٢ (٣٩١/١)، وضعف إسناده الأرنؤوط، ورواه ابن حبان في صحيحه ح/٩٧٢ (٢٥٣/٣). وصحح إسناده الأرنؤوط، ورواه الحاكم في المستدرك ح/١٨٧٧ (٦٩٠/١). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح/١٩٩ (٣٨٣/١).

بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾[١]. فأخبر عن عموم قدرته، ونفوذ مشيئته، وتصرفه في خلقه كيف شاء ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم، قال أبو إسحاق: أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء، فهو لا يشاء إلا العدل)[٢].

ويقول ابن القيم أيضًا: (ولا تصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات واستعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله، وكأن هذا القائل حقيقة القفل عنده أن يكون من حديد، والختم أن يكون بشمع وطين، والمرض أن يكون حمى بنافض أو قولنج[٣] أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به.

وهذه الفرقة من أغلظ الناس حجابًا، فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي عليه هو بالنسبة إليه، كالختم والطابع الذي على الباب والصندوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى إليه كنسبة الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه أمور ألزم للقلب منها للبدن، فلو قيل: إنها حقيقة في ذلك، مجاز في الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء وأقوى منه، وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب)[٤].

ثم قال: (ولما كان القلب ملك الأعضاء، وهي جنوده، وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوى والحركة الاختيارية منه تنبعث، كانت هذه الأشياء له أصلاً، وللأعضاء تبعًا)[٥].

الوجه الرابع ـ أن الختم أسند إلى الله مجازًا وهو لغيره في الحقيقة، وهو الشيطان أو الكافر نفسه، ونسب إلى الله مجازًا؛ لأنه الذي أقدره ومكنه منه[٦].

وقد حكى الزمخشري هذا القول بقوله: (ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله فيكون الختم مسندًا إلى اسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به، والمصدر والزمان، والمكان والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة، وذلك لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل كما يضاهي الرجل الأسد

---

(١) سورة هود.
(٢) شفاء العليل (٢٧٨/١ ـ ٢٨١).
(٣) مرض مشهور معوي. انظر: تاج العروس (١٤٨٧/١).
(٤) شفاء العليل (٢٩٢/١).
(٥) المرجع السابق (٢٩٣/١).
(٦) انظر: الكشاف، للزمخشري (١٦٢/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٦/٢). وتفسير أبي السعود (٣٨/١).

في جراءته، فيستعار له اسمه فيقال في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وفي عكسه: سيل مفعم، وفي المصدر شعر شاعر، وذيل ذائل، وفي الزمان نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر، ونهر جار، وأهل مكة يقولون صلى المقام، وفي المسبب: بنى الأمير المدينة، وناقة ضبوث وحلوب. وقال:

إذا رد عافى القدر من يستعيرها[١]

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة، أو الكافر، إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه أسند إليه الختم، كما يسند الفعل إلى المسبب)[٢].

وقد رد ابن القيم على هذا القول بقوله: (قال أهل السنة والعدل: هذا الكلام فيه حق وباطل فلا يقبل مطلقًا، ولا يرد مطلقًا، فقولكم: إن الله سبحانه أقدر الكافر والشيطان على الطبع والختم، كلام باطل؛ فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر، ولم يقدره على خلق ذلك في قلب العبد البتة، وهو أقل من ذلك وأعجز، وقد قال ﷺ: **((بعثت داعيًا ومبلغًا، وليس إلى من الهداية شيء، وخلق إبليس مزينًا، وليس إليه من الضلالة شيء))**[٣].

فمقدور الشيطان أن يدعوا العبد إلى فعل الأسباب التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وسمعه وطبع عليه، كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه الله بالنار، فعقابه بالنار كعقابه بالختم والطبع، وأسباب العقاب فعله، وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان، والجميع مخلوق لله.

وأما ما في هذا الكلام من الحق فهو أن الله سبحانه أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه، فلولا إقدار الله له على ذلك لم يفعله، وهذا حق، لكن القدرية لم توف هذا الموضع حقه، وقالت: أقدره قدرة تصلح للضدين فكان فعل أحدهما باختياره ومشيئته التي لا تدخل تحت مقدور الرب، وإن دخلت قدرته الصالحة لهما تحت مقدوره سبحانه، فمشيئته واختياره وفعله غير واقع تحت مقدور الرب، وهذا من أبطل الباطل؛ فإن كل ما سواه تعالى مخلوق له، داخل تحت قدرته، واقع بمشيئته، فلو لم يشأ لم يكن)[٤].

الوجه الخامس - أن الكفار لما بلغوا في الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى تحصيل الإيمان لهم إلا بالقسر والإلجاء، ولم تقتض حكمته تعالى أن يقسرهم على الإيمان، لئلا تزول حكمة التكليف عبر عن ترك الإلجاء والقسر بالختم والطبع إعلامًا بأنهم انتهوا في الكفر والإعراض إلى حيث لا ينتهون عنه إلا بالقسر، وتلك الغاية في

---

(١) الحماسة البصرية، لصدر الدين علي البصري (٢٤٣/٢).
(٢) الكشاف (١٦٢/١).
(٣) رواه ابن بطة في الإبانة، ح/١٢٨٣ (٢٧١/١)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة ح/٢٢٤٩ (٢٧٥/٥): موضوع.
(٤) شفاء العليل (٢٨٣/١ ، ٢٨٤).

وصف لجاجهم وتماديهم في الكفر[1].

وقد حكى الزمخشري هذا القول بقوله: (ووجه رابع: وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن، ولا تغني عنهم الآيات والنذر، ولا تجدي عليهم الألطاف المحصلة، ولا المقربة إن أعطوها لم يبق بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعًا واختيارًا، طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجئهم، ثم لم يقسرهم ولم يلجئهم لئلا ينتقض الغرض في التكليف عبر عن ترك القسر والإلجاء بالختم إشعارًا بأنهم الذين ترامى أمرهم في التصميم على الكفر، والإصرار عليه إلى حد لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإلجاء وهي الغاية القصوى في وصف لجاجهم في الغي، واستشرائهم في الضلال والبغي)[2].

وقد رد ابن القيم على هذا القول بقوله: (قال أهل السنة: هذا كلام باطل، فإنه سبحانه قادر على أن يخلق فيهم مشيئة الإيمان وإرادته ومحبته، فيؤمنون بغير قسر ولا إلجاء، بل إيمان اختيار وطاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾[3]. وإيمان القسر والإلجاء لا يسمى إيمانًا، ولهذا يؤمن الناس كلهم يوم القيامة، ولا يسمى ذلك إيمانًا لأنه عن إلجاء واضطرار، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[4]. وما يحصل للنفوس من المعرفة والتصديق بطريق الإلجاء والاضطرار والقسر لا يسمى هدى، وكذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾[5]. فقولكم: لم يبق طريق إلى إيمانهم إلا بالقسر باطل، فإنه بقي إلى إيمانهم طريق لم يرهم الله إياه، وهو مشيئته وتوفيقه وإلهامه، وإمالة قلوبهم إلى الهدى، وإقامتها على الصراط المستقيم، وذلك أمر لا يعجز عنه رب كل شيء ومليكه، بل هو القادر عليه كقدرته على خلق ذواتهم وصفاتهم وذراتهم، ولكن منعهم ذلك لحكمته وعدله فيهم، وعدم استحقاقهم وأهليتهم لبذل ذلك لهم، كما منع السفل خصائص العلو، ومنع الحار خصائص البارد، ومنع الخبيث خصائص الطيب، ولا يقال: فلم فعل هذا؟ فإن ذلك من لوازم ملكه وربوبيته، ومن مقتضيات أسمائه وصفاته،

---

(١) انظر: الكشاف، للزمخشري (١٦٢/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٥٦/٢). وشفاء العليل، لابن القيم (٢٨٠/١). وتفسير أبي السعود (٣٨/١).

(٢) الكشاف (١٦٢/١).

(٣) سورة يونس، الآية: (٩٩).

(٤) سورة السجدة، الآية: (١٣).

(٥) سورة الرعد، الآية: (٣١).

وهل يليق بحكمته أن يسوي بين الطيب والخبيث والحسن والقبيح، والجيد والردئ؟ ومن لوازم الربوبية خلق الزوجين، وتنويع المخلوقات وأخلاقها.
فقول القائل: لم خلق الرديء والخبيث واللئيم؟ سؤال جاهل بأسمائه وصفاته وملكه وربوبيته.
وهو سبحانه قد فرق بين خلقه أعظم تفريق، وذلك من كمال قدرته وربوبيته، فجعل منه ما يقبل جميع الكمال الممكن، ومنه ما لا يقبل شيئًا منه، وبين ذلك درجات متفاوتة لا يحصيها إلا الخلاق العليم، وهدى كل نفس إلى حصول ما هي قابلة له، والقابل والمقبول والقبول كله مفعوله ومخلوقه، وأثر فعله وخلقه، وهذا هو الذي ذهب عن الجبرية والقدرية ولم يهتدوا إليه، وبالله التوفيق)[1].

ويقول ابن كثير: (وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا، وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدًا، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده، ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[2].وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾[3].وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقًا على تماديهم في الباطل، وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علمًا بهذا لما قال ما قال، والله أعلم) [4].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يتبين أن الصحيح هو القول الأول، أي: أن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على قلوب وأسماع وأعين الكفار عقاب من الله ـ تعالى ـ على مبادرتهم بالكفر، واختياره بمشيئتهم وإرادتهم؛ وذلك لما يلي:

١ـ قوة أدلته، وسلامتها من المعارض.
٢ـ دلالة السياق وظاهر الآية ، والآيات الأخرى عليه.
٣ـ دلالة السنة عليه.
٤ـ أنه قول جمهور المفسرين.

* * *

---

(١) شفاء العليل (٢٨٥/١، ٢٨٦).
(٢) سورة الصف، الآية: (٥).
(٣) سورة الأنعام.
(٤) تفسير القرآن العظيم (١٧٦/١).

المبحث الثاني

آيات في التكليف بما لا يطاق

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[1].

مع قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

يشير ظاهر الآية إلى أن الوسوسة وخواطر القلوب مما يؤاخذ به العبد مع أنه لا قدرة له على دفعها. بينما يشير ظاهر الآية الأخرى إلى أن العبد لا يكلف إلا بما

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

يطيق[1]. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء في تفسير هاتين الآيتين مسلك الجمع بين الآيات، ومسلك النسخ. ويتضح ذلك من خلال بيان المسألتين التاليتين:

الأولى ـ المراد بقوله تعالى:﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[2].

الثانية ـ مسألة التكليف بما لا يطاق.

المسألة الأولى ـ بيان المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾[3].

للعلماء في تفسير هذه الآية مسلكان:

المسلك الأول ـ أن هذه الآية محكمة، وبالتالي سلكوا مسلك الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ واختلفوا في وجوه الجمع بينهما على النحو التالي :

الوجه الأول ـ أن المراد بهذه الآية: كتمان الشهود والشهادة.

وهذا القول مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وعكرمة والشعبي وغيرهم[4].

روى ابن جرير الطبري بسنده عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ يعني: (كتمان الشهادة وإقامتها على

---

(١) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن أيات الكتاب، للشنقيطي (ص٤٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).

(٤) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٢/٣ ـ ١٤٣). ومعاني القرآن، للنحاس (٣٢٧/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣١٢/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥٣٠/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٩٥/١). والجامع لأحكام القرآن (٤٢١/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٣٦/٧). وفتح القدير، للشوكاني (٣٠٥/١).

وجهها)[1].

ويقول ابن جرير الطبري: (وإنما عنى بذلك جل ثناؤه: كتمان الشهود والشهادة، يقول لا تكتموا الشهادة أيها الشهود، ومن يكتمها يفجر قلبه، ولن يخفى علي كتمانه، وذلك لأني بكل شيء عليم، ويبدي صرف كل شيء في السموات والأرض وملكه، أعلمه خفي ذلك وجليله، فاتقوا عقابي إياكم على كتمانكم الشهادة، وعيدًا من الله بذلك من كتمها، وتخويفًا منه له به، ثم أخبرهم عما هو فاعل بهم في آخرتهم، وبمن كان من نظرائهم ممن انطوى كشحا على معصية فأضمرها أو أظهر موبقة فأبداها من نفسه من المحاسبة عليها، فقال: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ يقول: وإن تظهروا فيما عندكم من الشهادة على حق رب المال الجحود والإنكار، أو تخفوا ذلك فتضمروه في أنفسكم، وغير ذلك من سيء أعمالكم ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ يعني بذلك: يحتسب به عليه من أعماله، فيجازي من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر منكم لمن شاء من المسيئين)[2].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ يقول: (يعني في الشهادة)[3].

٢ ـ أن هذه الآية متصلة بالآية التي قبلها، والتي نزلت في كتمان الشهادة[4].

وقد ضعف هذا القول الرازي والشوكاني.

فقال الرازي: (قال بعضهم: المراد بهذه الآية كتمان الشهادة، وهو ضعيف؛ لأن اللفظ عام وإن كان واردا عقيب تلك القضية لا يلزم قصره عليه)[5].

ويقول الشوكاني بعد حكايته هذا القول: (وهو مردود بما في الآية من عموم اللفظ، ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به)[6].

الوجه الثاني ـ أن المراد بهذه الآية: تولي الكافرين دون المؤمنين.

---

(١) جامع البيان، (١٤٣/١).
(٢) جامع البيان (١٤٢/٣).
(٣) جامع البيان (١٤٢/٣ ، ١٤٣).
(٤) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٣١٢/١).
(٥) مفاتيح الغيب (١٣٦/٧).
(٦) فتح القدير (٣٠٥/١).

وهو قول مقاتل[1]، والواقدي[2].

يقول البغوي: (وقال بعضهم: نزلت فيمن يتولى الكافرين دون المؤمنين، يعني: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار أو تسروا يحاسبكم به الله، وهو قول مقاتل، كما ذكر في سورة آل عمران: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] إلى أن قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[4])[5].

وقد استبعد القرطبي هذا القول. فقال: (وقد قيل: إنها نزلت في الذين يتولون الكافرين من المؤمنين أي: وإن تعلنوا ما في أنفسكم أيها المؤمنون من ولاية الكفار أو تسروها يحاسبكم به الله قاله الواقدي ومقاتل، واستدلوا بقوله تعالى في آل عمران: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ - من ولاية الكفار - يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[6]. يدل عليه ما قبله من قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[7].

قلت: وهذا فيه بعد؛ لأن سياق الآية لا يقتضيه، وإنما ذلك بين في "آل عمران"، والله أعلم)[8].

الوجه الثالث - أن المراد بهذه الآية ما يطرأ على النفوس من الشك واليقين.

وهو قول مجاهد**.** وقد روى ابن جرير الطبري بسنده عنه في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[9]**.** قال: (من الشك واليقين)[10]**.**

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (٣١٢/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٢٣/٧).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٢٣/٣).
(٣) سورة آل عمران، الآية: (٢٨).
(٤) سورة آل عمران، الآية: (٢٩).
(٥) معالم التنزيل (٣١٢/١).
(٦) سورة آل عمران، الآية: (٢٩).
(٧) سورة آل عمران، الآية: (٢٩).
(٨) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٨/٣). ومعاني القرآن، للنحاس (٣٢٨/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥٣٠/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٩٥/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٢٣/٣). وفتح القدير، للشوكاني (٣٠٥/١).
(٩) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(١٠) جامع البيان (١٤٨/٣).

وقد رد الشوكاني هذا الوجه بقوله: (وهو أيضًا تخصيص بلا مخصص)[1].

والآية بناءً على هذه الأوجه الثلاثة تكون خاصة ببعض الذنوب المذكورة دون غيرها من الذنوب والمعاصي.

الوجه الرابع - أن المراد بهذه الآية أن الله عز وجل محاسب خلقه على ما عملوا من عمل، وعلى ما لم يعملوه مما أسروه في أنفسهم ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين، ويؤاخذ به أهل الكفر والنفاق.

وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيس بن أبي حازم، والربيع بن أنس وغيرهم وهو اختيار جمع من المحققين من أهل العلم[2].

يقول ابن جرير الطبري - مختارًا هذا القول -: (وأولى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية، قول من قال: إنها محكمة وليست بمنسوخة، وذلك أن النسخ لا يكون في حكم إلا ينفيه بآخر له ناف من كل وجوهه، وليس في قوله جل وعز: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[3] نفي الحكم الذي أعلم عباده بقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾[4]؛ لأن المحاسبة ليست بموجبة عقوبة، ولا مؤاخذة بما حوسب عليه العبد من ذنوبه، وقد أخبر الله عز وجل عن المجرمين أنهم حين تعرض عليهم كتب أعمالهم يوم القيامة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾[5]. فأخبر أن كتبهم محصية عليهم صغائر أعمالهم وكبائرها، فلم تكن الكتب وإن أحصت صغائر الذنوب وكبائرها بموجب إحصاؤها على أهل الإيمان بالله ورسوله وأهل الطاعة له، أن يكونوا بكل ما أحصته الكتب من الذنوب، معاقبين؛ لأن الله عز وجل وعدهم العفو عن الصغائر باجتنابهم الكبائر، فقال في تنزيله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم

---

(١) فتح القدير (٣٠٥/١).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٩/٣). ومعاني القرآن، للزجاج (٣٦٨/١). ومعاني القرآن الكريم، للنحاس (٣٢٥/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣١٤/١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٨٧/١). والكشاف، للزمخشري (٤٠٦/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥٣٠/٢). وباهر البرهان، للغزنوي (٢٧٠/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٩٤/١، ٢٩٥). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٢٦/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٢٣/٣). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧٣٦/١). وفتح القدير، للشوكاني (ص٣٠٥). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠١/١٠). والروض الرياض، لابن ريان (١٩/١). وفتح الرحمن، لأبي يحيى الأنصاري (ص٧٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).

(٥) سورة الكهف، الآية: (٤٩).

مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾[1]. فدل أن محاسبة الله عباده المؤمنين بما هو محاسبهم به من الأمور التي أخفتها أنفسهم غير موجبة لهم منه عقوبة، بل محاسبته إياهم إن شاء الله عليها، ليعرفهم تفضله عليهم بعفوه لهم عنها كما بلغنا عن رسول الله ﷺ في الخبر الذي حدثني به أحمد بن المقدام، قال: ثنا المعتمر بن سليمان: قال: سمعت أبي عن قتادة، عن صفوان ابن محرز، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: **((يدني الله عبده المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بسيئاته يقول: هل تعرف؟ فيقول: نعم، فيقول: سترتها في الدنيا وأغفرها اليوم ثم يظهر له حسناته، فيقول:** فَيَقُولُ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[2] أو كما قال، **وأما الكافر فإنه ينادى به على رؤوس الأشهاد))**[3])[4].

ثم استشهد بعد ذلك برواية أخرى بنحو هذا الحديث وقال: (إن الله يفعل بعبده المؤمن من تعريفه إياه سئيات أعماله حتى يعرفه تفضله عليه بعفوه له عنها، فكذلك فعله تعالى ذكره في محاسبته إياه بما أبداه من نفسه، وبما أخفاه من ذلك، ثم يغفر له كل ذلك بعد تعريفه تفضله وتكرمه عليه، فيستره عليه، وذلك هو المغفرة التي وعد الله عباده المؤمنين، فقال: يغفر لمن يشاء.

فإن قال قائل: فإن قوله: لَهَا﴿ مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾[5] ينبئ عن أن جميع جميع الخلق غير مؤاخذين إلا بما كسبته أنفسهم من ذنب، ولا مثابين إلا بما كسبته من خير، قيل: إن ذلك كذلك، وغير مؤاخذ العبد بشيء من ذلك إلا بفعل ما نهى عن فعله، أو ترك ما أمر بفعله.

فإن قال: فإذا كان ذلك كذلك، فما معنى وعيد الله عز وجل إيانا على ما أخفته أنفسنا بقوله: وَيُعَذِّبُ﴿ مَن يَشَآءُۗ ﴾[6] إن كان لَهَا﴿ مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾[7]. وما أضمرته قلوبنا وأخفته أنفسنا من هم بذنب، أو إرادة لمعصية لم تكتسبه جوارحنا؟ قيل له: إن الله جل ثناؤه قد وعد المؤمنين أن يعفو لهم عما هو أعظم مما هم به أحدهم من المعاصي فلم يفعله، وهو ما ذكرنا من وعده إياهم العفو عن صغائر ذنوبهم إذا هم

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الحاقة.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، با: قول الله تعالى: أَلَا﴿ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، ح/٢٣٠٩ (٨٦٢/٢). ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. ح/٢٧٦٨ (٢١٢٠/٤).
(٤) جامع البيان (١٥٠/١٠).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

اجتنبوا كبائرها، وإنما الوعيد من الله عز وجل بقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[1]. على ما أخفته نفوس الذين كانت أنفسهم تخفي الشك في الله، والمرية في وحدانيته، أو في نبوة نبيه ﷺ، وما جاء به من عند الله، أو في المعاد والبعث من المنافقين، على نحو ما قال ابن عباس ومجاهد، ومن قال بمثل قولهما إن تأويل قوله: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[2] على الشك واليقين غير أنا نقول: إن المتوعد بقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[3]. هو من كان إخفاء نفسه ما تخفيه الشك والمرية في الله، وفيما يكون الشك فيه بالله كفرًا، والموعود الغفران بقوله: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ هو الذي أخفى، وما يخفيه الهمة بالتقدم على بعض ما نهاه الله عنه من الأمور التي كان جائزًا ابتداء تحليله وإباحته، فحرمه على خلقه جل ثناؤه أو على ترك بعض ما أمر الله بفعله مما كان جائزًا ابتداء إباحة تركه، فأوجب فعله على خلقه، فإن الذي يهم بذلك من المؤمنين إذا هو لم يصحح همه بما يهم به، ويحقق ما أخفته نفسه من ذلك بالتقدم عليه لم يكن مأخوذًا، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **((من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه))**[4]. فهذا الذي وصفنا، هو الذي يحاسب الله به مؤمني عباده، ثم لا يعاقبهم عليه.

فأما من كان ما أخفته نفسه شكًا في الله وارتيابًا في نبوة أنبيائه، فذلك هو الهالك المخلد في النار، الذي أوعده جل ثناؤه العذاب الأليم بقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[5].

فتأويل الآية إذًا: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أيها الناس فتظهروه ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ فتنطوي عليه نفوسكم ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[6]. فيعرف مؤمنكم تفضله بعفوه عنه، ومغفرته له فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه، ونبوة أنبيائه[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب: من هم بحسنة أو سيئة، ح/٦١٢٦ (ص١١٢٥) بنحوه من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت، ح/١٣٠ (ص٦٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٧) جامع البيان (١٤٩/٣ ـ ١٥١).

ويقول ابن عطية ـ مؤيدًا اختيار ابن جرير الطبري ـ: (وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾[1]، معناه: مما هو في وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر فيه، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل الخواطر فيه أشفق الصحابة والنبي ﷺ فبين الله تعالى لهم ما أراد بالآية الأولى وخصصها، ونص على حكمه أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع، بل هو أمر غالب، وليست مما يكسب ولا يكتسب، وكان في هذا البيان فرجهم، وكشف كربهم وباقي الآية محكمة لا نسخ فيها)[2].

ويقول ابن تيمية: (فإن قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[3]. الآية إنما تدل على على أن الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾[4]. يتقضي أن الأمر إليه في المغفرة والعذاب لا إلى غيره.

ولا يقتضي أنه يغفر ويعذب بلا حكمة ولا عدل كما يظنه من يظنه من الناس، حتى يجوزوا أنه يعذب على الأمر اليسير من السيئات مع كثرة الحسنات وعظمها، وأن الرجلين اللذين لهما حسنات وسيئات يغفر لأحدهما مع كثرة سيئاته وقلة حسناته، ويعاقب الآخر على السيئة الواحدة مع كثرة حسناته، ويجعل درجة ذلك في الجنة فوق درجة الثاني.

وهؤلاء يجوزون أن يعذب الله الناس بلا ذنب، وأن يكلفهم ما لا يطيقون ويعذبهم على تركه، والصحابة إنما هربوا وخافوا أن يكون الأمر من هذا الجنس فقالوا: لا طاقة لنا بهذا فإنه إن كلفنا ما لا نطيق عذبنا فنسخ الله هذا الظن، وبين أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها وبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إنه يكلف العبد ما لا يطيقه، ويعذبه عليه.

وهذا القول لم يعرف عن أحد من السلف والأئمة؛ بل أقوالهم تناقض ذلك حتى إن سفيان ابن عيينة سئل عن قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[5]. قال: إلا يسرها، ولم يكلفها طاقتها)[6].

ثم قال ـ أيضًا ـ: (والمقصود هنا أن قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٢) المحرر الوجيز (٥٣٢/٢).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٦) مجموع الفتاوى (١٠١/١٠، ١٠٢).

تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[1] حق، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه، فمن فهم أن الله يكلف نفسًا ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه، ومن فهم أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ الله فهمه وظنه، فقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[2]. رد للأول وقوله، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾[3]. رد للثاني، وقوله: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[4]. كقوله في آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾[5]. وقوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠﴾[6].وقد علمنا أنه لا يغفر أن يشرك به، وأنه لا يعذب المؤمنين، وأنه يغفر لمن تاب، كذلك قوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾. الآية.

ودلت هذه الآية على أنه سبحانه يحاسب بما في النفوس، وقد قال عمر: (زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا). والمحاسبة تقتضي أن ذلك يحسب ويحصى.

وأما المغفرة والعذاب فقد دل الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر، وبغض الرسول وبغض ما جاء به أنه كافر بالله ورسوله. وقد عفى الله لهذه الأمة وهم المؤمنون حقًا الذين لم يرتابوا ـ عما حدثت به أنفسها ما لا تتكلم به أو تعمل، كما هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس، وروي عن النبي ﷺ: **((أن الذي يهم بالحسنة تكتب له، والذي يهم بالسيئة لا تكتب حتى يعملها))**[7]. إذا كان مؤمنًا من عادته عمل الحسنات وترك السيئات، فإن ترك السيئة لله كتبت له حسنة، فإذا أبدى العبد ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٥) سورة آل عمران.
(٦) سورة المائدة.
(٧) سبق تخريجه (ص٣٥١).

والعقاب، وإن أخفى ذلك، وكان ما أخفاه متضمنًا لترك الإيمان بالله والرسول، مثل الشك فيما جاء به الرسول أوبغضه كان معاقبًا على ما أخفاه في نفسه من ذلك؛ لأنه ترك الإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به، وأما إن كان وسواسًا والعبد يكرهه فهذا صريح الإيمان كما هو مصرح به في الصحيح.

وهذه الوسوسة هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك، فقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1])[2].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ أن المحاسبة لا توجب العقوبة، وذلك لما يلي:

أ ـ قوله تعالى:﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[3]. فهذه الكتب وإن أحصت الأعمال صغيرة كانت أو كبيرة ـ لا توجب العقوبة؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[4]. فهو سبحانه قد وعد المؤمنين مغفرة الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، فضلا عن الخواطر والوساوس.

ب ـ ما روى البخاري بسنده عن صفوان بن محرز قال: (بينا نحن نطوف بالبيت مع عبدالله بن عمر وهو يطوف إذا عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟فقال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: **((يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف ـ مرتين ـ حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم))** قال: **((فيعطى صحيفة حسناته ـ أو كتابه ـ بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين))**[5].

٢ ـ ما رواه البخاري بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: **((من هم بحسنة فلم يعملها كتبت**

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٦ ـ ١٠٨).
(٣) سورة الكهف، الآية: (٤٩).
(٤) سورة النساء.
(٥) سبق تخريجه (ص٣٥٠).

له حسنة، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه)) (1).

٣ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فإنها لم تنسخ، ولكن الله عز وجل إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول الله عز وجل: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم تطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب، فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب، وهو قوله: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾. وهو قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ من الشك والنفاق) (2).

وقد ضعف الشوكاني هذا القول بقوله: (وهو أيضًا تخصيص بلا مخصص؛ فإن قوله: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا يختص ببعض معين إلا بدليل)(3).

الوجه الخامس ـ أن المراد بالآية أن الله محاسب جميع خلقه بجميع ما أبدوا من سيء أعمالهم، وجميع ما أسروه، ومعاقبهم عليه في الدنيا بما يحدث لهم من المصائب، والأمور المحزنة والمؤلمة في الدنيا.

وهذا القول مروي عن عائشة رضي الله عنها.

روى ابن جرير الطبري بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾(4).الآية قال:(كانت عائشة رضي الله عنها تقول: من هم بسيئة فلم يعملها أرسل الله عليه من الهم والحزن مثل الذي هم به من السيئة فلم يعملها فكانت كفارته)(5).

وروى بسنده أيضًا عن علي بن زيد عن أمه أنها سألت عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾. فقالت: (ما سألني عنها أحد مذ سألت رسول الله ﷺ فقال: **((يا عائشة**

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٥١).
(٢) جامع البيان (١٤٩/٣) .
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٩/٣). ومعاني القرآن الكريم، للنحاس (٣٢٨/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣١٤/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٦٥/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٣٦/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٢٥/٣). وتفسير القرآن العظيم (٧٣٧/١).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٥) جامع البيان (١٤٩/١).

هذه متابعة الله العبد بما يصيبه من الحمى، والنكبة والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها، فيجدها في ضبنه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير))(١).

روى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة))**(٢).

الوجه السادس ـ أن المراد بالآية: أن الله يحاسبكم ويؤاخذكم بما أبدته قلوبكم وأخفته مما عزمتم عليه وأما ما حدثتكم به أنفسكم مما لم تعزموا عليه فإن ذلك مما لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ولا يؤاخذكم به.

وهو اختيار الزمخشري، والرازي وبعض المفسرين(٣).

يقول الرازي: (الوجه الأول: أن الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين: فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه، ويعزم على إدخاله في الوجود، ومنها ما لا يكون كذلك بل تكون أمورًا خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها، ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس، فالقسم الأول يكون مؤاخذًا به والثاني لا يكون مؤاخذا به، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ ﴾(٤). وقال في آخر هذه السورة: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾(٥). وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٦). هذا هو الجواب المعتمد)(٧).

المسلك الثاني ـ النسخ، وهو أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ

---

(١) رواه الترمذي في سننه، ح/٢٩٩١ (٢٢١/٥). وأحمد في مسنده ، ح/٢٥٨٧٧ (٢١٨/٦) . وقد ضعف ابن كثير هذه الرواية بقوله: (وكذا رواه الترمذي، وابن جرير من طريق حماد بن سلمة، به. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة. قلت: وشيخه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، يغرب في رواياته، وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه: أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها في الكتب سواه). وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، ح/٢٠٠ (١٩٦/٢).

(٢) السنن ، ح/٢٣٩٦ (٦٠١/٤) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: حسن صحيح. ح/١٢٢٠ (١٢٢٠/٣).

(٣) انظر: الكشاف، للزمخشري (٤٠٦/١، ٤٠٧). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥٣٢/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣١٤/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٣٦/٧). وتفسير أبي السعود (٢٧٢/١).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٢٥).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

(٦) سورة النور، الآية: (١٩).

(٧) مفاتيح الغيب (١٣٥/٧).

نَفۡسًا إِلَّا ﴾وُسۡعَهَا[1].

وهو قول علي بن أبي طالب ، و ابن عمر ، وابن مسعود وأبي هريرة ورواية عن ابن عباس رضي الله عنهم واختيار جمع من المفسرين كعكرمة وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم[2] من السلف والخلف.

قال أبو المظفر السمعاني: (قوله تعالى: وَإِن﴿ تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ﴾ٱللَّهُ هذا منسوخ؛ فإنه روى: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين. وقالوا: يحاسبنا الله بما نحدث به أنفسنا! وبقوا في ذلك حولاً كاملاً، فنزل قوله تعالى: لَا﴿ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ فصار هذا منسوخًا به. هذا قول أبي هريرة، وابن مسعود، وابن عمر، وفي إحدى الروايتين عن ابن عباس.

وقد قال النبي ﷺ: **((إن الله تعالى عفى عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم به))** [3] أي: تتكلم به)[4].

وقال الشنقيطي بعد إيراده هذه الآية في كتابه "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب": (والجواب: أن آية: وَإِن﴿ تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ﴾ٱللَّهُ منسوخة بقوله: لَا﴿ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا ﴾وُسۡعَهَا)[5].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

١ ـ الروايات الواردة في سبب نزول هذه الآيات ومنها:

أ ـ روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٣/٣ ـ ١٤٧). ومعاني القرآن، للزجاج (٣٦٨/١). ومعاني القرآن، للنحاس (٣٢٥/١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٨٧/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣١٢/١ ـ ٣١٣). والمحرر الوجيز، لابن عيطة (٥٣١/٢). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٩٥/١). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧٣٢/١ ـ ٧٣٦). وفتح القدير، للشوكاني (٣٠٥/١). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠٠/١٠). والروض الرياض، لابن ريان (١٩/١). وفتح الرحمن، لزكريا الأنصاري (ص٧٣). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٤٦).

(٣)رواه البخاري في صحيحه ،كتابالعتق،باب الخطأوالنسيان في العتاقة ونحوه ، ح/٢٥٢٨(ص٤٠٨) ،ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ،باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس .. ح/١٢٧ (ص٦٧)، كلاهما بلفظ(تجاوز).

(٤) انظر: تفسير القرآن، (٢٨٧/١).

(٥) انظر: دفع إيهام الاضطراب، (ص٤٦).

بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام، والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: **((أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير))** فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخره)[1].

ب ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء قال: فقال رسول الله ﷺ : **((قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا))** فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾))[2].

ج ـ روى الإمام البخاري بسنده عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال أحسبه ابن عمر ـ ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ قال: (نسختها الآية التي بعدها)[3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الله لم يكلف إلا ما يطاق. ح/١٢٥ (ص ٦٧).
(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الله لم يكلف إلا ما يطاق. ح/١٢٦ (ص ٦٧).
(٣) الصحيح، كتاب التفسير، باب: إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه. ح/٤٥٤٥ (ص٧٧٢).

٢ ـ روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **((إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل))**[(١)].

٣ ـ روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **((قال الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا))**[(٢)] ونحوه من الأحاديث.

٤ ـ روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: (جاء ناس مع أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدثنا أن يتكلم به. قال: **((وقد وجدتموه؟))** قالوا: نعم. قال: **((ذاك صريح الإيمان))**[(٣)].

وقد ضعف جمع من أهل العلم هذا المسلك، وحملوا النسخ الوارد في الأحاديث الصحيحة على أن المراد به التخصيص؛ لأن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ على التخصيص كثيرًا.

يقول ابن جرير الطبراني: (وأولى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول من قال: إنها محكمة وليست بمنسوخة؛ وذلك أن النسخ لا يكون في حكم إلا ينفيه بآخر له ناف من كل وجوهه وليس في قوله جل وعزر: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(٤)]. نفي الحكم الذي أعلم عباده بقوله: ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[(٥)]. لأن المحاسبة ليست بموجبة عقوبة، ولا مؤاخذة بما حوسب عليه العبد من ذنوبه)[(٦)].

ويقول النحاس: (فأما ما روي عن ابن عباس من النسخ، فمما يجب أن يوقف على تأويله، إذ كانت الأخبار لا يقع فيها ناسخ ولا منسوخ. فإن صح فتأويله: أن الثاني مثل الأول كما تقول: نسخت هذا من هذا.

وقيل: فيه قول آخر، يكون معناه: فأزيل ما خالط قلوبهم من ذلك وبين) [(٧)].

ويقول الغزنوي: (ولا يقال: إنها نسخت بقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(٨)]؛ لأن النسخ بيان مدة المصلحة في الشرائع، لا في الأخبار والمواعيد؛ ولأن تكليف ما ليس في الوسع لم يكن قط حتى ينسخ.

---

(١) الصحيح، كتاب العتق، باب: الخطأ والنسيان في العتاقة. ح/٢٥٢٨ (ص ٤٠٨).
(٢) سبق تخريجه (ص٣٥١).
(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان .. ح/١٣٢ (ص٦٩).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٦) جامع البيان (١٤٩/٣).
(٧) معاني القرآن الكريم (٣٢٩/١ ، ٣٣٠).
(٨) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

وما روي أن الصحابة رضي الله عنهم عز عليهم نزولها وقالوا: (إنا لنحدث أنفسنا بما لا يمكننا أن نرآه عنا، فقد كلفنا ما لا نطيق، فنزلت: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ فحديث صحيح، إلا أنها نزلت على إزالة التوهم، لا على نسخ الخبر المتقدم)[1].

ويقول ابن تيمية: (وفصل الخطاب: أن لفظ "النسخ" مجمل، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه، من عموم أو إطلاق أو غير ذلك، كما قال من قال: إن قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2]، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾. نسخ بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[3]. وليس بين الآيتين تناقض، لكن قد يفهم بعض الناس من قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ و﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ الأمر بما لا يستطيعه العبد، فينسخ ما فهمه هذا، كما بنسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته، وإن لم يكن نسخ ذلك نسخ ما أنزله، بل نسخ ما ألقاه الشيطان، إما من الأنفس أو من الأسماع، أو من اللسان.

وكذلك ينسخ الله ما يقع في النفوس من فهم معنى، وإن كانت الآية لم تدل عليه لكنه محتمل، وهذه الآية من هذا الباب، فإن قوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[4]. الآية إنما تدل على أن الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾[5]. يقتضي أن الأمر إليه في المغفرة والعذاب لا إلى غيره)[6].

وقال أيضًا: (والمقصود هنا أن قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[7]. حق، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه، فمن فهم أن الله يكلف نفسًا ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه، ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه فقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[8]. رد للأول، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾[1]. رد

---

(١) باهر البرهان (١/٢٧٠ ، ٢٧١).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).
(٣) سورة التغابن، الآية: (١٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٦) مجموع الفتاوى (١٠/١٠١).
(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).
(٨) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

للثاني)[٢].

وقال ـ أيضًا ـ: (وهذه الوسوسة هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيما، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[٣])[٤].

ويقول الرازي: (الوجه السابع في الجواب: ما روينا عن بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[٥]. وهذا أيضًا ضعيف لوجوه:

أحدها ـ أن هذا النسخ إنما يصح لو قلنا: إنهم كانوا قبل هذا مأمورين بالاحتراز عن تلك الخواطر التي كانوا عاجزين عن دفعها، وذلك باطل؛ لأن التكليف قط ما ورد إلا بما في القدرة، ولذلك قال عليه السلام: **((بعثت بالحنيفية السهلة السمحة))**[٦].

والثاني ـ أن النسخ إنما يحتاج إليه لو دلت الآية على حصول العقاب على تلك الخواطر، وقد بينا أن الآية لا تدل على ذلك.

والثالث ـ أن نسخ الخبر لا يجوز؛ إنما الجائز هو نسخ الأوامر والنواهي)[٧].

ويقول ابن حجر: (والمراد بقوله: "نسختها" أي أزالت ما تضمنته من الشدة، وبينت أنه وإن وقعت المحاسبة به لكنها لا تقع المؤاخذة به، أشار إلى ذلك الطبري فرارًا من إثبات دخول النسخ في الأخبار، وأجيب بأنه وإن كان خبرًا لكنه يتضمن حكمًا، ومهما كان من الأخبار يتضمن الأحكام أمكن دخول النسخ فيه، كسائر الأحكام. وإنما الذي لا يدخله النسخ من الأخبار ما كان خبرًا محضًا لا يتضمن حكمًا كالأخبار عما مضى من أحاديث الأمم ونحو ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد بالنسخ في الحديث التخصيص؛ فإن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ عليه كثيرا)[٨].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو الوجه الرابع من المسلك الأول، أي: أن الله ـ عز وجل ـ محاسب خلقه على ما عملوا من عمل، وعلى ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠٦/١٠).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠٨/١٠).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٦) رواه الإمام أحمد في المسند، ح/٢٢٣٤٥ (٢٦٦/٥) بنحوه من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ بدون لفظة (السهلة)، وضعف إسناده الأرنؤوط، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ح/٢٣٣٦.
(٧) مفاتيح الغيب (١٣٦/٧ ـ ١٣٧).
(٨) فتح الباري (٢٠٧/٨).

لم يعملوه مما أسروه في أنفسهم وأخفوه فيغفر للمؤمنين، ويؤاخذ الكافرين والمنافقين؛ وذلك لما يلي:

١- قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٢- دلالة ظاهر الآية عليه ، والآيات الأخرى عليه .

٣- دلالة السنة عليه.

٤- أنه اختيار المحققين من أهل العلم.

* * *

المسألة الثانية ـ التكليف بما لا يطاق:

اختلف الناس في هذه المسألة على أربعة أقوال:

القول الأول ـ جواز التكليف بما لا يطاق مطلقًا، ومنه تكليف أعمى البصر والزمن السير إلى مكة، ونحو ذلك من الأمر بالمحال، وهذا قول جهم بن صفوان.

يقول ابن تيمية: (قال أبو بكر عبد العزيز ـ صاحب الخلال ـ في كتاب القدر الذي في مقدمة كتاب المقنع له: لم يبلغنا عن أبي عبد الله في هذه المسألة قول فنتبعه؛ والناس فيه قد اختلفوا. فقال قائلون: بتكليف ما لا يطاق، ونفاه آخرون ومنعوا منه.

قال: والذي عندنا فيه أن القرآن شهد بصحة ما إليه قصدناه ـ وهو أن الله يتعبد خلقه بما يطيقون وما لا يطيقون ـ ثم قال في آخر الفصل: ولعل قائلاً أن يعارض قولنا فيقول: لو جاز أن يكلف الله العبد ما لا يطيق، جاز أن يكلف الأعمى صنعة الألوان، والمقعد المشي، ومن لا يد له البطش، وما أشبه ذلك. فيقال له: قد قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾[1] هو مشيهم على وجوههم.

وسقط السؤال في كل ما سألوا عنه على جواب ابن عباس في المشي على الوجوه)[2].

وقد أبطل القاضي عبد الجبار هذا القول بقوله: (فإن ارتكبوا من يسميهم المجبرة تكليف ما لا يطاق كان في ذلك خروج عن الإسلام، وانسلاخ عن الدين؛ لأن الأمة من لدن النبي ﷺ إلى اليوم الذي وقع فيه الخلاف لم يجوزوا ذلك على الله تعالى فإن قالوا: إنما لا يجوز عليه لما اعتقدوا فيه القبح ولم يثبت قبح هذا التكليف، قلنا: إن المنع من قبح ما هذا سبيله مما لا وجه له، فإن كل عاقل يعلم بكمال عقله أن تكليف الأعمى بنقط المصحف على وجه الصواب، وتكليف الزمن بالمشي قبيح)[3] .

ويقول ابن تيمية ـ مبطلا هذا القول ـ: (وكذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتم بقوله: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢﴾ فإنه يناقض هذا الإجماع، ومضمون الإجماع نفي وقوع ذلك في الشريعة.

وأيضًا: فإن مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون يعاقبون على ترك العبادة في حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم.

وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين لا يشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والإيهام)[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٢٩٤، ٢٩٥).

(٣) شرح الأصول الخمسة ، (ص ٣٩٦) .

(٤) مجموع الفتاوى (٣٠٢/٧).

ويقول أيضًا: (وأما العاجز عن الفعل كالزمن العاجز عن المشي، والأعمى العاجز عن النظر ونحو ذلك فهؤلاء لم يكلفوا بما يعجزون عنه، ومثل هذا التكليف لم يكن واقعًا في الشريعة باتفاق طوائف المسلمين إلا شرذمة قليلة من المتأخرين ادعوا وقوع مثل هذا التكليف في الشريعة وتقولوا ذلك عن الأشعري وأكثر أصحابه وهو خطأ عليهم.

وأما جواز هذا التكليف عقلاً فأكثر الأمة نفت جوازه مطلقًا، وجوزه عقلاً من المثبتة للقدر من أصحاب أبي الحسن الأشعري، ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما)[1].

وأيضًا فإن ما استدل به أبو بكر: عبد العزيز ـ صاحب الخلال ـ من قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[2]: (هو مشيهم على وجوههم) من باب العقوبة وليس من التكليف.

القول الثاني. عدم جواز التكليف بما لا يطاق، وهذا مذهب المعتزلة.

وقد منعوه لقبحه عقلاً، فإن كلف الأعمى نقط المصحف، والزمن المشي إلى أقصى البلاد، عد ذلك سفيهًا وقبح ذلك في بدائه العقول، وكان كأمر الجماد.

يقول الرازي: (المسألة الرابعة: المعتزلة عولوا على هذه الآية ـ أي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].في أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه، ولا يقدر عليه،ونظيره قوله تعالى:﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[4].وقوله:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[5]. وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾[6]. وقالوا: هذه الآية صريحة صريحة في نفي تكليف ما لا يطاق.

قالوا: وإذا ثبت هذا فههنا أصلان:

الأول ـ أن العبد موجد لأفعال نفسه، فإنه لو كان موجدها هو الله تعالى لكان تكليف العبد بالفعل تكليف بما لا يطاق، فإن الله تعالى إذا خلق الفعل وقع لا محالة ولا قدرة البتة للعبد على ذلك الفعل ولا على تركه، أما إنه لا قدرة له على الفعل فلأن الفعل وجد بقدرة الله تعالى والموجود لا يوجد ثانيًا، وأما إنه لا قدرة له على الدفع؛ فلأن قدرته أضعف من قدرة الله تعالى فكيف تقوى قدرته على دفع قدرة الله تعالى، وإذا لم يخلق

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٧٠/٨).
(٢) سورة الإسراء، الآية: (٩٧).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٤) سورة الحج، الآية: (٧٨).
(٥) سورة النساء، الآية: (٢٨).
(٦) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

الله الفعل استحال أن يكون للعبد قدرة على التحصيل، فثبت أنه لو كان الموجد لفعل العبد هو الله تعالى لكان تكليف بالعبد بالفعل تكليفًا بما لا يطاق.
والثاني: أن الاستطاعة قبل الفعل، وإلا لكان الكافر المأمور بالإيمان لم يكن قادرًا على الإيمان، فكان ذلك التكليف بما لا يطاق هذا تمام استدلال المعتزلة في هذا الموضع) [1].

وقد رد الرازي على استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[2] على عدم جواز التكليف بما لا يطاق بقوله ـ بعد حكاية حججه في جواز التكليف بما لا يطاق ـ: (فعلمنا أنه لابد للآية من التأويل. وفيه وجوه:
الأول ـ وهو الأصوب: أنه قد ثبت أنه متى وقع التعارض من القاطع العقلي، والظاهر السمعي فإما أن يصدقهما وهو محال؛ لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يكذبها وهو محال؛ لأنه إبطال النقيضين، وإما أن يكذب القاطع العقلي ويرجح الظاهر السمعي، وذلك يوجب تطرق الطعن في الدلائل العقلية، ومتى كان كذلك بطل التوحيد والنبوة والقرآن، وترجيح الدليل السمعي يوجب القدح في الدليل العقلي والدليل السمعي معًا، فلم يبق إلا أن يقطع بصحة الدلائل العقلية، ويحمل الظاهر السمعي على التأويل[3].

وهذا الكلام هو الذي تعول المعتزلة عليه أبدًا في دفع الظواهر التي تمسك بها أهل التشبيه، فبهذا الطريق علمنا أن لهذه الآية تأويلاً في الجملة، سواء عرفناه أو لم نعرفه، وحينئذ لا يحتاج إلى الخوض فيه على سبيل التفصيل.
الوجه الثاني في الجواب ـ هو أنه لا معنى للتكليف في الأمر والنهي إلا الإعلام بأنه متى فعل كذا فإنه يثاب، ومتى لم يفعل فإنه يعاقب، فإذا وجد ظاهر الأمر فإن كان المأمور به ممكنًا كان ذلك أمرًاوتكليفًا في الحقيقة، وإلا لم يكن في الحقيقة تكليفًا، بل كان إعلامًا بنزول العقاب به في الدار الآخرة، وإشعارا بأنه إنما خلق للنار.
والجواب الثالث ـ وهو أن الإنسان ما دام لم يمت، وأنا لا ندري أن الله تعالى علم منه أنه يموت على الكفر أو ليس كذلك، فنحن شاكون في قيام المانع، فلا جرم نأمره بالإيمان ونحثه عليه، فإذا مات على الكفر علمنا بعد موته أن المانع كان قائمًا في حقه. فتبين أن شرط التكليف كان زائلاً عنه حال حياته، وهذا قول طائفة من قدماء أهل الجبر.

---

(١) مفاتيح الغيب، (١٥١/٧).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٣) هذا هو القانون الكلي عند الأشاعرة ، وهو الأساس الذي بنى عليه متأخري الأشاعرة منهجهم في التأويل ، وقد صنف شيخ الإسلام ابن تيمية في إبطاله كتابا عظيما ، أسماه درء تعارض العقل والنقل .

والجواب الرابع ـ أن بينا أن قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[1]. ليس قول الله تعالى بل هو قول المؤمنين، فلا يكون حجة، إلا أن هذا ضعيف؛ وذلك لأن الله تعالى لما حكاه عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم، فبسبب هذا الكلام وجب أن يكونوا صادقين في هذا الكلام، إذ لو كانوا كاذبين فيه لما جاز تعظيمهم بسببه، فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في هذا الموضع، ونسأل الله العظيم أن يرحم عجزنا وقصور فهمنا وأن يعفو عن خطايانا فإنا لا نطلب إلا الحق، ولا نروم إلا الصدق)[2].

وأما ابن الجوزي فيقول عند تفسير هذه الآية: (ومعناه: لا يكلفها الله ما لا قدرة لها عليه لاستحالته كتكليف الزمن السعي، والأعمى النظر، فأماتكليف ما يستحيل من المكلف، لا لفقد الآلات، فيجوز كتكليف الكافر الذي سبق في العلم القديم أنه لا يؤمن الإيمان فالآية محمولة على القول الأول)[3].

القول الثالث ـ أن التكليف بما لا يطاق جائز، وهذا مذهب الأشاعرة.

يقول ابن عطية: (واختلف الناس في جواز تكليف ما لا يطاق في الأحكام التي هي في الدنيا، بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعًا الآن في الشرع، وأن هذه الآية آذنت بعدمه.

فقال أبو الحسن الأشعري، وجماعة من المتكلمين: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ولا يخرم ذلك شيئًا من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمارة على تعذيب المكلف، وقطعًا به، وينظر إلى هذا تكليف المصور أن يعقد شعيرة حسب الحديث)[4].

لكن الأشاعرة يقولون: إن ما لا يطاق أقسام:

١ ـ أن يمتنع الفعل لعلم الله بعدم وقوعه، أو تعلق إرادته، أو إخباره بعدم وقوعه، والتكليف بهذا جائز عند جميع الأشاعرة؛ لأنه لو لم يجز لم يكن العاصي بكفره أو فسقه مكلفًا بالإيمان وترك الكبائر، بل لا يكون تارك المأمور به عاصيًا أصلاً)[5].

وهذا النوع هو الذي منعه المعتزلة، وقالوا: إنه تكليف لما لا يطاق، وذلك بناءً على قولهم في الاستطاعة، وأنها تكون قبل الفعل، وأثبته الأشاعرة بناء على قولهم أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل.

٢ ـ أن يمتنع الفعل لنفسه، بكونه محالاً كالجمع بين الضدين، وهذا قد اختلف فيه الأشاعرة فبعضهم قال: إن مثل هذا لا يتصور، ومن ثم فلا يقع التكليف به؛ لأن العلم بالمستحيل علم لا معلوم له، ومنهم من قال: بجوازه مطلقًا[6].

٣ ـ ألا تتعلق به القدرة الحادثة عادة، كحمل الجبل، والطيران إلى السماء، فهذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٢) مفاتيح الغيب (١٥٢/٧، ١٥٣).
(٣) زاد المسير (٢٩٦/١).
(٤) المحرر الوجيز (٥٤٠/٢).
(٥) القضاء والقدر، للمحمود (ص٢٧٥، ٢٧٦).
(٦) انظر : القضاء والقدر للمحمود (ص٢٧٦).

يجوزه بعض الأشاعرة، وإن لم يقع من خلال الاستقراء[١].

وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:

أ ـ تكليف أبي لهب بالإيمان، ومن الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر، ومما أخبر أن أبا لهب لن يؤمن فصار أبو لهب مكلفًا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وذلك تكليف ما لا يطاق[٢].

ب ـ تكليف المصور يوم القيامة أن يعقد شعيرة أو أن يحيي ما خلق[٣]. كما في حديث أبي هريرة: **((فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة))**[٤].

جـ ـ استدلالهم بقوله تعالى:﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[٥]. قالوا: فلو كان كان تكليف ما لا يطاق ممتنعًا كان السؤال عبثًا[٦].

د ـ أن الله تعالى أمر نبيه بدعاء قوم قال فيهم: وَإِن﴿ تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ ﴾[٧][٨].

هـ ـ أن الله يأمر الخلق يوم القيامة بالسجود له ولا يجعل للكافرين استطاعة على السجود، فقال سبحانه: يَوۡمَ﴿ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[٩].

وهذا تكليف بما لا يطاق[١٠].

ز ـ أن صدور الفعل عن العبد يتوقف على الداعي، وتلك الداعية مخلوقة لله تعالى،

---

(١) انظر : القضاء والقدر للمحمود (ص٢٧٦).
(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥٤١/٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٥٢/٧). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٤٣٠/٣)
(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عيطة (٥٤٠/٢). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٣٠/٣). وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٣٦٥٣/٢).
(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس، باب: تحريم صورة الحيوان. ح/٢١١١ (ص٩٤٦).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٦) انظر: تفسير القرآن، لابي المظفر (٢٨٩/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٢٩٦/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٥٧/٧).
(٧) سورة الكهف.
(٨) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٢٩٦/١).
(٩) سورة القلم.
(١٠) انظر: الانتصار، للعمراني (٤٧٠/٢). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٠٢/٨).

ومتى كان الأمر كذلك كان تكليف ما لا يطاق لازمًا[١].

وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول بقوله: (وهؤلاء جعلوا لفظ ما لا يطاق عامًا يدخل فيه كل فعل، لكون القدرة عندهم لا تكون إلا مع الفعل؛ ويدخل فيه خلاف المعلوم، ويدخل فيه المعجوز عنه، ويدخل فيه الممتنع لذاته، ثم ذكروا نحو "عشر حجج" يستدلون بها على جواز هذا الجنس، فإذا فصل الأمر عليهم ثبت أن دعواهم جواز ما لا يطاق للعجز عنه ـ سواء كان ممتنعًا لذاته أو ممكنًا ـ باطلة لا دليل عليها، وأما جواز تكليف ما يقدر العبد عليه من العبادة؛ ويقولون هم: إنه لا يكون قادرًا عليه إلا حين الفعل؛ فهذا مما اتفق الناس على جواز التكليف به؛ لكن ثم نزاع لفظي ومعنوي في كونه يدخل فيما لا يطاق، فصار ما أدخلوه في هذا الاسم أنواعًا مختلفة:

منها ما ينازعون في جوازه أو وقوعه، ومنها ما ينازعون في اسمه وصفته لا في وقوعه.

أما تكليف أبي لهب وغيره بالإيمان فهذا حق، وهو إذا أمر أن يصدق الرسول في كل ما يقوله وأخبر مع ذلك أنه لا يصدقه بل يموت كافرًا، لم يكن هذا متناقضًا، ولا هو مأمور أن يجمع بين النقيضين، فإنه مأمور بتصديق الرسول في كل ما بلغ، وهذا التصديق لا يصدر منه، فإذا قيل له: أمرناك بأمر ونحن نعلم أنك لا تفعله لم يكن هذا تكليفًا للجمع بين النقيضين.

فإن قال: تصديقكم في كل ما تقولون يقتضي أن أكون مؤمنًا إذا صدقتكم، وإذا صدقتكم لم أكن مؤمنًا؛ لأنكم أخبرتم أني لا أؤمن بكل ما أخبر به، قيل له: لو وقع منك لم يكن فيه هذا الخبر، ولم يكن يخبر أنك لا تؤمن فأنت قادر على تصديقنا، وبتقدير وجوده لا يحصل هذا الخبر وإنما وقع؛ لأنك أنت لم تفعل ما قدرت عليه من تصديقنا بهذا الخبر، فوقع بعد تكذيبك وتركك ما كنت قادرًا عليه، لم نقل لك حين أمرناك بالتصديق العام وأنت قادر عليه.

ولو قيل لك: آمن ونحن نعلم أنك لا تؤمن بهذا الخبر، فالذي أمرت أن تؤمن به هو الإخبار بأن محمدًا رسول الله، وهذا أنت قادر عليه ولا تفعله، وإذا صدقتنا في خبرنا أنك لا تؤمن لم يكن هنا تناقض، لكن لا يمكن الجمع بين الإيمان والتصديق، فإنه لم يقع ونحن لم نأمرك بهذا بل أمرناك بإيمان مطلق تقدر عليه، وأخبرنا مع ذلك أنك لا تفعل ذلك المقدور عليه، ولم نقل لك: صدقنا في هذا وهذا في حال واحدة، لكن الواجب عليك هو التصديق المطلق، والتصديق بهذا لا يجب عليك حينئذ، ولو وقع منك التصديق المطلق امتنع منا هذا الخبر، بل هذا الخبر إنما وقع لما علمنا أنه لا يقع منك التصديق المطلق.

وهذا كله لو قدر أن أبا لهب أسمع هذه الآية وأمر بالتصديق بها، وليس الأمر كذلك، لكن لما أنزل الله قوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾[٢]. لم يسلم لهم أن الله

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٥١/٧).

(٢) سورة المسد.

أمر نبيه بإسماع هذا الخطاب لأبي لهب وأمر أبا لهب بتصديقه، بل لا يقدر أحد أن ينقل أن النبي ﷺ أمر أبا لهب أن يصدق بنزول هذه السورة.

فقوله: إنه أمر أن يصدق بأنه لا يؤمن قول باطل لم ينقله أحد من علماء المسلمين فنقله عن النبي ﷺ قول بلا علم، بل كذب عليه.

فإن قيل: فقد كان الإيمان واجبًا على أبي لهب، ومن الإيمان أن يؤمن بهذا، قيل له: لا نسلم أن بعد نزول هذه السورة وجب على الرسول أن يبلغه إياها، بل ولا غيرها، بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح إذا قيل له: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾(1). وبعد ذلك لا يبقى الرسول مأمورًا بتبليغهم الرسالة؛ فإنه قد بلغهم فكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب بأعيانهم.

وقد يخبر الرسول عن معين أنه لا يؤمن ولكن لا يأمره أن يعلمه بذلك، بل هو مأمور بتبليغه وإن كان الرسول يعلم أنه لا يؤمن كالذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾(2). وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾(3).

فهؤلاء قد يعلم بعض الملائكة، وبعض البشر من الأنبياء وغيرهم في معين منهم أنه لا يؤمن وإن كانوا مأمورين بتبليغه أمر الله ونهيه، وليس في ذلك تكليفه بالجمع بين النقيضين، وذلك خلاف المعلوم، فإن الله يفعل ما يشاء بقدرته، وما لا يشاء يعلم أنه لا يفعله، وأنه قادر عليه لو شاء لفعله، وعلمه أنه لا يفعله، لا يمنع أن يكون قادرًا عليه)(4).

ويقول أيضًا: (وكذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتم بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾(5). فإنه يناقض هذا الإجماع، ومضمون الإجماع نفي وقوع ذلك في الشريعة وأيضًا فإن مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون يعاقبون على ترك

---

(1) سورة هود، الآية: (٣٦).
(2) سورة يونس.
(3) سورة البقرة، الآية: (٦).
(4) مجموع الفتاوى (٤٧١/٨، ٤٧٤).
(5) سورة القلم.

العبادة في حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم، وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين، لا يشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والإيهام)[(١)].

ويقول ابن أبي العز الحنفي ـ بعد حكايته قول الأشاعرة ـ: (والجواب على هذا بالمنع، فلا نسلم أنه مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة، ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[(٢)]. مع عدم علمهم بذلك، ولا للمصورين يوم القيامة: **((أحيوا ما خلقتم))**[(٣)]. وأمثال ذلك؛ لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله، ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز.

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾[(٤)]؛ لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفًا، بل يجوز أن يحمله جبلاً لا يطيقه فيموت.

وقال ابن الأنباري: أي: لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه، وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه. قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه، ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب، ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها)[(٥)].

ويقول الزجاج: (ومعنى: ﴿ وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[(٦)]. أي: ما يثقل علينا، فإن قال قائل: فهل يجوز أن يحمل الله أحدًا ما لا يطيق. قيل له: إن أردت ما ليس في قدرته البتة فهذا محال، وإن أردت ما يثقل ويخف فلله ـ عز وجل ـ أن يفعل من ذلك ما أحب؛ لأن الذي كلفه بني إسرائيل من قتل أنفسهم يثقل، وهذا كقول القائل: ما أطيق كلام فلان، فليس المعنى ليس في قدرتي أن أكلمه، ولكن معناه في اللغة: أنه يثقل علي)[(٧)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٠٢/٨).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٣١).
(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب: عذاب المصورين يوم القيامة، ح/٥٩٥١ (ص١٠٤٢) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان/ ح/ ٢١٠٨ (ص٩٤٤).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٥) شرح العقيدة الطحاوية (٦٥٣/٢، ٦٥٤).
(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٧) معاني القرآن وإعرابه (٣٧١/١).

ويقول القاضي عبد الجبار: (فأما قوله: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[1]. فقد يؤول على وجوه منها: أن المراد به ما قدمناه من طلب التخفيف في التكليف؛ لأن الفصيح قد يقول: الأمر الشاق لا طاقة لي به، وإن كان لو حاوله لأمكنه.

والثاني: أنه أراد بذلك المغفرة، وإزالة العقاب؛ لأن العبد لا يكاد يطيق العقاب العظيم بمعنى: أنه لا يطيق تحمله، ويعظم عليه الصبر فيه.

والثالث:أنه أراد بذلك ما يقتضيه ظاهره،وهو ألا يكلفهم بما لا يطيقون،وإن كان المعلوم أنه لا يفعله، كما قال: رَبِّ﴿ هَبْ لِى حُكْمًا ﴾ إلى قوله: وَلَا﴿ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾[2][3]. وإن كان ذلك معلومًا أنه لا يفعله أو سيفعله لا محالة.

وعلى هذا الوجه يسأل الأنبياء والمؤمنون الرحمة والمغفرة، وتكون الفائدة في ذلك الانقطاع إلى الله تعالى في المسألة على كل حال، ويكون في ذلك الصلاح التام)[4].

القول الرابع ـ التفصيل يقول المحمود: (وذلك أن يقال: تكليف ما لا يطاق على وجهين:

أحدهما ـ ما لا يقدر على فعله لاستحالته، وهو نوعان:

ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه، والطيران، وكالمقعد الذي لا يقدر على القيام، والأخرس الذي لا يقدر على الكلام.

وما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، وجعل المحدث قديمًا، والقديم محدثًا، فهذا قد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع في الشريعة، وأنه لا يجوز تكليفه؛ وذلك لأن عدم الطاقة فيه ملحقة بالممتنع والمستحيل، وذلك بموجب خروجه عن المقدور فامتنع تكليف مثله.

والثاني: ما لا يقدر عليه، لا لاستحالته، ولا للعجز عنه، لكنه لتركه والاشتغال بضده، مثل تكليف الكافر الإيمان في حال كفره، فهذا جائز خلافًا للمعتزلة؛ لأنه من التكليف الذي اتفق المسلمون على وقوعه في الشريعة، وهو أمر العباد كلهم بما أمرهم الله به ورسوله من الإيمان به وتقواه. لكن هل يطلق على هذا بأنه تكليف ما لا يطاق؟

جمهور أهل السنة والجماعة قد منعه ـ وهو الراجح ـ وإن كان بعض المنتسبين إلى أهل السنة قد أطلقه في ردهم على القدرية)[5].

الترجيح :

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).
(٢) في الأصل: (رب احكم بالحق، ولا تخزني يوم يبعثون) ولعل الصواب المثبت.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: (٨٣ ـ ٨٧).
(٤) متشابه القرآن (١٣٩/٢).
(٥) القضاء والقدر، للمحمود (ص٢٧٧، ٢٧٨).

وبعد يتبين أن الراجح ـ والله أعلم ـ القول الأخير ؛ وذلك لأن الاستطاعة نوعان هما :

١ـ استطاعة قبل الفعل ، وهي مناط الأمر والنهي . كالاستطاعة في الحج .

٢ـ استطاعة مقارنة للفعل ، ولا تكون إلا معه ، وهي القدرة التي يكون بها الفعل ؛ لأنه لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة[١] .

* * *

المبحث الثالث

آيات في أفعال العباد

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: وَإِن﴿ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي (٦٣٣/٢، ٦٣٥) .

يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ ﴾[1]. مع قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

يشير ظاهر الآية الأولى إلى أن الحسنات والسيئات من عند الله، بينما يشير ظاهر الآية الثانية إلى أن الحسنات من عند الله، والسيئات من الإنسان. وهذا ما يتوهم من ظاهره التعارض، وسأورد ـ بمشيئة الله ـ من أقوال العلماء ما يدفع هذا التوهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء في تفسير هاتين الآيتين مسلك الجمع بينهما. وذلك على النحو الآتي:
القول الأول ـ أن المراد بالحسنة والسيئة في الآيتين: النعم والمصائب، والمراد بقوله: ﴿ مِنۡ عِندِكَ ﴾ أي: بشؤمك، أو سوء تدبيرك، والمراد بقوله: ﴿ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ أي بسبب ذنبك.
وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وجمهور المفسرين كأبي العالية وقتادة وابن زيد والسدي وغيرهم[3].

يقول ابن قتيبة: (الحسنة هنا: الخصب والمطر. يقولون إن أصابهم خصب وغيث قالوا هذا من عند الله.
والسيئة: الجدب والقحط، يقول: وإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، أي: بشؤمك، يقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[4].

ومثل هذا قوله حكاية عن فرعون وملئه: ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ ﴾ يريد إذا جاءهم الخصب والمطر، قالوا: هو ما لم نزل نتعرفه. ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٧٣/٥ ـ ١٧٦). ومعاني القرآن، للزجاج (٨٠/٢). وتأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص٣٩١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٥٠/١ ـ ٤٥١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٥٦٤/١). والكشاف، للزمخشري (٥٤٦/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٤٢/٤). وزاد المسير، لابن الجوزي (١٥٦/٢، ١٥٧). ومفاتيح الغيب، للرازي (١٩٣/١٠ ـ ١٩٦). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٨٣/٥ ـ ٢٨٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٦٣/٢ ـ ٣٦٤). وتفسير أبي السعود (٢٠٥/١). وفتح القدير، للشوكاني (٤٨٩/١).
(٤) سورة النساء، الآية: (٧٨).

يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن ﴾مَّعَهُۥٓ أي يتشاءمون بهم. أَلَآ﴿ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ﴾ٱللَّهِ[1] أي: ما تطيروا بموسى ـ بمجيئه ـ من عند الله.

ونحو قوله: وَإِذَآ﴿ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾. أي خصبًا وخيرًا، ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ ﴾ أي جدب وقحط بِمَا﴿ قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي بذنوبهم.إِذَا﴿ هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ ﴾[2].

ثم قال: مَّآ﴿ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ ﴾ أي من خير فَمِنَ﴿ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ أي من شر فَمِن﴿ نَّفۡسِكَ ﴾[3] أي بذنبك. الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره)[4].

ويقول أبو المظفر السمعاني: (فإن قيل: كيف وجه الجمع بين الآيتين، فإنه قد قال في الآية الأولى: قُلۡ﴿ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ﴾ٱللَّهِ[5] قيل: معنى الآية الأولى: أن الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها تقع من عند الله، ومعنى الآية الثانية: وَمَآ﴿ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن ﴾ نَّفۡسِكَ[6] أي: ما أصابك من سيئة من الله؛ فبذنب نفسك، عقوبة لك)[7].

ويقول البغوي: (فإن قيل: كيف وجه الجمع بين قوله: قُلۡ﴿ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[8]. أي الخصب والجدب، والنصر والهزيمة كلها من عند الله، وقوله: فَمِن﴿ ﴾نَّفۡسِكَ[9] أي: ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال تعالى: وَمَآ﴿ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾[10]. يدل عليه ما روى مجاهد عن ابن عباس

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٣١).
(٢) سورة الروم، الآية: (٣٦).
(٣) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٤) تأويل مشكل القرآن (ص٣٩١، ٣٩٢).
(٥) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٦) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٧) تفسير القرآن (١/٤٥٠، ٤٥١).
(٨) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٩) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(١٠) سورة الشورى، الآية: (٣٠).

رضي الله عنهما أنه قرأ: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ وأنا كتبتها عليك[1])[2].

ويقول ابن حزم: (وأما قولنا نحن فيها[3]: فهو ما قاله عز وجل متصلاً بهذه الآية دون فصل: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [4].

ثم قال تعالى إثر ذلك بعد كلام يسير: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[5].

فصح بما ذكرنا كل هذا الكلام متفق لا يختلف فقدم الله تعالى أن كل شيء من عنده، فصح بالنص أنه تعالى خالق الخير والشر، وخالق كل ما أصاب الإنسان، ثم أخبر تعالى أن ما أصابنا من حسنة فمن عنده وهذا هو الحق؛ لأنه لا يجب لنا عليه تعالى شيء.

فالحسنات الواقعة منا فضل مجرد منه لا شيء لنا فيه، وإحسان منه إلينا لم نستحقه قط عليه.

وأخبرنا أن ما أصابنا من سيئة فمن أنفسنا بعد أن قال: إن الكل من عند الله، فصح أننا مستحقون النكال لظهور السيئة منا، وأننا عاصون بذلك، كما حكم علينا تعالى وحكمه عز وجل الحق والعدل، ولا مزيد وبالله التوفيق)[6].

ويقول ابن تيمية: (وقد ظن طائفة: أن في الآية إشكالاً، أو تناقضًا في الظاهر، حيث قال: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، ثم فرق بين الحسنات والسيئات، فقال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ وهذا من قلة فهمهم، وعدم تدبرهم الآية. وليس في الآية تناقض. لا في ظاهرها، ولا في باطنها. لا في لفظها ولا معناها؛ فإنه ذكر عن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، الناكصين عن الجهاد ما

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة، ح/١٧٤٤ (٢٠٥/٢). والآجري في الشريعة، ح/٥٦٨ (٩٧١/٢) وهي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم.

(٢) معالم التنزيل (٥٦٥/١).

(٣) أي في قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾.

(٤) سورة النساء، الآيتان: (٧٨، ٧٩).

(٥) سورة النساء.

(٦) الفصل (١٣١/٣، ١٣٢).

ذكره بقوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾[١]

هذا يقولونه لرسول الله ﷺ أي بسبب ما أمرتنا به من دينك، والرجوع عما كنا عليه، أصابتنا هذه السيئات؛ لأنك أمرتنا بما أوجبها، فالسيئات: هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب: هو أمرهم بها.

وقولهم: ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة؛ لأنه أمرهم بالجهاد، وتتناول أيضًا مصائب الرزق على وجه التشاؤم والتطير، أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه. وكما قال أهل القرية للمرسلين: ﴿إنا تطرينا بكم﴾ [٢]وكما قال الكفار من ثمود لصالح ولقومه:﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ ﴾ [٣]فكانوا يقولون عما يصيبهم من الحرب، والزلزال والجراح والقتل، وغير ذلك مما يحصل من العدو: هو منك؛ لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك، ويقولون عن هذا، وعن المصائب السمائية: إنها منك، أي: بسبب طاعتنا لك، واتباعنا لدينك، أصابتنا هذه المصائب كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ﴾.[٤]

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول، وفعل ما بعث به مسببًا لشر أصابه، إما من السماء وإما من آدمي، وهؤلاء كثيرون.

لم يقولوا: ﴿ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ بمعنى: أنك أنت الذي أحدثتها؛ فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئًا من ذلك، ولم يكن قولهم: مِنْ﴿ ﴾عِندِكَ خطابًا من بعضهم لبعض، بل هو خطاب للرسول ﷺ.

ومن فهم هذا تبين له أن قوله: مَّآ﴿ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ۚ لا يناقض قوله: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ بل هو محقق له؛ لأنهم هم من

---

(١) سورة النساء، الآيتان: (٧٨).
(٢) سورة يس ، الآية : (١٨).
(٣) سورة النمل ، الآية : (٤٧).
(٤) سورة الحج ، الآية : (١١).

أشبههم إلى يوم القيامة يجعلون ما جاء به الرسول والعمل به سببًا لما قد يصيبهم من مصائب، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة.
وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به، ويقولون: ليس هذا مما أمر الله به، ولو كان مما أمر الله لما جرى على أهله هذا البلاء.
وتارة لا يقدحون في الأصل، لكن يقدحون في القضية المعينة، فيقولون: هذا بسوء تدبير الرسول، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد ـ إذ كان رأيه مع رأي النبي ﷺ ألا يخرجوا من المدينة ـ فسأله ﷺ ناس ممن كان لهم رغبة في الجهاد أن يخرج فوافقهم، ودخل بيته ولبس لامته، فلما لبس لامته ندموا، وقالوا للنبي: أنت أعلم فإن شئت ألا نخرج فلا نخرج، فقال: **((ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن ينزعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه))** [1]يعني: أن الجهاز يلزم بالشروع، كما يلزم الحج، لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج) [2].
وقد احتج أصحاب هذا القول بما يلي:
١ ـ أن الحسنات والسيئات يراد بها النعم والمصائب، ويراد بها الطاعات والمعاصي.
فمثال الأول: قوله تعالى: ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾، وقوله: إن ﴿ تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ ﴾. وهاتان الآيتان من هذا الجنس.
ومثال الثاني: قوله تعالى: مَن ﴿ جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا ﴾مِثۡلَهَا . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾[3]. وقوله: فَأُوْلَٰٓئِكَ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ﴾[4].
٢ ـ أن الله تعالى قال: مَّآ﴿ ﴾أَصَابَكَ[5]. ولم يقل: (ما أصبت وما كسبت) فما يفعله العبد يقال فيه:ما أصبت وكسبت وعملت،كقوله:وَمَن﴿ يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ، ح/١٤٨٢٩(٣٥١/٣) ،وقال الأرنؤوط :صحيح لغيره على شرط مسلم ،والبيهقي في السنن ،ح/١٣٠٦٠ (٤٠/٧) ،وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح/١١٠٠(٩٠/٣) .
(٢) مجموع الفتاوى (٢٤٨،٢٥١/١٤) .
(٣) سورة هود، الآية: (١١٤).
(٤) سورة الفرقان، الآية: (٧٠).
(٥) سورة النساء، الآية: (٧٩).

﴿مُؤۡمِنٞ﴾[1]. وقوله: مَن﴿ يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ﴾بِهِۦ[2]. وكقوله: وَمَن﴿ يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾[3].

وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه: أصابك، كقوله: وَمَآ﴿ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[٤]. وقوله: أَوَلَمَّآ﴿ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم﴾مِّثۡلَيۡهَا[5]. وقوله: فَأَصَٰبَتۡكُم﴿ مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾[6]. فقوله: مَّآ﴿ أَصَابَكَ مِنۡ﴾حَسَنَةٖ[7]. هو من هذا القسم، لا من القسم الذي يصيبه العبد باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير الآية[8].

٣ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قوله: (قُل﴿ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾﴿٧٨﴾[9].

يقول: الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها)[10].

٤ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس قوله: (مَّآ﴿ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[11] يقول: (الحسنة ما فتح الله عليه يوم بدر، وما أصابه من الغنيمة والفتح، والسيئة: ما أصابه يوم أحد أن شج في وجهه، وكسرت رباعيته)[12].

---

(١) سورة طه، الآية: (١١٢).
(٢) سورة النساء، الآية: (١٢٣).
(٣) سورة النساء، الآية: (١١٢).
(٤) سورة الشورى، الآية: (٣٠).
(٥) سورة آل عمران الآية: (١٦٥).
(٦) سورة المائدة، الآية: (١٠٦).
(٧) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٨) انظر: شفاء العليل، لابن القيم (٤٦١/٢، ٤٦٢). وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (٥١٥/٢، ٥١٦).
(٩) سورة النساء.
(١٠) جامع البيان (١٧٥/٥).
(١١) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(١٢) جامع البيان (١٧٥/٥).

٥ ـ ما رواه مسلم بسنده من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: **((ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من سيئاته))**(١).

القول الثاني ـ أن في الآية مضمرا، وتقديره فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا؛ يقولون: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، فيكون حكاية لقول الكفار(٢).

يقول البغوي: (وقال بعضهم: هذه الآية متصلة بما قبلها، والقول فيه مضمر تقديره: فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾(٣))(٤).

ويقول ابن عطية: (وقالت طائفة: معنى الآية كمعنى التي قبلها في قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾(٥). على تقدير حذف (يقولون). فتقديره: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا، يقولون: ما أصابك من حسنة.

ويجيئ القطع على هذا القول من قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ﴾(٦))(٧).

القول الثالث ـ أن المراد بالحسنات: كل الحسنات النعم، والطاعات، والسيئات: كل السيئات. المصائب والمعاصي، وفي الكلام استفهام مقدر تقديره: أفمن نفسك؟ فهو إنكار لا إثبات. وهو اختيار الرازي(٨).

قال ابن عطية: (وقالت طائفة: بل القطع في الآية من أولها، والآية مضمنة الإخبار أن الحسنة من الله وبفضله، وتقدير ما بعده: وما أصابك من سيئة فمن نفسك، على جهة الإنكار والتقرير، فعلى هذه المقالة، ألف الاستفهام محذوفة من الكلام، وحكى هذا القول المهدوي)(٩).

---

(١) الصحيح كتاب البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه... ح/٢٥٧٣ (ص ١١٢٨).

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٥١/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٥٦٥/١). والمحرر الوجيز،لابن عطية (١٤٢/٤، ١٤٣). والجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/٥). وفتح الرحمن، لزكريا الأنصاري (ص١١٩).

(٣) سورة النساء، الآية: (٧٩).

(٤) معالم التنزيل (٥٦٥/١).

(٥) في الأصل: من عند الله، والآية كما هو مثبت.

(٦) سورة النساء، الآية: (٧٩).

(٧) المحرر الوجيز (١٤٢/٤).

(٨) انظر: مفاتيح الغيب (١٩٤/١٠ ـ ١٩٧).

(٩) المحرر الوجيز (١٤٣/٤).

وقال ابن الجوزي: (وذكر فيه ابن الأنباري وجهًا آخر، فقال: المعنى: أفمن نفسك؟ فأضمرت ألف الاستفهام كما أضمرت في قوله: وَتِلۡكَ﴿ نِعۡمَةٌ ﴾تَمُنُّهَا[1]. أي: أو تلك نعمة)[2].

ويقول الرازي: (إذا عرفت هذا فنقول: قوله: وَإِن﴿ تُصِبۡهُمۡ ﴾حَسَنَةٌ يفيد العموم في كل الحسنات وكذلك قوله: وَإِن﴿ تُصِبۡهُمۡ ﴾سَيِّئَةٌ يفيد العموم في كل السيئات، ثم قال بعد ذلك: قُلۡ﴿ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ﴾ٱللَّهِ[3]. فهذا تصريح بأن جميع الحسنات والسيئات من الله، ولما ثبت بما ذكرنا أن الطاعات والمعاصي داخلتان تحت اسم الحسنة والسيئة كانت الآية دالة على أن جميع الطاعات والمعاصي من الله وهو المطلوب.

فإن قيل: المراد ههنا بالحسنة والسيئة ليس هو الطاعة والمعصية، ويدل عليه وجوه:

الأول ـ اتفاق الكل على أن هذه الآية نازلة في معنى الخصب والجدب، فكانت مختصة بهما.

الثاني ـ أن الحسنة التي يراد بها الخير والطاعة لا يقال فيها: أصابتني، إنما يقال: أصبتها. وليس في كلام العرب أصابت فلان حسنة بمعنى: عمل خيرًا، أو أصابته سيئة بمعنى: عمل معصية فعلى هذا لو كان المراد ما ذكرتم لقال: إن أصبتم حسنة.

الثالث ـ لفظ الحسنة واقع بالاشتراك على الطاعة وعلى المنفعة، وههنا أجمع المفسرون على أن المنفعة مراده، فيمتنع كون الطاعة مراده ضرورة أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه معًا.

فالجواب عن الأول: أنكم تسلمون أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ.

والجواب عن الثاني: أنه يصح أن يقال: أصابني توفيق من الله، وعون من الله، وأصابه خذلان من الله، ويكون مراده من ذلك التوفيق والعون تلك الطاعة، ومن الخذلان تلك المعصية.

والجواب عن الثالث: أن كل ما كان منتفعًا به فهو حسنة، فإن كان منتفعًا به في الآخرة فهو الطاعة وإن كان منتفعًا به في الدنيا فهو السعادة الحاضرة، فاسم الحسنة بالنسبة إلى هذين القسمين متواطئ الاشتراك فزال السؤال فثبت أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه)[4].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: (٢٢).
(٢) زاد المسير (١٥٧/٢).
(٣) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٤) مفاتيح الغيب (١٩٤/١٠).

وقال أيضًا ـ ردًا على قول الجبائي ـ: (فالجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى قال حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[1]. أضاف المرض إلى نفسه
والشفاء إلى الله، فلم يقدح ذلك في كونه تعالى خالقًا للمرض والشفاء، بل إنما فصل بينهما رعاية الأدب، فكذا ههنا فإنه يقال: يا مدبر السموات والأرض ولا يقال: يا مدبر القمل والصيبان والخنافس، فكذا ههنا.

الثاني: أكثر المفسرين قالوا في تفسير قول إبراهيم: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾[2]. أنه ذكر هذا استفهامًا على سبيل الإنكار، كأنه قال: أهكذا ربي، فكذا ههنا، كأنه قيل: الإيمان الذي وقع على وفق قصده قد بينا أنه ليس واقعًا منه، بل من الله، فهذا الكفر ما قصده وما أراده وما رضي به البتة، أفيدخل في العقل أن يقال: إنه وقع به؟ فإنا بينا أن الحسنة في هذه الآية يدخل فيها الإيمان، والسيئة يدخل فيها الكفر)[3].

وقال القرطبي: (وقيل: إن ألف الاستفهام مضمرة، والمعنى أفمن نفسك؟ ومثله قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾[4]. والمعنى: أو تلك نعمة؟وكذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى﴾[5]. أي: أهذا ربي؟ قال أبو خراش الهذلي:

رموني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم.

أراد "أهم" فأضمر ألف الاستفهام وهو كثير)[6].

واستدل أصحاب هذا القول بما ذكره ابن الجوزي بقوله: (وروى كرداب عن يعقوب: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ بتشديد النون، ورفعها ونصب الميم، وخفض اسم "الله"، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ بنصب الميم ورفع السين)[7].

قال ابن القيم: (قال الجبري: في الكلام استفهام مقدر تقديره: أفمن نفسك؟ فهو إنكار لا إثبات، وقرأها بعضهم:(فَمَنْ نَفْسُكَ). بفتح الميم ورفع نفسك. أي: من أنت حتى تفعلها؟ قال: ولا بد من تأويل الآية، وإذا ناقض قوله في الآية التي قبلها: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ

---

(١) سورة الشعراء.
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٧٧).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩٧/١٠).
(٤) سورة الشعراء، الآية: (٢٢).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (٧٧).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/٥).
(٧) زاد المسير (١٥٧/٢).

حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾(١). فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعًا من عنده، لا من عند العبد)(٢).

وقد أبطل القرطبي احتجاج الجبرية بهذه الآية فقال: (مسألة: وقد تجاذب بعض جهال أهل السنة هذه الآية واحتج بها؛ كما تجاذبها القدرية واحتجوا بها، ووجه احتجاجهم بها أن القدرية يقولون: إن الحسنة ههنا الطاعة، والسيئة: المعصية. قالوا: وقد نسب المعصية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾(٣). إلى الإنسان دون الله تعالى، فهذا وجه تعلقهم بها.

ووجه تعلق الآخرين منها قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾(٤). قالوا: فقد أضاف الحسنة والسيئة إلى نفسه دون خلقه، وهذه الآية إنما يتعلق بها الجهال من الفريقين جميعًا؛ لأنهم بنوا ذلك على أن السيئة هي المعصية، وليست كذلك لما بيناه)(٥).

ويقول ابن تيمية ـ أيضًا ـ مبطلاً احتجاج الجبرية بهذه الآيات: (وكذلك من احتج من مثبتة القدر بالآية على إثباته إذا احتج بقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾(٦) كان مخطئًا فإن الله ذكر هذه الآية ردًا على من يقول الحسنة من الله والسيئة من العبد، ولم يقل أحد من طوائف الناس أن الحسنة المفعولة من الله، والسيئة المفعولة من العبد.

وأيضًا: فإن نفس فعل العبد وإن قال أهل الإثبات: أن الله خلقه وهو مخلوق له ومفعول له؛ فإنهم لا ينكرون أن العبد هو المتحرك بالأفعال، وبه قامت، ومنه نشأت وإن كان الله خلقها.

وأيضًا: فإن قوله بعد هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾(٧). يمتنع أن يفسر بالطاعة والمعصية؛ فإن أهل الإثبات لا يقولون: إن الله خالق إحداهما دون الأخرى، بل يقولون: إن الله خالق لجميع الأفعال، وكل الحوادث.

---

(١) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٢) شفاء العليل (٤٦٠/٢، ٤٦١).
(٣) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٤) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢٨٧/٥).
(٦) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٧) سورة النساء، الآية: (٧٩).

ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة مع قولهم: الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه هو الذي خلق العبد هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا، ونحو ذلك ـ إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة؛ قال تعالى: لِمَن﴿ شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾(1). وقال تعالى: إِنَّ﴿ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾(٢). وقال تعالى: كَلَّآ﴿ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾(٣).

وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون في القدر، فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة: الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة، والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين فلا تكون فعلاً له، وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر: بل هي فعله، وليس أفعالاً للعباد، بل هي كسب للعبد: وقالوا: إن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها، ولا في صفة من صفاتها وإن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها، فيكون الفعل خلقًا من الله إبداعًا وإحداثًا. وكسبًا من العبد لوقوعه مقارنًا لقدرته، وقالوا: إن العبد ليس محدثًا لأفعاله ولا موجدًا لها، ومع هذا فقد يقولون: إنا لا نقول بالجبر المحض، بل نثبت للعبد قدرة حادثة، والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة)(٤).

وقال قبل ذلك: (فإن هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتي القدر ونفاته: هؤلاء يقولون: الأفعال كلها من الله؛ لقوله تعالى: قُلۡ﴿ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾(5). وهؤلاء يقولون: الحسنة الحسنة من الله والسيئة من نفسك؛ لقوله تعالى: مَّآ﴿ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾(٦).

---

(١) سورة التكوير.
(٢) سورة الإنسان، الآيتان: (٢٩، ٣٠).
(٣) سورة المدثر.
(٤) مجموع الفتاوى (١١٧/٨، ١١٨).
(٥) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٦) سورة النساء، الآية: (٧٩).

وقد يجيبهم الأولون بقراءة مكذوبة:(فَمَن نَفْسُكَ). بالفتح على معنى الاستفهام، وربما قدر بعضهم تقديرًا: أي أفمن نفسك؟ وربما قدر بعضهم القول في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ فيقولون: تقدير الآية: "فمال هؤلاء القول لا يكادون يفقهون حديثًا يقولون" فيحرفون لفظ القرآن ومعناه، ويجعلون ما هو من قول الله ـ قول الصدق ـ من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم، ويضمرون في القرآن ما لا دليل على ثبوته، بل سياق الكلام ينفيه، فكل من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذي تنصره)[1].

ثم بين أن المراد بالحسنة والسيئة هنا: هي النعم والمصائب. ثم قال: (والمقصود هنا أن الآية الكريمة حجة على هؤلاء وهؤلاء، حجة على من يحتج بالقدر، فإن الله تعالى أخبر أنه عذبهم بذنوبهم، فلو كانت حجتهم مقبولة لم يعذبهم بذنوبهم، وحجة على من كذب بالقدر؛ فإنه سبحانه أخبر أن الحسنة من الله، وأن السيئة من نفس العبد، والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة، والله عندهم ما أحدث لا هذا ولا هذا؛ بل أمر بهذا، ونهى عن هذا)[2].

ويقول القاضي عبد الجبار ـ مستنكرًا هذا القول ـ: (فأما من حرف التنزيل لكيلا يلزمه بطلان مذهب، وزعم أن المراد به: فَمَنْ نَفْسُكَ؟ على جهة الإنكار، فقد بلغ في التجاهل، ورد التلاوة الظاهرة إلى حيث يستغنى عن مكالمته)[3].

القول الرابع ـ أن المراد بالحسنة والسيئة في الآية الأولى: النعم والمصائب، وفي الآية الثانية: الطاعات والمعاصي.

وهو قول المعتزلة كأبي علي الجبائي، والقاضي عبد الجبار وغيرهم[4].

قال أبو علي الجبائي ـ فيما ذكر الرازي ـ : (قد ثبت أن لفظ السيئة تارة يقع على البلية والمحنة، وتارة يقع على الذنب والمعصية، ثم إنه تعالى: أضاف السيئة إلى نفسه في الآية الأولى بقوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[5]. وأضافها في هذه الآية إلى العبد بقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[6]. فلابد من التوفيق بين هاتين الآيتين، وإزالة

---

(١) مجموع الفتاوى (١١٠/٨، ١١١).
(٢) مجموع الفتاوى (١١٥/٨، ١١٦).
(٣) متشابه القرآن (١٩٩/٢).
(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤٥١/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٥٦٥/١). ومفاتيح ومفاتيح الغيب، للرازي (١٩٥/١٠، ١٩٦). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٨٧/٥). ومتشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (١٩٩/٢). وتنزيه القرآن عن المطاعن له أيضًا (ص١٠٢).
(٥) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٦) سورة النساء، الآية: (٧٩).

التناقض عنهما، ولما كانت السيئة بمعنى البلاء والشدة مضافة إلى الله، وجب أن تكون السيئة بمعنى المعصية مضافة إلى العبد حتى يزول التناقض بين هاتين الآيتين المتجاورتين، قال: وقد حمل المخالفون على تغيير الآية وقرؤا "فمن تعسك"[1]. فغيروا القرآن وسلكوا مثل طريقة الرافضة من ادعاء التغيير في القرآن.

فإن قيل: فلما فصل تعالى بين الحسنة والسيئة في هذه الآية، فأضاف الحسنة التي هي الطاعة إلى نفسه دون السيئة وكلاهما فعل العبد عندكم؟

قلنا: لأن الحسنة وإن كانت من فعل العبد فإنما وصل إليها بتسهيله تعالى وألطافه فصحت الإضافة إليه، وأما السيئة التي هي من فعل العبد فهي غير مضافة إلى الله تعالى؛ لا بأنه تعالى فعلها ولا بأنه أرادها، ولا بأنه أمر بها، ولا بأنه رغب فيها، فلا جرم انقطعت إضافة هذه السيئة من جميع الوجوه إلى الله تعالى)[2].

ويقول القاضي عبد الجبار: (مسألة: وربما قيل في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3]. أو ما يدل على أن الحسنات والسيئات من خلق الله. وجوابنا: أن المراد بهذه الحسنة الخصب والرخاء، وبهذه السيئة: الشدة والأمراض، فقد كانوا يقولون في مثل ذلك أنها بشؤم محمد ﷺ ينفرون العوام عن اتباعه، ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾[4]. والأمر يذهب في السيئات إلى أنها من عند غير المكتسب وغير الله يدل على ذلك قوله تعالى من بعد: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[5]. وأراد بذلك ما يفعله المرء من الطاعة والمعصية ولولا صحة ما ذكرناه لكان الكلام متناقضًا، ولقالت العرب لرسول الله ﷺ أنت تزعم في القرآن أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، وقد

---

(١) كذا في الأصل، ولعله خطأ من النساخ، والصواب: (،فمَن نَفْسُك،) فتح الميم وضم السين كما نقله المفسرون. وكما يفيده السياق.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي (١٠/١٩٥، ١٩٦).

(٣) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٤) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٥) سورة النساء، الآية: (٧٩).

وجدنا ذلك، وإنما عدلوا عن هذا القول؛ لأن المراد بالأول المصائب والأمراض، وبالثاني المعاصي فأضافها إلى نفس الإنسان)[1].

ويقول في موطن آخر: (وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[2]. يدل ظاهره على أن العبد هو الفاعل للسيئات في الحقيقة؛ لأنه تعالى لو أوجدها وفعلها لم يكن يضيفها إلى نفس الإنسان.

وهذه الآية تدل على صحة تأويلنا في الآية المتقدمة؛ لأنه لو كان المراد بتلك نفس ما أريد بهذه لكان الكلام يتناقض عن قرب؛ لأنه في الأولى أضافها إلى نفسه، وفي الثانية إلى العبد، ويتعالى الله عن ذلك، فكأنه قال: ما أصابكم من الرخاء والشدة فكله من عنده تعالى، وليس كذلك السيئات والحسنات؛ لأنها من عند أنفسكم.

فأما إضافته تعالى الحسنة إلى نفسه؛ فلأنه تعالى أعان عليها وسهل السبيل إليها ولطف فيها، فلم تقطع منا إلا بأمور من قبله تعالى، فصح أن تضاف إليه، ولا يمنع ذلك كونها من فعل العبد؛ لأن الإضافة قد تقع على هذين الوجهين، ولو كانت السيئة من فعله تعالى لم يكن لإضافتها إلى العبد وجه، ولا كان للفصل بينها وبين الحسنة في قطع إضافتها عن الله معنى، مع أنه الخالق لهما جميعًا)[3].

وقد أبطل أهل السنة هذا القول وردوا عليه. فقال البغوي: (ويتعلق أهل القدر بظاهر هذه الآية فقالوا: نفى الله تعالى السيئة عن نفسه ونسبها إلى العبد فقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[4]. ولا متعلق لها فيه؛ لأنه ليس المراد من الآية حسنات الكسب ولا سيئاته من الطاعات والمعاصي، بل المراد منهم ما يصيبهم من النعم والمحن، وذلك ليس من فعلهم بدليل أنه نسبها إلى غيرهم ولم ينسبها إليهم، فقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ ولا يقال في الطاعة والمعصية: أصابني إنما يقال: أصبتها، ويقال في النعم: أصابني، بدليل أنه لم يذكر عليه ثوابًا ولا عقابًا، فهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[5]. ولما ذكر

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن (ص١٠٢).
(٢) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٣) متشابه القرآن (١٩٩/٢).
(٤) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٣١).

حسنات الكسب وسيئاته نسبها إليه، ووعد عليها الثواب والعقاب، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1])[2].

ويقول ابن تيمية: (وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه:
منها: أنهم يقولون: فعل العبد ـ حسنة كان أو سيئة ـ هو منه، لا من الله، بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات، لكن هذا عندهم: هذا أحدث إرادة فعل بها الحسنات، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات، وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم.
والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات، وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات، إلا من جهة الأمر، لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا.
لكن منهم من يقول: بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة ما يكون مرادًا كما يقوله أهل السنة. لكن على هذا فليست عندهم كل الحسنات من الله، ولا كل السيئات، بل بعض هذا، وبعض هذا.

الثاني: أنه قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾[3]. فجعل الحسنات من الله، كما جعل السيئات من عند الله وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء، وقوله ـ بعد هذا ـ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ ومن ﴿سَيِّئَةٍ﴾[4].مثل قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[5].

الثالث: أن الآية أريد بها النعم والمصائب كما تقدم.
وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب؛ فإن قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾[6]. هو النعم والمصائب، ولأن قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[7]. حجة عليهم. وبيان أن الإنسان هو فاعل السيئات، وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات ـ عملها

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٦٠).
(٢) معالم التنزيل (١/٥٦٥).
(٣) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٤) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٥) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٦) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٧) سورة النساء، الآية: (٧٩).

وجزائها ـ فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله: فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء، وإذا كانت جزاء ـ وهي من الله ـ فالعمل الصالح الذي كان سببها: هو أيضًا من الله، أنعم بهما على العبد، وإلا فلو كان هو من نفسه ـ كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه، والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة، كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله: **((يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))**[١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾[٣]...)[٤].

وقال في موطن آخر ـ مبينًا سبب الجمع بين الحسنات والسيئات في الآية الأولى، والتفريق بينهما في الآية الثانية ـ: (قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[5]. الآية بعد قوله: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[٦]. لو اقتصر على الجمع أعرض العاصي عن ذم نفسه، والتوبة من الذنب والاستعاذة من شره، وقام بقلبه حجة إبليس ـ فلم تزده إلا طردًا ـ كما زادت المشركين ضلالاً حين قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[٧].

ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والإيمان بالقدر، واللجوء إلى الله في الهداية، كما في خطبته ﷺ: **((الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره))** فيشكره ويستعينه على طاعته، ويستغفره من معصيته، ويحمده على إحسانه، ثم قال: **((ونعوذ بالله من شرور أنفسنا))** إلى آخره، لما استغفر من المعاصي، استعاذ من الذنوب التي لم تقع، ثم قال: **((ومن سيئات أعمالنا))** أي ومن عقوباتها ثم قال: **((من يهد الله فلا مضل له))**[٨] إلخ. إلخ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب: تحريم الظلم ح/٢٥٧٧ (ص١١٢٨).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٦٥).
(٣) سورة الروم.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٤٦/١٤ ـ ٢٤٨).
(٥) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٦) سورة النساء، الآية: (٧٨).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (١٠٧).
(٨) سبق تخريجه ص (٢٤٢).

شهادة بأنه المتصرف في خلقه، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد، هذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين، فإنما يتحققان بحمد الله، وإعانته واستغفاره، واللجوء إليه، والإيمان بأقداره، فهذه الخطبة عقد نظام الإسلام والإيمان.

وأما كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه:

الأول ـ أن النعم تقع بلا كسب.

الثاني ـ أن عمل الحسنات من إحسان الله إلى عبده، فخلق الحياة، وأرسل الرسل، وحبب إليهم الإيمان، وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تبت فزال.

الثالث ـ أن الحسنة تضاعف.

الرابع ـ أن الحسنة يحبها ويرضاها، فيحب أن ينعم، ويحب أن يطاع؛ ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم إليه، والشر إلى محله، كما قال إمام الحنفاء:﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴾ ﴿٧٨﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ ﴿٨٠﴾[١].

الخامس: أن الحسنة مضافة إليه؛ لأنه أحسن بها بكل اعتبار، وأما السيئة فما قدرها إلا لحكمة.

السادس ـ أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة؛ لأنها إما فعل مأمور أو ترك محظور والترك أمر وجودي، فتركه لما عرف أنه ذنب وكراهته له، ومنع نفسه منه أمور وجودية، وإنما يثاب على الترك على هذا الوجه.

السابع ـ أن ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له، وخطر عليه.

الثامن ـ أن ما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه، فيرجع في ذلك إلى الله، ولا يرجو إلا هو، فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره، وإنما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه، ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق، ونعم المخلوق منه أيضًا وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحد على مثله، فإذا عرف أن ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[٢]. صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له،والشر انحصر سببه في النفس؛ فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله...)[٣].

---

(١) سورة الشعراء.

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/٢٢٢ ـ ٢٢٥). وانظر: شفاء العليل، لابن القيم (٢/٤٨١ ـ ٤٨٥).

ثم قال: (وفي قوله: فَمِن﴿ نَّفۡسِكَ ﴾ۚ[1]. من الفوائد: أن العبد لا يطمئن إلى نفسه، ولا يشتغل بملام الناس وذمهم، بل يسأل الله أن يعينه على طاعته؛ ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، ويدخل فيه من أنواع الحاجات ما لا يمكن حصره)[2].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يتبين أن الصحيح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول، وهو أن المراد بالحسنات والسيئات في الآيتين هي النعم والمصائب، وأن معنى قوله تعالى: فَمِن﴿ نَّفۡسِكَ ﴾ۚ أي: بسبب ذنبك؛ وذلك لما يلي:

١ ـ قوة أدلته وسلامتها من المعارض.
٢ ـ دلالة سياق الآيات وظاهرها عليه.
٣ ـ أنه اختيار ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقول الصحابي مقدم على غيره.
٤ ـ أنه اختيار جمهور المفسرين.

* * *

(١) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢٧/١٤).

المبحث الرابع
آيات في احتجاج المشركين بالقدر

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾[3]. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[4].

مع قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾[7].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

---

(١) سورة الأنعام.
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٣٥).
(٣) سورة النحل.
(٤) سورة السجدة.
(٥) سورة الأنعام.
(٦) سورة الزخرف.
(٧) سورة النحل.

يشير ظاهر الآيات الأولى إلى أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لهدى الناس جميعًا، ومن بينهم المشركين، بينما يشير ظاهر الآيات الأخرى إلى أن الله سبحانه وتعالى ينكر على المشركين قولهم ذلك، ويكذبهم ويرد عليهم.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء عند تفسيرهم هذه الآيات، مسلك الجمع بين الآيات وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ أن المشركين يزعمون أن إرادة الله الكونية ومشيئته لشرك المشركين تقتضي محبته ورضاه فأبطل زعمهم هذا وكذبه.

وهو اختيار طائفة من السلف والخلف، كابن جرير الطبري، وأبي المظفر السمعاني، وابن كثير، وابن القيم والشنقيطي[1].

يقول ابن جرير الطبري: (يقول جل ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ وهم العادلون بالله الأوثان والأصنام من مشركي قريش ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ يقول: قالوا احتجارًا من الإذعان للحق بالباطل من الحجة لما تبين لهم الحق، وعلموا باطل ما كانوا عليه مقيمين من شركهم وتحريمهم ما كانوا يحرمون من الحروث والأنعام على ما قد بين تعالى ذكره في الآيات الماضية قبل ذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾[2]. وما بعد ذلك لو أراد الله منا الإيمان به، وإفراده بالعبادة دون الأوثان والآلهة وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكًا، ولا جعل ذلك له آباؤنا من قبلنا، ولا حرمنا ما نحرمه من هذه الأشياء التي نحن على تحريمها مقيمون؛ لأنه قادر أن يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فعل شيء من ذلك سبيل، إما بأن يضطرنا إلى الإيمان وترك الشرك به، وإلى القول بتحليل ما حرمنا، وإما بأن يلطف بنا بتوفيقه، فنصير إلى الإقرار بوحدانيته، وترك عبادة ما دونه من الأنداد والأصنام وإلى تحليل ما حرمنا، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأوثان والأصنام، واتخاذ الشريك له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرم من الحروث والأنعام، فلم يحل بيننا وبين ما نحن عليه من ذلك قال الله مكذبًا لهم في قيلهم: إن الله رضي منا ما نحن عليه من الشرك، وتحريم ما نحرم ورادًا عليهم

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٧٨/٨). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٥٤/٢ ـ ١٥٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٧٦/٢ ، ٧٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٥٨/٣). وشفاء العليل، لابن القيم (٣٧٩/١). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٢٨، ١٢٩). والبيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، للحديدي (ص١٦٠، ١٦١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٣٦).

باطل ما احتجوا به من حجتهم في ذلك ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1].

يقول: كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد ما جئتهم به من الحق والبيان، كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طغوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياؤهم من آيات الله، وواضح حججه، وردوا عليهم نصائحهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ يقول: حتى أسخطونا فغضبنا عليهم فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه، فعبطوا بذوقهم إياه، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة، يقول: وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم إن هم لم ينيبوا فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم)[2].

ثم قال: (فإن قال قائل: وما برهانك على أن الله تعالى إنما كذب من قيل هؤلاء المشركين قولهم: رضي الله منا عبادة الأوثان، وأراد منا تحريم ما حرمنا من الحروث والأنعام، دون أن يكون تكذيبه إياهم، كان على قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾[3]. وعلى وصفهم إياه بأنه قد شاء شركهم وشرك آبائهم، وتحريمهم ما كانوا يحرمون.

قيل له: الدلالة على ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[4]. فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم سلكوا في تذكيبهم نبيهم محمد ﷺ فيما أتاهم به من عند الله من النهي عن عبادة شيء غير الله تعالى، وتحريم غير ما حرم الله في كتابه وعلى لسان رسوله مسلك أسلافهم من الأمم الخالية المكذبة الله ورسوله، والتكذيب منهم إنما كان لمكذّب، ولو كان ذلك خبرًا من الله عن كذبهم في قيلهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لقال: كذلك (كذَب الذين من قبلهم) بتخفيف الذال، وكان ينسبهم في قيلهم ذلك إلى الكذب على الله، لا إلى التكذيب مع علل كثيرة يطول بذكرها الكتاب، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه)[5].

ويقول أبو المظفر السمعاني: (وقيل: إنهم كانوا يقولون: إن الله أمرنا بالشرك، كما قال في الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[6]. وكأن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٢) جامع البيان (٧٨/٨).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٥) جامع البيان (٧٨/٨، ٧٩).
(٦) الآية: (٢٨).

قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[1]. أي هو الذي أمرنا بالشرك، فالرد في هذا لا في حصول الشرك بمشيئته، فإنه حق وصدق، وبه يقول أهل السنة)[2].

ويقول الشنقيطي: (والجواب: أن هذا الكلام الذي قاله الكفار حق أريد به باطل، فتكذيب الله لهم واقع على باطلهم الذي قصدوه بهذا الكلام الحق. وإيضاحه أن مرادهم أنهم لما كان كفرهم وعصيانهم بمشيئة الله، وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك فعدم منعه لهم دليل على رضاه بفعلهم، فكذبهم الله في ذلك مبينًا أنه لا يرضى بكفرهم كما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾[3]. فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية يلزمها الرضى، وهو زعم باطل، بل الله يريد بإرادته الكونية ما لا يرضاه بدليل قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[4]. مع قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾[5]. والذي يلازم الرضى حقًا إنما هو هو الإرادة الشرعية، والعلم عند الله)[6].

وقد احتج هؤلاء بما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[7]. بتشديد الذال، أي أنهم سلكوا في تكذيب النبي ﷺ مسلك أسلافهم مع أنبيائهم، ولو كان المراد تكذيب مقولتهم بأن الشرك وقع بمشيئة الله لقرئت الآية بتخفيف الذال "كذلك كذَب الذين من قبلهم")[8].

قبلهم")[8].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾[9]. وقوله في الآية الأخرى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٢) تفسير القرآن (١٥٤/٢، ١٥٥).
(٣) سورة الزمر، الآية: (٧).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٧).
(٥) سورة الزمر، الآية: (٧).
(٦) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص١٢٩).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٨) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٧٨/٨).
(٩) سورة الأنعام.

إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾[1]. أي: ليس لديهم أي حجة أو برهان على زعمهم، بل يتبعون ظنونهم، ويتقولون على الله بغير علم[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[3]. وقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[4]. وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[5]. فأثبت سبحانه وتعالى في هذه الآيات أن شركهم كان بمشيئة الله وأن الله لو شاء لهداهم، ولكن الله أنكر عليهم وكذبهم في زعمهم بأن يرضى ويأمر بهذا الشرك؛ لأنه أراده سبحانه وتعالى[6].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[7]. فدلت هذه الآية على زعم المشركين بأن الإرادة تقتضي الأمر والمحبة والرضى[8].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾[9]. مع قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[10]. فدلت الآية الثانية على أن الكفر حصل بإرادة الله الكونية ولكن بينت الآية الأولى أن الله لا يحب ولا يرضى الكفر كما يزعمه هؤلاء المشركون[11].

٦ ـ ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[12] ثم قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾[1]، فإنهم قالوا:

---

(١) سورة الزخرف.
(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٧٨/٨).
(٣) سورة الأنعام.
(٤) سورة السجدة، الآية: (١٣).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (٣٥).
(٦) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٢٨، ١٢٩). والبيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، للحديدي (ص١٦٠).
(٧) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(٨) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٥٤/٢، ١٥٥). ومعالم التنزيل، للبغوي (٧٦/٢).
(٩) سورة الزمر، الآية: (٧).
(١٠) سورة البقرة، الآية: (٧).
(١١) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٢٩).
(١٢) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ يقول الله سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين)[٢].

القول الثاني. أن المراد الإنكار على من جعل القدر حجة لأهل الذنوب والشرك.

وهو اختيار بعض المفسرين كالرازي، وابن حزم وغيرهم[٣].

يقول أبو المظفر السمعاني: (قيل: معنى الآية: أنهم كانوا يقولون الحق إلا أنهم كانوا يعدون ذلك عذرًا لهم، ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان، فالرد عليهم كان في هذا بدليل قوله تعالى بعده: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾[٤]. أي الحجة بالأمر والنهي باقية له عليهم، وإن شاء أن يشركوا)[٥].

ويقول البغوي: (وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرًا لأنفسهم، ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان، ورد عليهم في هذا؛ لأن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذرًا لأحد)[٦].

ويقول ابن حزم: (فصدقهم عز وجل في قولهم أنه لو شاء ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا ما حرموا، وأخبر تعالى أنه لو شاء لهداهم فاهتدوا، وبين تعالى أنه له الحجة عليهم في ذلك ولا حجة لأحد عليه تعالى، وأنكر عز وجل أن أخرجوا ذلك مخرج العذر لأنفسهم أو مخرج الاحتجاج على الرسل عليهم السلام كما تفعل المعتزلة، ثم بين تعالى أنه إنما أنكر أيضًا تكذيبهم رسله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[٧]. بالذال المشددة بلا خلاف من القراء، ودعواهم أن الله تعالى حرم ما ادعوا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٠٧).
(٢) جامع البيان (٧٨/٨).
(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٥٤/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٧٧/٢). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٣٩/١٣). والفصل، لابن حزم (١٩٣/٣).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٩).
(٥) تفسير القرآن، (١٥٤/٢).
(٦) معالم التنزيل (٧٧/٢).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

تحريمه، وهم كاذبون بقوله تعالى: قُلْ﴿ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾[1])[2].

ويقول ابن تيمية: (ومن ظن أن القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: سَيَقُولُ﴿ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[3]. قال الله تعالى ردًا عليهم: كَذَٰلِكَ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[4].

ولو كان القدر حجة لأحد لم يعذب الله مكذبي الرسل كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكات وقوم فرعون، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعًا لهواه بغير هدى من الله، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه ألا يذم أحدًا ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه، بل يستوي عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم فلا يفرق بين من يفعل معه خيرًا، وبين من يفعل معه شرًا، وهذا ممتنع طبعًا وعقلاً وشرعًا)[5].

القول الثالث ـ أن المشركين قالوا هذه المقالة على جهة السخرية والاستهزاء. وهو اختيار بعض المفسرين كابن الجوزي والنسفي والقرطبي وغيرهم[6].

يقول ابن الجوزي: (وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لم تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالون، وإنما هم على المشيئة أيضًا، فلا حجة لهم؛ لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر ومشيئة الله تعم جميع الكائنات، وأمره لا يعم مراداته، فعلى العبد اتباع الأمر، وليس أن يتعلل بعد ورود الأمر)[7].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٥٠).
(٢) الفصل (١٩٢/٣، ١٩٣).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٤) سورة الأنعام.
(٥) مجموع الفتاوى (٢٥٧/١١).
(٦) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٣٨٧/٥). وزاد المسير، لابن الجوزي (٩٩/٣). والمواقف، للجرجاني (٢٥٧/٣). والانتصار، للعمراني (٣٥٤/٢). والتوحيد، للماتريدي (ص ٣٠٢). والتبيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن (ص١٦١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢٩/٧).
(٧) زاد المسير (٩٩/٣).

ويقول العمراني: (الجواب الثالث: أن يقال: إنهم لم يقولوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا مصدقين بالله وبمشيئته، ولكنهم قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والتكذيب للنبي ﷺ، كما قالوا لما أمرهم بالإنفاق مما في أيديهم ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾[1]. فأكذبهم الله في ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2]. الآية كما ذمهم ووبخهم على ما قالوه في الإطعام بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٧﴾[3])[4].

ويقول الجرجاني: (حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا: أشركنا بإرادة الله تعالى، ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا ولما صدر عنا تحريم المحللات، فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم، ثم أنه تعالى رد عليهم مقالتهم وبين بطلانها وذمهم عليها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[5]. قلنا: قالوا: ذلك الكلام سخرية من النبي ﷺ ودفعًا لدعوته، وتعللاً لعدم إجابته وانقياده، لا تفويضًا للكائنات إلى مشيئة الله تعالى.

فما صدر عنهم كلمة حق وأريد بها باطل، ولذلك ذمهم الله بالتكذيب؛ لأنهم قصدوا به النبي ﷺ في وجوب إتباعه والمتابعة دون الكذب؛ لأن ذلك الكلام في نفسه صدق وحق)[6].

وقد ضعف ابن عطية هذا القول فقال بعد حكايته: (وهذا ضعيف)[7].

القول الرابع ـ أن المراد الإنكار على المشركين اعتقادهم أن شركهم وقع بإرادة الله. وهو قول المعتزلة بناءً على اعتقادهم بخلق أفعال العباد[8].

يستدل القاضي عبد الجبار بهذه الآية فيقول: (يدل على ما نقوله من أنه لا يريد القبيح من شرك وغيره من جهات:

منها: أنه تعالى حكى عن الذين أشركوا وقالوا: لو شاء الله ما أشركنا، وذلك يدل على أن من حالهم أنهم اعتقدوا أنهم أشركوا لأجل مشيئة الله، ولولاها لم يقع منهم، فقال

---

(١) سورة يس، الآية: (٤٧).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٣) سورة يس.
(٤) الانتصار (٣٥٤/٢).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٦) المواقف (٢٥٧،٢٥٨/٣) .
(٧) المحرر الوجيز (٣٨٧/٥).
(٨) انظر: متشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (٢٦٧/٢ ـ ٢٦٩). والكشاف، للزمخشري (٥٩/٢).

تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1]. وقد قرئ ذلك مخففًا[2] ومشددًا، فإذا قرئ مخففًا فالكلام ظاهر في أنه تعالى كذبهم في المقالة، من حيث ذكر أن من قبلهم كذبوا في مثل هذه المقالة. وإذا قرئ مشددًا فالمراد به: كذلك كذب الذين من قبلهم الرسل فيما دعوهم إليه. فلا يخلو من أن يكونوا دعوهم إلى مثل هذه المقالة، أو ضدها. فإن كانوا دعوا إلى مثلها، فالقول به ليس بتكذيب، بل يجب أن يكون تصديقًا، فلم يبق إلا أنهم دعوهم إلى ضدها، وهو القول بأنه تعالى لم يشأ الشرك، وأنه لا يقع من المشركين لأجل مشيئته.

ومن وجه آخر وهو: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾[3]. لأن المراد بذلك عذابنا، ولا يجوز أن يقال ذلك إلا في ارتكاب الباطل من المذاهب.

ومن جهة أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾[4].

ولا يقال ذلك عقيب حكاية قول ومذهب إلا على جهة التحقيق لبطلان ذلك المذهب والقول به، ونسب القائل إلى أنه عدل عن طريقة الحجة وسلك طريقة الشبهة.

ومن جهة أخرى: وهو قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[5]. لأن ذلك إذا ذكر في المذاهب فهو من أقوى الدلالة على بطلان التمسك بذلك.

ومن جهة أخرى: وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾[6]. يعني: تكذبون.

كما قال: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾[7]. فكل من أخبر بما لا يحقه مقدرًا فيه الصدق وهو في الحقيقة الكذب، يقال: إنه متخرص. وكل ذلك يبين صحة ما نقوله من أن الله تعالى لا يريد من العباد إلا الطاعة.

وقوله تعالى عقيب ذلك: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾[8]. يدل على أن المقصد بما تقدم ما بيناه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٢) هذه القراءة ليست من القراءات العشر المتواترة ، انظر البدور الزاهرة (١٣٧) .
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٦) سورة الأنعام.
(٧) سورة الذاريات.
(٨) سورة الأنعام، الآية: (١٤٩).

وقوله: فَلَوۡ﴿ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾١٤٩[(1)]. يدل على ذلك؛ لأنه لما أنكر قولهم، إن الشرك يقع بمشيئة الله، وبين بطلان ذلك لم يؤمن أن يظن ظان أنه تعالى لا يقدر على أن يحملهم على الطاعة وأن ذلك إذا كان يقع وضده باختيارهم لم يكن مقتدرًا عليهم، فقال الله عند ذلك: فَلَوۡ﴿ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾١٤٩[(2)]. مبينًا أنه إنما لم يفعل ذلك؛ لأن التكليف لا يصح إلا مع التخلية، وأنه لو شاء الإكراه والإلجاء لهداهم كلهم)[(3)].

ويقول الزمخشري: (سَيَقُولُ﴿ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوا﴾[(4)]. إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه، قال[(5)]: يعنون بكفرهم وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئته بمشيئته الله وإرادته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه كَذَٰلِكَ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾[(6)]. أي جاءوا بالتكذيب المطلق؛ لأن الله عز عز وجل ركب في العقول وأنزل في الكتاب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها والرسل أخبروا بذلك، فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره...) [(7)].

وقد أبطل هذا القول كثير من العلماء [(8)].

فقال البغوي: (ويستدل أهل القدر بهذه الآية، يقولون: إنهم لما قالوا: لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم، فقال: كَذَٰلِكَ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [(9)].

---

(١) سورة الأنعام.
(٢) سورة الأنعام.
(٣) متشابه القرآن (٢٦٧/٢ ـ ٢٦٩).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٥) سورة النحل، الآية: (٧٥).
(٦) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٧) الكشاف (٥٩/٢).
(٨) انظر: جامع البيان للطبري (٧٨/٨ ، ٧٩). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٥٤/٢). ومعالم التنزيل، للبغوي (٧٦/٢ ـ ٧٧). والمحرر الوجيز، لابن عطية (٣٨٧/٥، ٣٨٨). وزاد المسير، لابن الجوزي (٩٩/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٣٩/١٣، ٢٤٠). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢٩/٧). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٥٨/٣). والفصل، لابن حزم (١٩٢/٣، ١٩٣). والانتصار، للعمراني (٣٥٣/٢ ـ ٣٥٥). وشفاء العليل، لابن القيم (٣٧٨/١ ـ ٣٨٠). وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١٣٤/١، ١٣٥). وغيرها.
(٩) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

قلنا: التكذيب ليس في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[1]. بل ذلك القول صدق، ولكن في قولهم: إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه، كما أخبر عنهم في سورة الأعراف (الآية: ٢٨): ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فالرد عليهم في هذا كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[2].

والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[3]، قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[4] بالتشديد، ولو كان ذلك خبرًا من الله الله عز وجل عن كذبهم في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[5]. لقال: كذَب الذين من من قبلهم بالتخفيف، فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب، وقال الحسن بن الفضل: لو ذكروا هذه المقالة تعظيمًا وإجلالاً لله عز وجل، ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾[6]. وقال: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[7].والمؤمنون يقولون ذلك، ولكنهم قالوه تكذيبًا وتخرصًا وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون، نظيره قوله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾. قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾[8])[9].
﴾[8])[9].

قال ابن حزم: (فهذه الآية من أعظم حجة الله على القدرية؛ لأنه تعالى لم ينكر عليهم قولهم: ولو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ولو أنكره لكذبهم فيه،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٦) سورة الأنعام، الآية: (١٠٧).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (١١١).
(٨) سورة الزخرف.
(٩) معالم التنزيل (٧٦/٢، ٧٧).

وإنما أنكر تعالى قولهم ذلك بغير علم، وإن وافقوا الصدق والحق كما قدمنا آنفًا، وقد بين تعالى: أنه إنما أنكر عليهم ذلك بقوله عز وجل في الآية نفسها: إن﴿ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾﴿١٤٨﴾[1] ثم لم يدعنا تعالى في لبس من ذلك، بل وأتبع ذلك نصًا واحدًا، بأن قال: قُلۡ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾﴿١٤٩﴾[2].

﴾﴿١٤٩﴾[2].

فصدقهم عز وجل في قولهم أنه لو شاء ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا ما حرموا، وأخبر تعالى أنه لو شاء لهداهم فاهتدوا، وبين تعالى أن له الحجة عليهم في ذلك، ولا حجة لأحد عليه تعالى، وأنكر ـ عز وجل ـ أن أخرجوا ذلك مخرج العذر لأنفسهم، أو مخرج الاحتجاج على الرسل عليهم السلام كما تفعل المعتزلة، ثم بين تعالى أنه إنما أنكر أيضًا تكذيبهم رسله بقوله بالذال المشددة بلا خلاف من القراء، ودعواهم أن الله تعالى حرم ما ادعوا تحريمه وهم كاذبون بقوله تعالى: قُلۡ﴿ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ ﴾هَٰذَا[3].

فوضح بكل ما ذكرنا بطلان قول المعتزلة الجهال، وبان صحة قولنا: إن الله تعالى شاء كل ما في العالم من إيمان وشرك، وهدى وضلال، وإن الله تعالى أراد كون ذلك كله، وكيف يمكن أن ينكر تعالى قولهم: لو شاء الله ما أشركنا، وقد أخبرنا عز وجل هذا نصًا في قوله في السورة نفسها: ٱتَّبِعۡ ﴿ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ ﴾أَشۡرَكُواْ[4].

فلاح يقينا صدق ما قلنا من أنه تعالى لم يكذبهم في قولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء، وهذا مثل ما ذكر الله تعالى من قولهم: أَنُطۡعِمُ﴿ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ ﴾أَطۡعَمَهُۥٓ[5]. فلم يورد الله عز وجل قولهم هذا تكذيبًا له، بل صدقوا في ذلك بلا شك، ولو شاء الله لأطعم الفقراء والمجاويع.

---

(١) سورة الأنعام.
(٢) سورة الأنعام.
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٥٠).
(٤) سورة الأنعام، الآيتان: (١٠٦، ١٠٧).
(٥) سورة الأنعام، الآيتان: (١٠٦، ١٠٧).

وما نرى المعتزلة تنكر هذا وإنما أورد الله تعالى قولهم هذا لاحتجاجهم به في الامتناع من الصدقة وإطعام الجائع، وبهذا نفسه احتجت المعتزلة على ربها؛ إذ قالت يكلفنا ما لا يقدرنا عليه، ثم يعذبنا بعد ذلك على ما أراد كونه منا. فسلكوا مسلك القائلين لم كلفنا الله عز وجل إطعام هذا الجائع ولو أراد إطعامه لأطعمه؟

قال أبو محمد: تبا لمن عارض أمر ربه تعالى واحتج عليه، بل لله الحجة البالغة، ولو شاء لأطعم من أعزمنا إطعامه، ولو شاء لهدى الكافرين فآمنوا، ولكنه تعالى لم يرد ذلك، بل أراد أن يعذب من لا يطعم المسكين، ومن أضله من الكافرين، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وحسبنا الله ونعم الوكيل)[1].

وقال العمراني ـ بعد حكايته قول المعتزلة ـ: (والجواب أننا لا ننكر أن الله ذمهم ووبخهم، ولنا عن هذا أربعة أجوبة:

أحدها ـ أنهم لم يعبروا بالمشيئة ههنا التي تقول إنها الإرادة، وإنما عبروا بالمشيئة ههنا عن الأمر، فادعوا أن الله أمرهم وأمر آباءهم بعبادة الأصنام، وأنه أمرهم بتحريم ما حرموا من الحرث والأنعام من البحيرة والسائبة، والوصيلة والحام. ونظيرها في النحل فأكذبهم الله بما ادعوه من أنه أمرهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[2]. رسلهم ﴿ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾[3]. يعني بيانًا بأن الله أمركم.

والدليل على أنهم لم يعبروا بالمشيئة عن الإرادة؛ لأن الله أكذبهم فقال: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾[4]. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾[5]. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾[6]. فأخبر أنه ما شاء منهم الإيمان مشيئة اختيار ولا إجبار؛ لأن الخبر عام ولا معنى لتخصيص مشيئته بالإجبار على ما يدعي المخالف فقد مضى الدليل على إبطال دعواه لذلك.

---

(١) الفصل (١٩٢/٣، ١٩٣).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٩).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٠٧).

(٦) سورة يونس، الآية: (٩٩).

والجواب الثاني ـ أن نقول لهذا المخالف: وما تنكر أن يدعي خصمك أنهم أرادوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[1]. أي ما أجبرنا على ذلك، ولكنه أجبرنا على ذلك فأكذبهم أنه ما أجبرهم ولا اضطرهم إلى ذلك، ولكن وقع الشرك منهم بخلقه له، وإيثار واختيار منهم له، ونقابل ما ادعيت أن مشيئة هدايته لهم مشيئة إجبار بما ادعاه المشركون من أنه أجبرهم، وكل جواب لك عن هذا فهو جوابنا لك عن مشيئة الهداية أنها إجبار.

والجواب الثالث ـ أن يقال: إنهم لم يقولوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، مصدقين بالله وبمشيئته، ولكنهم قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والتكذيب للنبي ﷺ كما قالوا ـ لما أمرهم بالإنفاق مما في أيديهم ـ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[2]. فأكذبهم الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3]. الآية، كما ذمهم ووبخهم على ما قالوه في الإطعام بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٧﴾[4].

والجواب الرابع ـ أن يقال إنما ذمهم الله ووبخهم على إشراكهم، وتكذيبهم للرسول، ولم يذمهم على قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[5]؛ لأن الله قد قال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[6]. والدليل على هذا أنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[7]. وكذلك في النحل: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[8]. ولو كان الذم والتوبيخ على قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[9]. لقال: كذلك قال الذين من من قبلهم، كما أخبر عن مشركي العرب فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٢) سورة يس، الآية: (٤٧).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٤) سورة يس.
(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٦) سورة الأنعام، الآية: (١٠٧).
(٧) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).
(٨) سورة النحل، الآية: (٣٣).
(٩) سورة الأنعام، الآية: (١٤٨).

﴿ٱللَّهُ﴾أي هلا يكلمنا الله فنسمع كلامه أَوْ﴿ تَأْتِينَآ ﴾ءَايَةٌ فقال الله توبيخًا لهم وذمًا: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[1])[2].

ويقول ابن القيم: (ومن لم يفرق بين المشيئة والمحبة لزمه أحد أمرين باطلين لا بد له من التزامه: إما القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسوق والعصيان أو القول بأنه ما شاء ذلك ولا قدره ولا قضاه، وقد قال بكل من المتلازمين طائفة، قالت طائفة: لا يحبها ولا يرضاها، فما شاءها ولا قضاها، وقالت طائفة: هي واقعة بمشيئة وإرادته فهو يحبها ويرضاها. فاشترك الطائفتان في هذا الأصل، وتباينا في لازمه.
وقد أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئة في ثلاث مواضع من كتابه: في سورة الأنعام والنحل والزخرف، فقال تعالى: سَيَقُولُ﴿ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[3]. وكذلك حكى عنهم في النحل، ثم قال: كَذَٰلِكَ﴿ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾[4]. وقال في الزخرف: وَقَالُواْ﴿ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾. فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاه به بكونه أقرهم عليه، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذلك أمره ونهيه ودعوة الرسل، وقالوا: كيف يأمرنا بشيء قد شاء منا خلافه؟ وكيف يكره منا ما قد شاء وقوعه؟ فلو كرهه لم يمكنا منه، ولحال بيننا وبينه، فكذبهم سبحانه في ذلك، وأخبر أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم، ويبغضه ويمته، وأنه لولا بغضه وكراهته له لما أذاق المشركين بأسه، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه.
ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضاه، ومجرد إقراره لهم قدرًا لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوبًا له مرضيًا، ثم أخبر سبحانه أنه مستندهم في

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٥٣).
(٢) الانتصار (٢/٣٥٣ ـ ٣٥٥).
(٣) سورة الأنعام.
(٤) الآية: (٣٥).

ذلك إنما هو الظن، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب، ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما ـ ما ركبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية ـ إرسال رسله، وإنزال كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام، ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين، بل بمجموعهما لكمال عدله، وقطعًا لعذرهم من جميع الوجوه، ولذلك سمى حجته عليهم بالغة، أي بلغت غاية البيان وأقصاه، بحيث لم يبق معها مقال لقائل، ولا عذر لمعتذر، ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾[1]. وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة، فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته، ولزم وجوده عند مشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن بين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه، مما احتججتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده.

فلو أنهم ذكروا القدر والمشيئة توحيدًا له، وافتقارًا والتجاءً إليه، وبراءة من الحول والقوة إلا به، ورغبة إليه أن يقيلهم مما لو شاء ألا يقع منهم لما وقع، لنفعهم ذلك، ولفتح لهم باب الهداية، ولكن ذكروه معارضين به أمره، ومبطلين به دعوة الرسل، فما ازدادوا به إلا ضلالاً[2].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول، وهو بطلان زعم المشركين أن إرادة الله الكونية ومشيئته لشرك المشركين تقتضي محبته ورضاه؛ وذلك لما يلي:

١ـ قوة أدلته وسلامتها من المعارض.

٢ـ دلالة سياق الآيات عليه.

٣ـ أنه قول جمهور المفسرين.

* * *

---

(١) سورة النحل.

(٢) شفاء العليل (٣٧٨/١ ـ ٣٨٠).

المبحث الخامس
آيات في قيام الحجة

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قال الله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾[٣]. ونحوها من الآيات.

مع قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾[٥]، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٦] ونحوها من الآيات.

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيات:

تشير الآيات الأولى إلى أن المنافقين والكافرين لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يرون، فهم صم بكم عمي، بينما تشير الآيات الأخر إلى أنهم يسمعون ويتكلمون ويرون، وأن الله جعل لهم أسماعًا وأبصارًا وألسنة.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هذه الآيات:

لقد سلك العلماء في تفسير هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات وذلك على النحو الآتي:
أن المراد بالآيات الأولى: أنهم صم عن سماع الحق، وبكم عن قوله، وعمي عن رؤيته.
وأن عدم انتفاعهم بهذه الحواس جعلها كعدمها، بينما دلت الآيات الأخرى على وجود هذه الحواس حسًا وإن كان لا ينتفع بها.

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة البقرة.
(٣) سورة الملك.
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٠).
(٥) سورة المنافقون، الآية: (٤).
(٦) سورة الملك.

وهو قول ابن عباس وجمهور المفسرين، ولا أعلم لهم مخالفًا[١].

يقول ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨﴾[٢]: (وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن المنافقين، أنهم باشترائهم الضلالة بالهدى، لم يكونوا للهدى والحق مهتدين، بل هم صم عنهما فلا يسمعونهما لغلبة خذلان الله عليهم، بكم عن القيل بهما، فلا ينطقون بهما. والبكم: الخرس، وهو جمع أبكم، عمي عن أن يبصروهما، فيعقلوهما؛لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون،وبمثل ما قلنا قال أهل التأويل)[٣].

واستشهد بما رواه بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾[٤]. يقول: (لا يسمعون الهدى، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه)[٥].

وروى عن قتادة أنه قال: (صم عن الحق فلا يسمعونه، عمي عن الحق فلا يبصرونه، بكم عن الحق فلا ينطقون به)[٦].

ويقول القاضي عبد الجبار: (والمراد بذلك: أنهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس والآلات فيما خلقت له، وأنعم عليهم بها لأجله، صاروا كأنهم قد سلبوها، وهذا يكثر في اللغة أن يقول الواحد وقد بين لغيره الشيء وبالغ فيه: إنه أصم أعمى، وقد طبع على قلبه، وربما تجاوزوا ذلك إلى أن قالوا: إنه ميت لا يعقل ولا يفهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[٧]. في هذا المعنى وقد قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حيـــاة لمن تنـــادي[٨]

---

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٦/١، ١٤٧). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٥٣/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٢٣/١). والكشاف، للزمخشري (٢٠٣/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٨٧/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٨٤/٢). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٩١/١). وفتح القدير، للشوكاني (٤٧/١). ومتشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار (٥٨/٢، ٥٩). وشفاء العليل، لابن القيم (٣٠١/١)، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص١٢، ١٣). والبيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، للحديدي (ص١٨٥، ١٨٦).

(٢) سورة البقرة.

(٣) جامع البيان (١٤٦/١).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨).

(٥) جامع البيان (١٤٦/١).

(٦) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٤٧/١).

(٧) سورة النمل، الآية: (٨٠).

(٨) هذا البيت لبشار بن برد ، انظر : ديوانه ، (ص٦٩٢).

وربما شبهوه بالحمار والبهيمة؛ لذهابه عن فهم ما أورد عليه، وكل ذلك يبين صحة ما قلناه)[1].

ويقول ابن القيم: (وأما البكم فقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[2] والبكم جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب، وبكم اللسان، كما أن النطق نطقان: نطق القلب، ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن.

فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق، ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبصره، وقلبه، وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[3]. وقد جمع سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[4]. فإذا أراد سبحانه هداية عبد فتح قلبه وسمعه وبصره وإذا أراد ضلاله أصمه وأعماه وأبكمه، وبالله التوفيق)[5].

ويقول الشنقيطي: (ووجه الجمع ظاهر، وهو أنهم بكم عن النطق بالحق، وإن تكلموا بغيره، صم عن سماع الحق، وإن سمعوا غيره، عمي عن رؤية الحق وإن رأو غيره، وقد بين تعالى هذا الجمع بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾[6]. الآية؛ لأن ما لا يغني شيئًا كالمعدوم،والعرب ربما أطلقت الصمم عن السماع الذي لا أثر له،ومنه قول قعنب بن أم صاحب:

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا[7]

وقول الشاعر:

أصمم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد[1]

---

(١) متشابه القرآن (٢/٨٥، ٥٩).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).
(٤) سورة الأحقاف، الآية: (٢٦).
(٥) شفاء العليل (١/٣٠١).
(٦) سورة الأحقاف، الآية: (٢٦).
(٧) انظر: الأماني في لغة العرب، لأبي علي القالي (١/١٢١).

وقول الآخر:

فأصممت عمرًا وأعميته عن الجود والفخر يوم الفخار[2]

وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه فهو كالعدم.

قال هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

وإن كلام المـــرء في غير كنهه لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها[3])[4]

* * *

---

(١) الكشاف، للزمخشري.

(٢) انظر: الخصائص، لابن جني (٢٥٤/٣).

(٣) انظر: البيان والتبيان، للجاحظ (٤٨٧/١).

(٤) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص١٢، ١٣).

المبحث السادس

آيات في الدعاء بحصول الشيء مع عدم توفر أسباب حصوله

الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض:

قول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[1] مع قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾[2].

بيان الوجه الموهم التعارض بين الآيتين:

تشير الآية الأولى إلى أن زكريا عليه الصلاة والسلام ليس لديه شك في قدرة الله على أن يرزقه الولد مع كبر سنه، وعقر امرأته، ولذلك دعا الله عز وجل بذلك، بينما يشير ظاهر الآية الثانية أنه يشك في ذلك، ولذلك سأل ربه مستفهمًا ومستنكرًا حصول ذلك.

أقوال العلماء في دفع إيهام التعارض بين هاتين الآيتين:

لقد سلك العلماء في تفسيرهم هذه الآيات مسلك الجمع بين الآيات، وذلك على النحو الآتي:

القول الأول ـ أن الشيطان وسوس لزكريا بأن النداء الذي سمعه ليس من الملائكة بل من الشيطان فشك في وسوسة الشيطان، وأراد أن يتأكد أن ما سمعه من الملائكة وليس من الشيطان، ولذلك سأل ربه أن تكون له آية يستدل بها على صحة ما سمعه فأوحى له بالآية.

وهو قول السدي وعكرمة واختيار ابن جرير الطبري[3].

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة آل عمران.

(٣) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٥٧/٣، ٢٥٨). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٤/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٠٥/٣). ومفاتيح الغيب، للرازي (٤٢/٨). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (٤٩).

يقول ابن جرير الطبري: (فإن قال قائل: وكيف قال زكريا وهو نبي الله: رَبِّ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِىَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾، وقد بشرته الملائكة بما بشرته به، عن أمر الله إياها به أشك في صدقهم، فذلك ما لا يجوز أن يوصف به أهل الإيمان بالله، فكيف الأنبياء والمرسلون، أم كان ذلك منه استنكارًا لقدرة ربه، فذلك أعظم في البلية؟ قيل: كان ذلك منه ﷺ على غير ما ظننت، بل كان قيله ما قال من ذلك، كما حدثني موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط عن السدي، لما سمع النداء ـ يعني زكريا لما سمع نداء الملائكة ـ بالبشارة بيحيى، جاءه الشيطان فقال له: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله، إنما هو من الشيطان يسخر بك، ولو كان من الله أوحاه إليك كما يوحى إليك في غيره من الأمر، فشك مكانه، وقال: أَنَّىٰ﴿ يَكُونُ لِى ﴾غُلَـٰمٌ ذكر، يقول ومن أين؟ وَقَدۡ﴿ بَلَغَنِىَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾[1])[2].

وروى بسنده أيضًا عن عكرمة أنه قال: (فأتاه الشيطان، فأراد أن يكدر عليه نعمة ربه، فقال: هل تدري من ناداك؟ قال: نعم، ناداني ملائكة ربي، قال: بل ذلك الشيطان، لو كان هذا من ربك لأخفاه إليك كما أخفيت نداءك، فقال: رَبِّ﴿ ٱجۡعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾[3].

فكان قوله ما قال من ذلك، ومراجعة ربه فيما راجع فيه بقوله: أَنَّىٰ﴿ يَكُونُ لِى ﴾غُلَـٰمٌ[4]. للوسوسة التي خالطت قلبه من الشيطان، حتى خيلت إليه النداء الذي سمعه كان نداء من غير الملائكة، فقال: رَبِّ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى ﴾غُلَـٰمٌ[5] مستثبتًا في أمره ليتقرر عنده بآية، يريه الله في ذلك أنه بشارة من الله على ألسن ملائكته، ولذلك قال: رَبِّ﴿ ٱجۡعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾[6])[7].

وقال الرازي ـ بعد حكاية هذا القول ـ: (قال القاضي: لا يجوز أن يشتبه كلام الملائكة بكلام الشيطان عند الوحي على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق عن كل الشرائع ويمكن أن يقال: لما قامت المعجزات على صدق الوحي

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٤٠).
(٢) جامع البيان (٣/٢٥٨).
(٣) سورة آل عمران، الآية: (٤١).
(٤) سورة آل عمران، الآية: (٤٠).
(٥) سورة آل عمران، الآية: (٤٠).
(٦) سورة آل عمران، الآية: (٤١).
(٧) جامع البيان (٣/٢٥٨).

في كل ما يتعلق بالدين لا جرم حصل الوثوق هناك بأن الوحي من الله تعالى بواسطة الملائكة ولا مدخل للشيطان فيه، أما ما يتعلق بمصالح الدنيا بالولد، فربما لم يتأكد ذلك المعجز، فلا جرم بقي احتمال كون ذلك من الشيطان، فلا جرم رجع إلى الله تعالى في أن يزيل عن خاطره ذلك الاحتمال)(١).

القول الثاني ـ أن دعاء زكريا واستفهامه كان عن الكيفية. أي: كيف يكون لي هذا الغلام، ومن أي وجه يكون هذا الولد، أمن امرأتي العاقر؟ أم من غيرها من النساء؟ وهو اختيار الزجاج، وابن عطية وابن كثير وغيرهم(٢).

يقول الزجاج: (وإنما سأل زكريا؛ لأنه أحب أن يعلم أيأتيه الولد وامرأته عاقر وهو مسن، أم يجعله الله على هيئة من يولد له ويجعل امرأته كذلك، أم يأتيها الولد وهما على الهيئة التي لا يكون معها ولد: فأعلمهما الله أن ذلك هين عليه كما أنشأهما ولم يكونا شيئًا، وأنه يعطيهما الولد وهما في هذا السن) (٣).

ويقول ابن عطية: (وهذا تأويل حسن لائق بزكريا عليه السلام) (٤).

ويقول ابن كثير: (هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد، ففرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي: عسا عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع) (٥).

القول الثالث ـ أن المراد من سؤاله عليه السلام التواضع لله، والمعنى: بأي منزلة استوجبت هذا؟ =

وهذا القول حكاه النحاس وأبو المظفر السمعاني، والقرطبي وغيرهم(٦).

قال النحاس: (يقال: كيف استنكر هذا وهو نبي، يعلم أن الله يفعل ما يريد؟ ففي هذا جوابان:

أحدهما ـ أن المعنى: بأي منزلة استوجبت هذا؟ على التواضع لله) (١).

---

(١) مفاتيح الغيب (٤٢/٨).

(٢) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٥٨/٣). ومعاني القرآن، للزجاج (٤٠٨/١). ومعاني القرآن، للنحاس (٣٩٥/١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣١٦/١). ومعالم التنزيل، للبغوي (٣٤٩/١). والمحرر الوجيز، لابن عطية (١٠٦/٣). وباهر البرهان، للغزنوي (٢٩٠/١). وزاد المسير، لابن الجوزي (٣٢٧/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٤٢/٨). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧٩/٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢١٤/٥). وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لزكريا الأنصاري (ص٨٦). وفتح القدير، للشوكاني (٣٣٧/١، ٣٣٨). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص٤٩). =

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٤٠٨/١).

(٤) المحرر الوجيز (١٠٦/٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢١٤/٥).

(٦) انظر: معاني القرآن للنحاس (٣٩٥/١). وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣١٦/١). والجامع والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧٩/٤). وفتح القدير، للشوكاني (٣٣٨/١).

ويقول أبو المظفر السمعاني: (قيل: إنما قاله على سبيل التواضع، بمعنى: مثلي على هذا الكبر من مثل هذه العجوز يكون له الولد) [٢].

القول الرابع ـ أن زكريا عليه السلام إنما سأل ربه هذا السؤال؛ لأنه نسي دعاءه؛ لطول المدة بين الدعاء والبشارة.

وهذا القول نسبه ابن عطية إلى مكي، وضعفه. فقال: (قال مكي: وقيل: إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة، وذلك أربعون سنة، وهذا قول ضعيف المعنى) [٣].

وقال الرازي: (نقل سفيان بن عيينة أنه قال: كان دعاؤه قبل البشارة بستين سنة حتى كان قد نسي ذلك السؤال وقت البشارة فلما سمع البشارة زمان الشيخوخة لا جرم استبعد ذلك على مجرى العادة، لا شكًا في قدرة الله تعالى فقال ما قال) [٤].

القول الخامس ـ أن المراد من استفهام زكريا الاستعظام والتعجب والدهشة.

وهو قول بعض المفسرين كالغزنوي وغيره[٥].

قال الغزنوي: (على التعجب لا التشكك، كأنه استعظم قدرة الله على نقض العادة)[٦].

ويقول الرازي: (والثاني: أن من كان آيسًا من الشيء مستبعدًا لحصوله ووقوعه إذا اتفق أن حصل له ذلك المقصود، فربما صار كالمدهوش من شدة الفرح، فيقول: كيف حصل هذا، ومن أين وقع هذا؟ كمن يرى إنسانًا وهبه أموالاً عظيمة، يقول: كيف وهبت هذه الأموال، ومن أين سمحت نفسك بهبتها؟ فكذا ههنا لما كان زكريا عليه السلام مستبعدًا لذلك، ثم اتفق إجابة الله تعالى إليه، صار من عظم فرحه وسروره قال ذلك الكلام)[٧].

الترجيح:

وبعد النظر في الأقوال السابقة، يظهر أن الراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الثاني والخامس، وأنه لا تعارض بينهما. ويكون المراد بالاستفهام هو: التعجب والدهشة والسؤال عن الكيفية.

---

(١) معاني القرآن (٣٩٥/١).
(٢) تفسير القرآن (٣١٦/١).
(٣) المحرر الوجيز (١٠٦/٣).
(٤) مفاتيح الغيب (٤٢/٨).
(٥) انظر: باهر البرهان للغزنوي (٢٨٩/١). ومفاتيح الغيب، للرازي (٤٢/٨). ودفع إيهام الاضطراب، للشنقيطي (ص٥٠).
(٦) باهر البرهان (٢٨٩/١).
(٧) مفاتيح الغيب (٤٢/٨).

ويشهد لذلك قوله تعالى ـ حكاية عن زوجة إبراهيم عليه السلام حينما بشرت بالولد ـ:
قَالُوٓاْ﴿ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾[1].

*   *   *

(١) سورة هود.